المعهد الفرنسي بدمشق
للدراسات العربية

زبدة الحلب من تاريخ حلب

تأليف

المولى الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله
ابن العديم

٥٨٨ هـ - ٦٦٠ هـ

عُني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه

سامي الدهان
دكتور دولة في الآداب من باريس
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

الجزء الثالث
٥٦٩ هـ - ٦٤١ هـ

المعهد الفرنسي بدمشق
للدراسات العربية

زبدة الحلب
من
تاريخ حلب

تأليف
المولى الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله
ابن العديم
٥٨٨ هـ - ٦٦٠ هـ

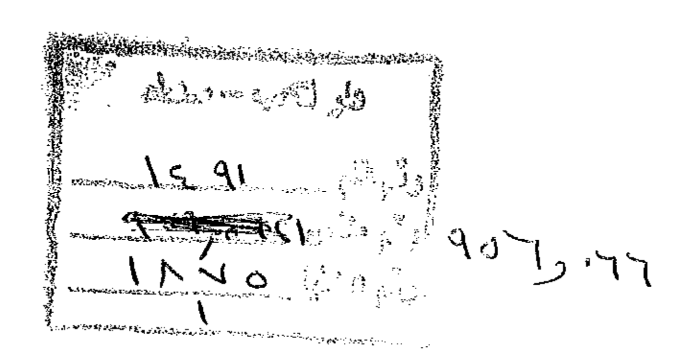
عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه
سامي الدهان
دكتور دولة في الآداب من باريس
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

الجزء الثالث
٥٦٩ هـ - ٦٤١ هـ

١٣٨٧ هـ – ١٩٦٨ م

كلمة المحقّق

أهمية هذا الجزء - تصوير المخطوطة في لننغراد - وصف مخطوطة لننغراد
طريقة التحقيق





مقدّمة الجزء الثالث

١ - أهمّيّة هذا الجزء

بسطنا في الجزء الأول[١]، الذي نشرناه منذ خمسة عشر عاماً، حياة ابن العديم في صفحات تقارب الثمانين. ذكرنا فيها ما كان لهذا المؤرخ من علاقات بمصر والشام والعراق، وما كان له من صلات بملوك هذه الأقطار الثلاثة وحكامها، لأنّه كان يسفر بينها في الأمور الطارئة. وما كانت هذه الأمور هينة ولا يسيرة فقد استقر الفرنج في بقاع من هذه الأرض العربية، وعززوا أماكنهم، وظنوا أنهم خالدون باقون في هــذه الديار. فتكاثروا واقتسموا الولايات فيما بينهم، واتخذوا الألقاب، واستقدموا من بلادهم الأوربية الامدادات والأسلحة في البر والبحر؛ فكانوا يُطبقون على سكان هذه البلاد، ويجثمون فوق أراضينا بالحرب حيناً، والفتن والدسائس أحياناً. يفرّقون بين الأخ وأخيه، فيعقدون الأحلاف مع حاكم عربيّ ضدّ حاكم عربيّ آخر، وتذهب شهوة الحكم أحياناً بالشهامة، والاباء، ورابطة الدم مذاهب تذهــل وتبكي. ففقد بعض الحكام صلتهم بماضينا لبطولي، وعقدوا آمالهم على المال والجاه، فعصفت بهم هــذه الشهوة وقضت عليهم إلى الأبد.

---

(١) صدر الجزء الأول بدمشق سنة ١٩٥١ م.

ولن نجعل الصورة قاتمة للكتاب كله فنظلمه، وانما يجب أن نعترف أن هذا الكتاب رسم حكاماً آخرين وقفوا في وجه هده المغريات والدسائس، وعصفوا بالفرنج ، وحاربوهم في البر والبحر ، ونهضوا في المعارك نهوض الفاتحين الأبطال .

فهذا الكتاب ، وخاصة — هذا الجزء الثالث — سجلّ حافل لأحداث هذه المنطقة ، التي يسميها معاصرونا بالشرق الأوسط ، يضم بين دفتيه ما وقع في الأقطار الثلاثة الشام والعراق ومصر ، من خلال بحثه عن منطقة سوريا الشمالية ، تحت اسم « حلب » وولايتها آنذاك .

فقد تحدّث أولاً عن الملك الصالح اسماعيل ابن الملك نور الدين زنكي الشهيد . وأفاض في فتوح صلاح الدين وغزواته ضد الفرنج ، وما قام به في مصر والشام ، وبسط صفحاته المشرقة في تاريخنا القومي على تفصيل بديع .

ثم انتقل إلى بقايا الدولة الأيوبية لهذه البلاد ، فأسهب في الخلاف بين أبناء صلاح الدين الأيوبي وإخوته وأبناء إخوته. فلما بلغ إلى الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين تحدث عما كان له في حلب من أياد لا ينساها التاريخ ، وآثار ما تزال ماثلة في هذه المدينة تحدث حتى اليوم عن أعماله وجهوده . ولقد خصّ هذا الملك الظاهر بنصف صفحات هذا الجزء تقريباً ، فسجّل له غزواته ضد الفرنجة ، وفتوحه ، ومعاركه الكثيرة ، ذلك أنه عرفه ، وخدمه ، وكان مقرباً اليه على صغر سنّه[1] .

ثم تكلم عن الملك العزيز ابن الملك الظاهر غازي فأسهب فيه كذلك وأطال . وتحدث عن سفاراته له وسعيه من أجله إلى الحجاز ومصر والعراق ، وقيامه بمهام كثيرة في خدمته .

وختم الكتاب بصفحات كثيرة عن أيام الناصر ابن الملك العزيز . فكأنّ هذا الجزء قد جاء أكثره في سيرة صلاح الدين وأولاده وما كان بينهم من خلاف ، وما كان لهم مع ذلك من أمجاد .

(١) انظر مقدمتنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ص [م ٢١] .

وقد وقف ابن العديم بكتابه عند أحداث سنة ٦٤١ للهجرة . وقد عاش فيما ذكرنا بعد ذلك حوالى عشرين عاماً ، كان يستطيع أن يسجل منها الأحداث التالية في بلاده . ولكننا قلنا إنه انصرف الى السياسة ، وانقلب إلى السفارة بين الملوك ، وانتهت به هذه السياسة إلى المقام في مصر هرباً من التتار ، وقضى ٦٦٠ هـ. بالقاهرة ، وفيها جدثه رحمه الله .

ونحن بهذا العرض السريع الموجز ، أردنا أن نظهر الخطوط الكبرى لمخطط هذا الجزء ، وقد تركه مؤلفه مسوّدة ، ولم يبوّبه ، ولم يعن بأمره أكثر من تسجيل ما قرأ وما سمع ، وما رأى وما عاين ، فكأنه أرخ لبلاده منذ الهجرة حتى أيامه ، نقلاً عن ثقات المصادر في الأحداث التي سبقت عصره ، وتسجيلاً يومياً للأحداث التي كان يعيش بينها، وتلفّه، وتحيط به ، وتشغل معاصريه ، فاستوعب في جمعه أدق ما جاء ، وأحصى في رسمه أعمق ما كان لأيامه ، فكان كتابه ثميناً أبداً ، وخاصة في هذا الجزء الأخير الذي لا يقع جلّه في المصادر .

ونحن لا نريد أن نستعرض الأحداث التي انفرد بها ، ففي حواشينا بيان لذلك . وما كتبنا هذه السطور إلاّ لنصف مبلغ التفصيل في هذا الجزء ، فقد خصّ مئتي صفحة من المخطوط القديم بأحداث سبعين سنة تقريباً ، تختلط فيها الأمجاد بالدسائس ، والفتن بالفتوحات . إنّه تحدّث عن الأعوام (٥٦٩ هـ — ٦٤١ هـ) ، وقد سمع من أبيه تفصيل السنين التي لم يشهدها ولم يستوعب أخبارها بل كانت هذه القصص عن التاريخ المعاصر تهز سمعه ، وهو صبيّ في مجالس أبيه . وكان أبوه في الذروة من قومه ، يجتمع اليه رجالات البلاد ، ويزوره المشاركون في أحداث ذلك الزمان . وكانت عينا الشاب تتفتحان على ما يسمع من قضايا ينفرد بها ذلك العصر .

وظل ابن العديم منذ فهم التاريخ ، يواكب أحداث عصره ، ويرافق الحوادث ، ويمشي في السفارات ، ويتوسط في الصلح بين الملوك ، ويعقد معهم مجالس الشورى ، ويقضي في الأمور الهامة التي كان مصير البلاد يتعلق بها آنئذ .

فليس من الغريب أن ينفق مئتي صفحة في الحديث عن سبعين سنة ، وأن يكتفي من قبل في الحديث عن خمسة قرون سابقة بأربعمائة صفحة في جزأين اثنين[١] ، تكلم فيهما عن البلاد منذ الفتح الاسلامي حتى موت نور الدين زنكي . ويبدو أن هذه القرون الخمسة السابقة لم تؤثر في نفس ابن العديم وتشغله كما شغلته هذه الأعوام السبعون المتأخرة ، ولعلّ ذلك لأن الأحداث الأخيرة جعلت البلاد في مفترق الطرق أو في مهبّ الرياح ، رياح الطامعين والحاقدين والحكام المغرورين والجهلة الغافلين .

لهذا كلّه أفرد ابن العديم لها وحدها هذه الصفحات الكثيرة ، ولهذا قسمنا الكتاب إلى أجزاء ثلاثة . وتصرّفنا في هذه التجزئة[٢] ، لنصرف همّنا آخر الأمر إلى هذا الجزء . فهو ، فيما رأينا ، واسطة العقد من كتابه ، وموضع التقدير من تأريخه ، فقد غدا المصدر الذي ينقل عنه المؤرخون بعده لأنه كان شاهد عيان . وكذلك نظر اليه المؤرخون من العرب والمستشرقين ممن تناول الحروب الصليبية بالبحث والتدقيق . ولقد ذكرنا من قبل أن المستشرق فريتاغ[٣] نشر صفحات من هذا القسم سنة ١٨٣٦ ، وقلنا إن المستشرق بلوشه[٤] ترجم حوادث هذا الجزء كلّه إلى الفرنسية (أي من سنة تقريباً ٥٣١ هـ — ٦٤٠ هـ) فصدرت الترجمة بباريس سنة ١٩٠٠ للميلاد .

وعلى الرغم من أهمية هذا الجزء ، وحاجة المطالعين والباحثين اليه ، تأخرنا في اصداره حتى الساعة ، وتساءل كثير من المحققين عن سبب ذلك حتى يئس كثير منهم ، فعاد الى الصورة الشمسية يقرؤها ، وفيما يلي نبين أسباب ذلك .

---

(١) يضم الجزء الأول أحداث ٤٥٧ سنة في ٣٦٤ صفحة . ويضم الجزء الثاني أحداث (٤٥٧ — ٥٦٩) أي ١١٢ سنة في ٣٨٦ صفحة ، فيكون الجزءان معاً في ٧٥٤ صفحة .

(٢) لقد جعلنا الجزء الأول ٨٢ ورقة — والثاني ١٠٢ ورقة — والثالث ٨٢ ورقة من مخطوطة باريس وهي الأصل لطبعتنا ، فالأجزاء متقاربة في عدد الورقات .

(٣) *Chrestomatia Arabica*, FREYTAG, Bonnae, 1834.

(٤) *Revue de l'Orient Latin*, 1896 — Tirage à part : *Histoire d'Alep*, Paris, 1900.

٢ - تصويرُ المخطُوطة في لنينغراد

صدر « الجزء الثاني » من « زبدة الحلب » لابن العديم سنة ١٩٥٤ بعد أربع سنوات من صدور « الجزء الأول » ، وكان في الظن أن يصدر هذا « الجزء الثالث » منذ عشر سنوات على الأقل ، ولكن أحداثاً أخرت صدوره .

وسبب هذا التأخير يرجع إلى أننا كنا نعتمد نسخة مفردة يتيمة في تحقيق هذا الكتاب ، هي مخطوطة باريس (رقم ١٦٦٦) ، وهي فيما يذكر القراء ثمينة ، غنية ، عريقة النسب ، لأنها نقلت عن نسخة بخط المؤلف ، أي أنها كتبت بعد ست سنوات تقريباً من وفاته[١] .

ولكن هذه النسخة فيما ذكرنا قد أصيبت بالبلل والرطوبة حتى تعسرت القراءة في أكثر صفحاتها الأولى ، وغابت جمل وتلاشت كلمات وغدا من المستحيل أن يكتفي الباحث بالاعتماد عليها ، وقد ازداد البلل في الصفحات الأخيرة منها ، وزالت جمل كاملة ، وطمست سطور في هذا الجزء الثالث .

واذا كنا قد استطعنا في الصفحات الأولى أن نملأ الثغرات بالرجوع الى «تاريخه الكبير» ، وأن نسدّ النقص بالرجوع إلى المؤرخين الذين كتبوا في الأمويين والعباسيين ، فذلك لأننا تتبعنا السطور الزائلة ، وأحصينا الحروف الغائبة والكلمات الحائلة ، لنعود بالمخطوطة المتهالكة إلى رمق الحياة ، ولنردّها إلى القراء ، ونجعلها في المراجع والمصادر العربية الهامة من جديد .

ولكننا نعجز عن القيام في هذا «الجزء الثالث» بمثل ما قمنا به في الجزأين الماضيين ، فقد انفرد ابن العديم هنا برواية ما لم يقع في المصادر التاريخية الأخرى المعاصرة ، فقد كان سفيراً يتحدث عن سفاراته ، كما قلنا ، وكان مصلحاً يوفّق بين الملوك كما ذكرنا . وكان يروي أخبار سفاراته ،

(١) انظر مقدمة الجزء الأول ، ص [م ٧٤].

وحكايات الخلاف بين الملوك ، وكان شاهد عيان لكثير من الأمور التي لم يعرفها غيره ، فكيف نملأ الثغرات هنا ، ونسد النواقص ، ونحن لا نجد المصادر التي توازن بكتابه ، وتعارض بتاريخه ، وتقابل على صفحاته ؟!

وكان لا بد من مخطوطة ثانية تدعم مخطوطة باريس ، وليس في العالم بعد نسخة باريس إلاّ نسخة (لننغراد) . ولقد تحدثنا عن نسخة باريس في إسهاب ، لأننا وقعنا عليها وصورناها منذ سنة ١٩٤٨ ، ولكننا لم نقع على نسخة (لننغراد) فنقلنا وصفها عن « فهرس المخطوطات[1] العربية بالمتحف الأسيوي» المنشور في سان بطرسبورغ سنة ١٨٨١ .

ووقفنا عند هذا الوصف المقتضب ، وانتظرنا طويلاً صورتها الشمسية ، فقد أجابنا المستشرق الصّديق «أغناطيوس كرتشقوفسكي» أكثر من مرّة بأنه يهتم للأمر[2] ، ولكنه قضى قبل أن يبلغ الأمنية .

ولما عرفنا أن الرسائل لا تنفع في تصوير المخطوطات اغتنمنا فرصة السفر[3] في دعوة وجهها أعضاء المجمع العلمي بموسكو سنة ١٩٥٤. وكان أول همنا أن نطالع المخطوطة في منجمها على الأقل ، ولكن الصديق المستشرق الأستاذ (بيلاييف) في لننغراد سهّل لنا طريق تصويرها مع غيرها من المخطوطات النادرة ، فحملنا الصورة إلى دمشق فرحين مغتبطين ، نردّد مع القائل : « هذه بضاعتنا ردّت إلينا » .

وأصبح بعد هذا ، من الواجب أن نستأنف العمل في تحقيق هذا الجزء الثالث على مخطوطتين تتكاملان ، لعل العمل يبتعد عن الخطأ جهد الامكان ، ويتقرّب من الصحّة والدقّة .

ولكننا لم نستطع أن نبدأ باظهار هذا الجزء ، إلاّ بعد أن فرغنا مما كنا بسبيله من اخراج كتاب ابن شدّاد[4] ، وهو على ثلاثة أجزاء كذلك ،

(١) انظر مقدمة الجزء الأول ص ٩٨ .
(٢) كانت المخطوطات بعيد الحرب الثانية بعيدة عن أماكنها في مخابئ أمينة كما فهمنا فيما بعد .
(٣) كنا أربعة في السفر باسم المجمع العلمي بدمشق : وهم الدكتور حسني سبح ، والأمير جعفر الحسني ، والأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار ، وكاتب هذه السطور .
(٤) عنوانه : « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » .

أصدرنا منه « تاريخ مدينة دمشق » سنة ١٩٥٦ ، و « تاريخ لبنان والأردن وفلسطين »[١] سنة ١٩٦٢ .

ولقد انتفعنا بكتاب ابن شداد ، فهو يبحث في جغرافيـــة الشام وتاريخه ، على اسهاب ودقة وشمول ، فاستطعنا به أن نحدّد مواقع وأماكن، انفرد ابن شدّاد في الحديث عنها وذكرها .

ومهما يكن من أمر ، فقد عدنا إلى ابن العديم بعد سنين ، نحقّق هذا الجزء ، بعد حصولنا على مخطوطة « لننغراد » ومقابلتها بنسخة باريس، ولا بد لنا من الكلام على مزايا هذه المخطوطة .

٣ - وَصْفُ مَخْطُوطَة لِنِنْغراد

ذكرنا في مقدمة الجزء الاول[٢] وصف هذه المخطوطة ، وقد نقلناه عن فهرس المخطوطات الذي كتبه « فون روزن » ، فقد قال : إن رقم المخطوطة ١٦٠ (من مجموعة روسو) ؛ وانها في ١١٩ ورقة ، بحجم ٢٦× ١٧ سم ، في كل صفحة ٢٣ سطراً ، وانها نقلت عن نسخة باريس ، وأثبت المستشرق خاتمة النسخة ، ليؤرخ كتابتها كما يلي :

« كتبت هذه النسخة من نسخة كتبت من خط مؤلفها المولى الصاحب كمال الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة الحلبي — رحمه الله تعالى ورضي عنه — وهذا آخر ما وجد بخطه : وكان الفراغ من تعليقها نهار الثلاثاء من عشرين شهر رمضان المعظم من شهور سنة ثلث وستين وثمانمائة والحمد لله وحده وصلى الله .... »

ومن الواجب أن نعترف قبل كل شيء بقدرة الناسخ وعلو كعبه في مهنته ، فهو يرسم نسخة باريس ، التي يبدو أنه نقل عنها ، نقلاً حرفيًّا ،

(١) ارجأنا اظهار الجزء الثالث من ابن شداد وهو «تاريخ الجزيرة» حتى يتم طبع هذا الجزء بين أيدينا .

(٢) المقدمة [م ٧٣] — انظر ما سبق في حديثنا عن الفهرس بالحاشية .

كأنه يصوّر ما يرى ، لا يكاد ينسى ، أو ينقص ، أو يزيد . وهــذا عجيب غريب عند ناسخ أو خطاط . ولا شك في أنه مارس المهنة ، وخبر أمرها طويلاً ، ومع ذلك لم يضع اسمه في نهاية المخطوطة . ولا نعرف من بلده أو مكانته أمرًا ، فقد اكتفى بأن نقل ما في ذيل مخطوطة باريس من عبارة أثبتناها قبل قليل ، وهي عين ما جاء في نسخة باريس ، فلم يغيّر من تواريخ الأيام والشهور والسنين المذكورة وهي : « نهار الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان المعظم من شهور سنة سب وسمن وسمايه والحمد لله وحده » وليس من الممكن أن يتفق مع ناسخ مخطوطة باريس في اليوم والشهر والعبارة الكاملة ؛ إلاّ إذا كان يصوّر تلك النسخة لنفسه ، أو لمن طلب اليه نقلها من غير أن يذكر اسمه ، وبلده ، أو يؤرخ السنة التي نقل فيها المخطوطة ، على عادة النسّاخ .

أما المستشرق « روزن » فيثبت في الفهرس هذه الجملة كلّها ، ولكنه يقرأ السنة قراءة عجيبة فيضع العبارة : « سنة ثلث وستين وثمانمائة » ليفترض أن النسخة نقلت بعد مئتي عام تقريباً من نسخة باريس . ونحن لا نجادل ولا نناقش وانما نضع ختام هذه الكلمة صورة شمسية لفاتحة مخطوطة لننغراد وخاتمتها ، ليشاركنا القارئ في الحكم ، ويقرأ معنا ما على مخطوطة لننغراد ، وينظر في الصورة الشمسية لنسخة باريس ، بالجزء الأول ، بعد المقدمة هناك ، فيوازن بين الخاتمتين ، ويقف عند تشابه العبارة فيهما جميعاً . فيرى بعد ذلك رأينا في أن التاريخ بالنسختين واحد ، وأن نسخة باريس على الطمس الذي في آخرها تشير إلى أن السنة هي « ست وستين وستمائة » وليست كما يرى المستشرق : « ثلث وستين وثمانمائة » .

وأول افتراض نقول به هو أن ناسخ لننغراد نقل ما على نسخة باريس حرفياً ، كل شيء ، حتى عبارة كتابة تلك النسخة ، ولم يذيّل هذه العبارة بتاريخ كتابته (باليوم والشهر والسنة) ، ولم يذكر اسمه ، وذلك لتكون نسخته في نفاستها كنسخة باريس التي كتبت — كما قلنا — بعد ست

سنوات من موت ابن العديم ، فلم يضف اليها شيئاً وكأن النسختين واحدة .

ولم يكشف أمر النسخة إلاّ التمليكات على الورقة الأولى ، وهي كثيرة ، نورد أقدمها[1] وهي «من كتب الفقير الى رحمة الله ... بن أبي جمال ؛ ... عفا الله عنه وغفر له وللمسلمين في سنة ٨٧٨ » ولعل هذا التاريخ هو الذي دفع المستشرق الى افتراض كتابة النسخة ٨٦٣ هـ ، فالنسخة بهذا التمليك الواضح لم تكتب أبعد من هذا التاريخ ، فهي بهذا تتأخر مئتي عام عن نسخة باريس على أبعد افتراض .

فالنسخة قديمة إذن ، والناسخ ماهر مجوِّد ، لا يكاد يسهو ولا يغفل ، يرتفع بالنسخة إلى مرتبة الاتقان والتجويد ، وممارسة المهنة ، فيرفد نسخة باريس ، ويعيننا على سدّ الثغرات ، واتمام النواقص ، وجلاء الغوامض التي وقعت بفعل البلل والطمس والرطوبة .

***

كل هذه المزايا في مخطوطة « لننغراد » تجعلها كنسخة الأصل «مخطوطة باريس » ، سواء بسواء . لولا أننا اكتشفنا فيها شيئاً جديداً ، ما كنا نعرفه ، ولم يشر إليه المستشرق « روزن » في فهرسه ، فهو لم يعارض النسختين بعضهما على بعض ، ولم يقابل بين سطورهما ، كما فعلنا . فلما تسلّمنا الصورة ، ومضينا في تحقيق هذا الجزء الثالث ، وقفنا على أمر مفاجئ ، وهو خرم أصاب مخطوطة لننغراد في وسطها ، فنقص منها مقدار (٧٧) ورقة من مخطوطة باريس ، أي حوالى (١٥٤ صفحة من المخطوطة) ، وهو قدر كبير لا يستهان به ، بالنسبة لمجموع الأوراق ، ويكاد يكون بمثابة الثلث من الكتاب .

ولقد شعر أحد مالكي مخطوطة « لننغراد » بهذا النقص فكتب في ذيل الورقة (٧٩ ظ) بخط مختلف عن خط النسخة ما يلي :

(١) هناك تمليكات على هذه الورقة منها أنها ملكت بالقسطنطينية سنة ست وتسعين بعد الألف ، ومنها عبارة : « نظر فيه وقطف من ثمار معانيه فقير عفو ربه وراجيه العبد أحمد بن السيد محمد الحسني عفى عنهما » ، ومنها انها اشتريت بدينارين ...

« من هنا نقص خمسة كراريس نسأل الله الكريم أن يمنّ علينا باتمامه وهو الموفق والمعين » .

وهذا الخرم يقابل نسخة الأصل عندنا – أي مخطوطة باريس – من الورقة (١٢٧ و) – إلى الورقة (٢٠٤ و) ، فيبدأ انقطاع الكلام عند الجملة : « ولم يبق في يدي الملك رضوان من الأعمال القبلية إلاّ حماة»[١] ، وهو بدء الورقة في مخطوطة باريس .

وينتهي الخرم عند بدء الشعر الذي قاله العامـــة في حلب ضدّ عماد الدين :

« وبعت بسنحار قلعة حلب　　عدمتك من بايع مشتري[٢] »

ويلاحظ القارئ أن الخرم من « الجزء الثـــاني » المطبوع يبلغ مقدار ١٩٠ صفحة[٣] مطبوعة أي ٥٨ ورقة من نسخة باريس .

وعلى هذا يبلغ الخرم في أول هذا « الجزء الثالث » مقدار تسع عشرة ورقة فقط ، أي ما يقابل (١٨٥ ظ – ٢٠٤ و) من نسخة الأصل بباريس ، لم نهتم به كثيرًا ، لأن أوراق الأصل في البدء سليمة ، ولأن المصادر التاريخية واكبتنا ، وخاصة ابن واصل في مفرج الكروب ، وابن الأثير .

***

وفيما عدا هذا الخرم ، فان مخطوطة لننغراد ، كانت أكبر عون لنا في تحقيق هذا الجزء ، وفي متابعة اخراج الكتاب . ولولاها لعجزنا عن المضيّ فيه ، فقد كان فرحنا بوصولها الينا لا يقدر ، لأنها وضحت الغامض ، وأكملت الناقص ، مما يراه القارئ في الحواشي ، وفي متن الكتاب بين المعقفات . وهذا ظفر كبير لابن العديم ، ونصر لكتابه الثمين ، فقد هجر بلده قبل قدوم التتار ، وأتلف هؤلاء فيما أتلفوا كثيرًا من تراثنا الرائع ،

---

(١) انظر زبدة الحلب ، الجزء الثاني ، ص ١٥١ . وارجع الى الصورة الفوتوغرافية، باللوحة رقم ٦ .

(٢) انظر هذا الجزء الثالث بين يديك بالصفحة ٦٨ .

(٣) أي من الصفحة ١٥١ – ٣٤١ ، من الجزء الثاني .

ومع ذلك وصلت نسختان من كتابه إلينا ، بعد أن قرّت إحداهما في باريس منذ عهد بعيد قبل سنة ١٦٨٠ ، فقد قرأها قارئ حلبي[1] في بيت الوزير «كولبير» الفرنسي ، منذ ثلاثمائة سنة تقريباً . واستقرّت الأخرى في «لننغراد» منذ زمن طويل كذلك .

وهاتان النسختان أعانتا على اخراج هذا الجزء ، وأنقذتاه من البلى ، وردتاه إلى أهل الشام لينعموا بقراءة تاريخهم الطويل الجميل ، وليعتبروا بما فيه من دروس وعبر .

ولا نحب بعد هذا كله ، أن نعرض لخط النسخة وكتابتها ، ووصف ما كان من الناسخ فيها ، فقد علقنا على ذلك في الحواشي ، وبسطنا حالها حين تخالف نسخة باريس . ووضعنا ، مع ذلك ، ختام هذا الكلام صوراً شمسية لبدء المخطوطة وختامها[2] ، دليلاً على قيمة المخطوطة ، وبياناً لكتابتها . يرجع اليها القارئ معنا ليشهد بمهارة الناسخ ودقته ، وعنايته العظيمة ، وأناته في النقل ، وبعده عن الاستهتار فيه ، فلم نقع له على خطأ في الاملاء والنحو ، مما يدل على علم وفهم لما ينقل ، واستيعاب لما يقرأ ، واهتمام بالتاريخ ، فلعله من المؤرخين الذين يهتمون بتاريخ الشام ، بل لعله ممن يعرفون المؤلف معرفة شخصية . وكل ما وقفنا عليه من حياة النسخة وناسخها ، أن أحد ملاكها قرأها سنة ٨٧٨ ، وأن هذا المالك هو... ابن أبي جمال ... ، ولعله ابن السابق الحمويّ ، الذي ملك[3] أجزاء «البغية» ، وكان يعيش في هذه الحقبة ، وكان صديقاً للسخاوي المؤرخ .

---

(١) ذكرنا اسم هذا القارئ ووصول المخطوطة إلى باريس وتنقلها ، فارجع الى مقدمة الجزء الأول لمعرفة التفصيل .

(٢) جعلنا أرقام هذه الصور أو اللوحات متابعة لأرقام اللوحات في الجزء الأول ولو كنا حصلنا من قبل على نسخة لننغراد لكانت في مجلد واحد .

(٣) انظر مقدمة الجزء الأول من الزبدة [م ٥٢] .

٤ - طَرِيقَةُ التَّحقِيق

ذكرنا في مقدمة الجزء الأول أن حال نسخة الأصل «مخطوطة باريس» اضطرنا إلى أن نعوج على المؤرخين ، فنقابل ما قالوا في أحداث الشام على ما قال ابن العديم سطراً سطراً ، ونفهم بقراءتهم ما يستعصي علينا فهمه في نسختنا بسبب الرطوبة والطمس والثغرات . وبذلك كنا نستطيع أن نملأ النواقص عندنا ، ونسدّ الخروم ، ونستكمل الجمل المبتورة ، حتى خرج الكتاب وهو على مخطوطة واحدة ، ولكنه عورض على مؤرخين متعدّدين ، وقوبل على مخطوطة « بغية الطلب » وهو كتابه الكبير ، فكأنه عورض على مخطوطات عدة .

وليس هذا من قبيل الزهو والاعتداد بما صنعنا ، فقد تسلّمنا مخطوطة « لننغراد » بعد أن نشرنا « الجزأين » من ابن العديم ، وأردنا أن نتساءل عن صحة عملنا ، فرجعنا إلى الجمل التي وضعناها بين معقوفتين ، مكان الجمل الغامضة والمطموسة والمبتورة ، عن موازنة وحدس وتخمين .

فرأينا بعد المراجعة والمقابلة أن هـــذه الجمل تكاد تكون منقولة من مخطوطة « لننغراد » ، فهي لا تختلف عنها إلاّ في أشياء يسيرة جداً ، كحروف العطف والوصل ، فكأننا لم نبتعد كثيراً ولا قليلاً في التخمين عمّا كان في نسخة المؤلف قبل البلل والطمس . وحين نعيد طباعـــة هذا الكتاب نشير في الهوامش إلى ما فعلنا وما وقع في نسخة لننغراد ، وذلك كله بفضل المصادر المختلفة وكتاب ابن العديم الكبير « البغية » .

وهذه المصادر المختلفة رجعنا إليها في تحقيق هذا الجزء ، وعملنا له ، كما عملنا لسابقيه في دقّة وأناة ، وصبر ، ونحن أشدّ وثوقاً بالأصل ، لأننا نملك نسختين اثنتين ، عادتا تواكبان المصادر ، وتؤكدان صحة السّير والعمل .

وقد تابعنا خطتنا في استعمال الفواصل ، والنقط ، والترقيم كما كنا نفعل في الكتب التي حققناها جميعاً ، وذلك لنتمشى مع روح العصر . ولقد تحكمنا في عبارة المؤلف ، فقسمنا الصفحة الى عدة مقاطع ، كما يفعل الكتاب المحدثون في الغرب والشرق ، وجعلنا أول المقطع في بدء السّطر ، لنفرق بين الأحداث المتلاحقة التي يرسمها المؤلف من غير أن يفصل بينها على عادة زمانه . وتسهل بذلك قراءة الكتاب ، ويستريح المطالع من تتابع الأحداث واختلاطها وتشابكها ، فلم يكن ابن العديم يعنى بذلك كله .

وقد اخترنا لهذه المقاطع المختلفة عناوين صغيرة أخذناها من عبارة ابن العديم نفسه ، جعلناها في يمين الصفحة . وجعلنا من مجموعة الأحداث المتشابهة باباً يجمعها ، ووضعنا له عنواناً كبيراً أخذناه من عبارة المؤلف ، وهذا العنوان الكبير يقع في منتصف الصفحة . وأما الأحداث التي تقع في حكم حاكم واحد فقد جمعناها تحت قسم خاص ، يتسلسل منذ بدء الكتاب حتى آخره . وكل حقبة من الزمان جعلناها في فصل مستقل يبدأ بورقة مستقلة تعلن عن الحاكم والأحداث التي جرت في أيامه . وكان في الجزأين السابقين لكل فترة حاكم يحكم حلب وحده ، وينتهي عهده بانتهائها .

ولكن هذا الجزء حافل بالاضطرابات والفتن والدسائس — كما قلنا — وكانت الحروب تقوم بين الاخوة والاعمام ، فينتصر هؤلاء وينكسر اولئك ، وتخرج حلب عن حكم بعض وتدخل في حكم بعض ، فيستعصى على الدارس أن يفعل بالأقسام هنا ما فعله من قبل . وعلى الرغم من هذا كله ، سرنا على خطتنا ، فقسمنا الصفحات الى فصول وأبواب ؛ وبذلك طال فصل وقصر آخر ، وذلك يمثل على كل حال هذه الفترة القلقة التي مرت بالشام.

وعلى هذا قام هذا الجزء على تقسيم ، يشبه سابقيه ، فانقسم إلى أقسام ، تضم تحتها عناوين كبيرة ثم عناوين صغيرة ، كأنها من صنع المؤلف نفسه ، لم نغيّر حرفاً واحداً مما قال ، ولم نحذف شيئاً مما كان في

المخطوطة ، وانما زدنا هذه العناوين لتسهل المطالعة كما يزيد التجميل في جمال الطبيعة ، أو كما تنفع المحطات في طريق المسافر .

ولقد قمنا باثبات الروايات المختلفة في حواشي هذا الكتاب ، وذلك للموازنة والمقابلة أو لتوضيح ما جاء عند ابن العديم ، أو إكمال الأسماء فكثيراً ما كان يوردها المؤلف بالكنية واللقب أو بالشهرة ، اكتفاءً وإيجازاً ، فقد كانت معروفة مشهورة لأيامه ، ولكنها وأسفاه ليست كذلك لأيامنا .

ونحن نشير إلى هذا هنا ، لئلا يرمينا بعض الأغرار بتضخيم الحواشي ، والافاضة في التعليقات ، أو التزيد من الصفحات، وانما نريد ان نيسّر للجيل الصاعد سبيل قراءة هذا التاريخ في سهولة ، ونشجعه على اقتحام المصادر في حب ، ونغريه على الاعتبار بما جاء في صفحاته من عبر ، تنفع في كل زمان ومكان .

ولذلك نقلنا عن ابن الأثير ، وابن واصل ، والمقريزي ، وأبي الفداء ، وغيرهم ما قالوه في الأحداث نفسها ، ولا نعدّ ذلك شرحاً وانما توكيداً للخبر ، وزيادة في التوثيق ؛ وأملنا أن يقبل عليه ناشئة هذا الزمان ، كما أقبل عليه المؤرخون قديماً ، بل كما أقبل عليه المستشرقون ، فنشر منه فريتاغ بألمانية منذ سنة ١٨٣٤ ، صفحات ، كما قلنا . وترجمه بلوشه في صدر هذا القرن .

وليس من الخير أن يسبقنا الغربيون مئة عام في العناية به ، ونحن عنه غافلون ، واليه محتاجون ، في ظروف تكالبت فيها الأحداث على أمتنا كما تكالبت منذ ثمانية قرون .

ولهذا قمنا بالواجب في تحقيقه ، على شدة ما لقينا في سبيل ذلك من عنت وارهاق ورحلة ، وصبر ، وجهد ، وسعينا أن يظهر على أكمل وجه ، وأدق صورة ، فصنعنا لكل جزء فهارسه المختلفة ، كأننا كنا نتوقع المسافات الزمنية بين أجزائه .

ومن واجب الدّين في عنقنا أن نثني على همّة الصديق الأستاذ المستشرق هانري لاووست ، فقد شجع خطواتنا خلال خمسة عشر عاماً ، ولم يشأ أن ننصرف عن تاريخ الشام إلى ما نستطيع من تأليف وترجمة وتحقيق في الأدب والشعر ، لأنه يؤثر أن ينشر هذا التاريخ على يد أبناء الشام ، وأن تعقبه تواريخ متلاحقة تصور العصور كلها وترسم حياة هذه البلاد التي عاش فيها هذا المستشرق قرابة ربع قرن وأحبها ، وعمل لها باحثاً وعالماً ومديراً للمعهد الفرنسي بدمشق .

ويحلو لي كذلك أن أزجي الشكر خالصاً للجهود المضنية التي بذلتها زوجتي الفاضلة في العون والتشجيع خلال تحقيق هذه الأجزاء ، فلولاها لما أبصر هذا الكتاب النور .

وحين أختم هذه الصفحات في تقديم هذا الجزء آمل أن يقع من نفوس القراء والأصدقاء والباحثين ، موقع أخويه ، فقـــد غمرني هؤلاء بالتشجيع والثناء ، وهم أهل لكل فضل وكرم ، وما عملنا في سبيل هذا الكتاب إلاّ لخدمة التراث الغالي والتربة المفداة والأرض الحبيبة ، لا نهدف من ورائه إلاّ وجه الله واللّغة والتاريخ .

والله من وراء القصد له الحمد والشكر والمنة على تمامه وكماله .

دمشق الشام — في أول ذي الحجة ١٣٨٦
و ١٢ آذار (مارس) ١٩٦٧

سامي الدهان

بيان الرموز المستعملة في هذه الطبعة

ص : صفحة

ج : جزء

ط : طبعة

و : وجه الورقة من المخطوطة

ظ : ظهر الورقة من المخطوطة

نسخة الأصل : نسخة باريس رقم ١٦٦٦

النسخة الثانية : نسخة لننغراد رقم ١٦٠

[ ] : وضعنا بينهما ما رأينا إضافته للسياق

<> : وضعنا بينهما ما أكملنا به نقصاً دلّت عليه النسخة أو طمساً لم يقرأ .

‖ : للدلالة على نهاية الصفحة وبدء الصفحة التالية في مخطوطة الأصل .

[...] : وضعناهما في الهامش للدلالة على رقم الورقة من مخطوطة الأصل مع بيان وجه الورقة أو ظهرها

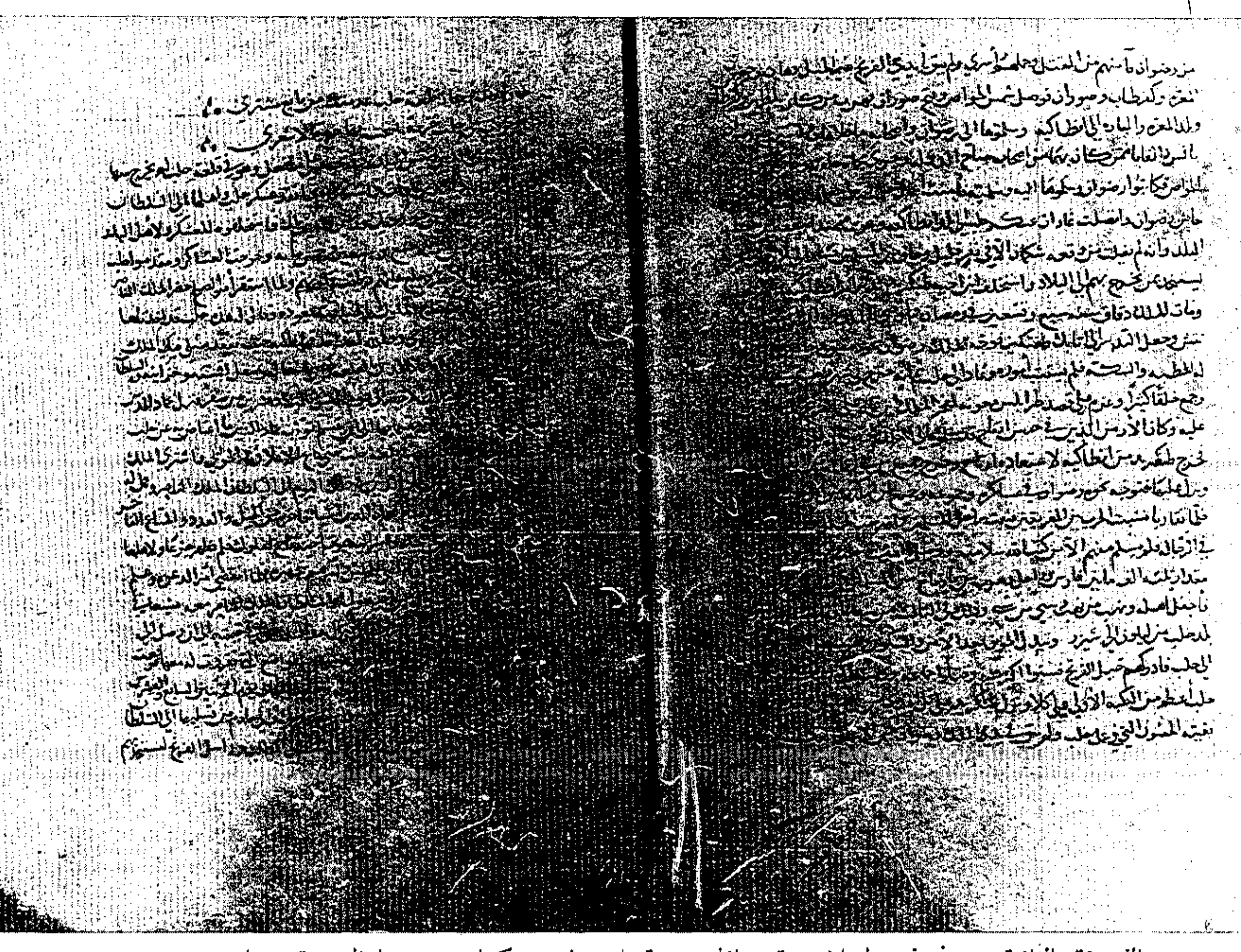
(وفي فهرسي الكتب والأعلام بيان بالمختصر من أسماء الكتب ومؤلفيها)



لوحة رقم ٥

النسخة الثانية — نموذج للورقة الأولى من مخطوطة لننغراد رقم ١٦٠ (انظر مقدمتنا)

لوحة رقم ٦



النسخة الثانية — نموذج لبيان موقع الخرم مقداره خمس كراريس (انظر مقدمتنا — م ١٦)

زُبْدَةُ الحلبِ
مِن

تاريخ حلب

تأليف

المولى الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله

ابن العديم

الجزء الثالث

حوادث السنين

من ٥٦٩ هـ إلى ٦٤١ هـ

القسم الخامس والعشرون

ذكر

حلب في أيام الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود بن زنكي

تدبير حلب - صلاح الدين في الشام - الإسماعيلية - حروب الفرنج - موت الصالح

٥٦٩ هـ - ٥٧٥ هـ



تدبير حلب

الخطبة للصالح

[١٨٥ ظ] ||وقَامَ الملكُ الصَّالحُ بالمُلْكِ بعده[١]. وكانَ عمرُه إحْدى عشرة سنة ، وحلف له الأُمراءُ[٢] بدمشق . وخَطَب له الملك النَّاصرُ صَلاحُ الدّين بمصر ، وأرسل إليه رسولًا يُعزّيه ، ومعه ٥ دنانيرُ مصريةٌ عليها اسمُه ، ويُعلمه أنّه في طَاعتِه ، وأنَّ الخطبةَ أُقيمتْ له بمصر .

وأمّا حلبُ فكان الوالي بقلعتها جمالُ الدّين شاذبخت –الخادم الهنديُّ ، عتيقُ نورِالدِّين– وهُوَ الَّذي بَنَى المدرسة[٣] لأصْحَاب أبي حنيفة بحلب ، وقُبر بها ، فوصله كتابُ الطَّيْر بوفاة نُورِ الدِّين ؛ فأمر في الحال ١٠ بِضَرْب الدَّبادب[٤] ، والكوسات[٥] ، والبُوقات ؛ وأحضَر المُقَدَّمين والأعيانَ بحلبَ ، والفقهاء والأُمراء ، وقال :

---

(١) أي بعد نور الدين الشهيد الذي جاءت سيرته في الجزء الثاني من ابن العديم الذي نشرناه في دمشق سنة ١٩٥٤ (من الصفحة ٢٨٧ – ٣٤١) .

– في الكامل لابن الأثير ١٢٦/٩ : « لما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بالملك بعده » – انظر السلوك للمقريزي ٥٥/١ ، ومفرج الكروب ١/٢ .

(٢) في ابن الأثير : « وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها . »

(٣) جاء ذكر المدرسة الشاذبختية في اعلام النبلاء ٨٤/٢ ، ونقل المؤلف عن الدر المنتخب أن الذي أنشأها هو الأمير جمال الدين شاذبخت الخادم الهندي الأتابكي كان نائباً عن نور الدين محمود بحلب . وذكر أن موضع هذه المدرسة هو في وسط السوق المعروف بسوق الضرب (الزرب) . ووصفها وذكر حجرها .

(٤) في اعلام النبلاء ، عن الزبد والضرب : « بضرب الدبابات » .

(٥) الكوسات : هي صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير – انظر تفصيل ذلك في صبح الأعشى ٩/٤ .

«قَدْ وَصَلَ كِتَابُ الطَّائر ، يُخبر أنَّ مَوْلانا المَلِكَ العَادلَ قد خَتَنَ وَلَدَه ؛ وولَّاه العَهْدَ بعدَه ، ومشى بَيْنَ يَدَيهِ» .

[١٨٦ و] ‖فأظهروا السُّرورَ بذلك ، وحمدوا الله تعالى ، فقال لهم : «تحلفون لولده الملك الصَّالح ، كما أمَرَ المَلِكُ العادل بأنَّ حلب له ، وأنَّ طاعتَكم له وخدمتَكم ، كما كانت لأبيه» . فَحَلَفَ النَّـاسُ على ٥ اختلاف طَبقَاتهم ومَنازلهم ، في ذلك اليوم ، ولم يترك أحـدًا منهم يزولُ من مكانه .

ثم قام إلى مجلس آخر ، ولبسَ ثيابَ الحِداد ، وخرج إليهم وقال : «يحسن الله عزاءكم في المَلِك العادِل ، فانَّ الله قد نقله إلى جنَّات النَّعيم» . وتوجَّه المؤيّدُ بنُ العَميد ، وعثمانُ[1] زردك ، وهمامُ ١٠ الدّين الى حلب[2] ، لاثبات ما في الخزائن بحلب ، وختمها بخاتم المَلِك الصَّالح .

في الجزيرة والموصل

وكان وزير الملك العادل نور الدّين : موفَّق الدّين خالد بن محمد بن نصر بن القيسراني[3] ، رسولًا عنه بمصر . فاتَّفق رأيُ الجماعة على أن ولُّوا وزارةَ المَلك الصَّالح : ١٥ شهابَ الدّين أبا صالح عبد الرَّحيم بن أبي طالب ابن العجمي ، وكان عدلًا على خزائن نور الدّين .

وكان شمسُ الدّين عليّ ، ابنُ داية نور الدّين ، أخو مجد الدّين لأمّه ، من أكبر الأمراء النّورية ، وأمرُ حلب راجعٌ إليه وإلى إخوته

(١) في اعلام النبلاء ، عن الزبد والضرب ٨٤/٢ : «عثمان بن زردك» .
(٢) يزيد إعلام النبلاء ، في التحديد فينقل عن الزبـد والضرب قوله : «في الرابع والعشرين من شوّال لاثبات ما في خزائن حلب» .
(٣) القيسراني نسبة إلى قيسارية بليدة على ساحل البحر بالشام – انظر اللباب ١٦/٣ ؛ وفيات الأعيان ٤٨٧/١ .

في أيام نو الدّين . وكان بحلب عند موت نور الدّين ، وسابق الدّين عثمان وبدر الدّين حسن[١] أخواه ؛ فتولّى شمس الدّين عليّ تدبيرَ حلب ، وصعد إلى القلعة ، وحَصل بها مع شاذبخت ، والأمير بدر الدين حسن متولي الشِّحنكية[٢] بالمدينة .

٥ وكان نورُ الدّين[٣] قد سَيّر إلى الموصل وغيرها من البلاد يَستدعي العساكر ، بحجة الغَزاة ؛ ومقصودُه ‖ الطُّلوع إلى مصر ، فسار سيفُ الدّين [١٨٦ ظ] غازي[٤] بعسكر الموصل ، وعلى مقدّمته سعد الدّين كمشتكين الخادم ، وكان قد جعله نورُ الدّين واليًا من قِبَله[٥] بالموصل . فلما كانوا ببعض الطريق ، وصلتهم الأخبار بموت نور الدّين هرب[٦] سعد الدين كمشتكين ١٠ إلى حلب جَريدة .

وأمّا سيفُ الدّين فإنّه أخذ بلاد الجزيرة جميعها ، سوى قلعــة

(١) في الروضتين ص ٢٣٣ : « وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النوري وكان شمس الدين عليّ أخو مجد الدين بن الداية إليه أمور الجيش والديوان ، والى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية ».

(٢) الشّحنة : (بالكسر) في البلد ما فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان . وهو في بعض النصوص يعني الحـــاكم المكلف بشرطة المدينة ، وهو يقرب في بعض الأحيان من معنى صاحب الشرطة ، وجمعها شَحَن وشَحَاني ، والشحنكية تأتي في مرتبة الشحنة تقريباً — انظر تفصيل ذلك في تكملة المعاجم لدوزي ٧٣٣/١ .

(٣) في ابن الأثير ١٢٧/٩ تفصيل هذا بعضه : « كان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل الى البلاد الشرقية الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعي العساكر منها لحجة الغزاة ، والمراد غيرها » .

(٤) هو سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل .

(٥) في ابن الأثير ١٢٧/٩ : « كان قد جعله نور الدين بقلعـــة الموصل مع سيف الدين » — وباقي النص عندنا في ابن العديم يشبه نصّ ابن الأثير حرفياً .

(٦) في ابن الأثير ، بالصفحة المذكورة : « فأما سعد الدين فانه كان في المقدمة فهرب جريدة » — وفي الأصل : « هرب سعد الدين » ولعل صحيحها باضافة الفاء على الفعل : « فهرب » — انظر مفرج الكروب ٥/٢ .

جعبر[١] ؛ فأرسل شمسَ الدّين عليّ بن الدَّاية يطلب الملك الصالح إلى حلب ، ليمنع سيف الدّين ابنَ عمه من البلاد الجزرية . فلم يمكنه الأمراء الّذين معه بدمشق من الانتقال إلى حلب[٢] خوفاً أن يغلبهم عليه شمسُ الدّين عليّ .

٥ وكان شمسُ الدّين محمّد بن عبد الملك بن المقدّم قد صار متولِّيَ تدبيره بدمشق ، وكمال الدين بن الشهرزوري وجماعة من الأمرآء معه . وكان قد أشار كمال الدين على الامراء بمشاورة الملك النّاصر فيما يفعلونه ، لئلا يجعل ذلك حجَّة عليهم ، فخافوا منه ولم يفعلوا[٣] .

خروج الفرنج

وخرج الفرنج ، وحصروا قلعة بانياس[٤] فراسلهم ابن المقدم ، وبذل لهم مالاً ، وخوَّفهم[٥] بالاستنجاد بصلاح الدّين ١٠ وسيف الدّين ، فعادوا . وبلغ ذلك كلُّه الملكَ النّاصرَ صلاحَ الدّين ؛

(١) قلعة جعبر : على الفرات بين بالس والرقة ، قرب صفين – وعلقنا تفصيل أمرها في الجزء الثاني السابق ، بحاشية الصفحة ١٠٠ – انظر معجم البلدان لياقوت ٨٤/٢ – وفي ابن الأثير بالصفحة المذكورة : « وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من برك وغيره » .

(٢) انظر تفصيل الخبر في ابن الأثير بالصفحة المذكورة .

(٣) فصّل ابن واصل في مفرج الكروب هذا الخبر عن صلاح الدين فجاء في ٣/٢ : « والمصلحة أن يشاور في الذي نفعله ، ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا ، ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر ، فلم يوافق هذا القول أغراضهم ، وخافوا أن صلاح الدين يدخل البلاد ويخرجهم » .

(٤) بانياس : من أعمال دمشق – وقد مرّ بنا شرح موقعها .

(٥) في ابن الأثير بالصفحة المذكورة : « لما مات نور الدين محمود صاحب الشام اجتمعت الفرنج وساروا الى قلعة بانياس من أعمال دمشق ، فحصروها ، فجمع شمس الدين بن عبد الملك بن المقدم العسكر عنده بدمشق ، فخرج عنها فراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ في القول وقال لهم : ان انتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه ، والاّ فنرسل إلى سيف الدين صاحب الموصل ، ونعلمه ونصالحه ونستنجده ونرسل إلى صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها .... » – انظر كذلك مفرج الكروب ٧/٢ .

فأرسل صلاحُ الدّين إلى الملك الصَّالح ، وعتب عليه حيث لم يعلمه بما تجدَّد من سيف الدّين في أخذ الجزيرة ليحضر ويكفّه . وأنكر صلحَ الفرنج[1] ، وبذل المال لهم ، وبذلَ من نفسه قصدَ الفرنج ، وكفَّهم عن التَّطاول إلى شيء من بلاد المِلك الصالح .

٥ وكتب إلى كمال ‖ الدّين[2] وابن المقدّم ، والأمراء ، وقال : « لو أنَّ نورَ الدّين يعلم أنَّ فيكم من يقوم مقامي ، أو يثق به مثلي لسلَّم إليه مصر[3] ، ولو لم يعجّل عليه الموت لعهد اليَّ بتربية ولده[4] . وأراكم قد تفرَّدتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصلُ إلى خدمته ، وأكافي[5] إنعام أبيه ، وأجازي كلَّا منكم على فعله[6] . » [١٨٧ و]

١٠ وكثر خوفُ شمسُ الدّين عليّ بن الدّاية من سيف الدّين غازي ، وأن يعبرَ الفراتَ إلى حلب فيملكها ، فأرسل سعدَ الدّين كُمُشْتَكين إلى دمشق ، ليحضر الملك الصَّالح ، فلما قارب دمشقَ سيَّر إليه

(١) في مفرج الكروب ٨/٢ : « ولما سمع صلاح الدين أمر الهدنة أنكرها واستعظمها ، فكتب الى الأمراء بدمشق يقبّح عليهم ما فعلوه ، ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح » – ويضيف ابن واصل : « وكان مراده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام ، ليتملك البلاد . والأمراء الشاميّون انما صالحوا الفرنج خوفاً منه ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل » – مثل هذا النص ، جاء في ابن الأثير ١٢٨/٩ وأضاف يعلّق قائلاً : « فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم » .

(٢) في مفرج الكروب ٧/٢ : « ولما بلغ الملك الناصر صلاح الدين ما فعل سيف الدين كتب إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري والأمراء يقول : لو أن نور الدين ... »

(٣) يضيف مفرج الكروب ٧/٢ : « التي هي أعظم ممالكه وولاياته » .

(٤) في مفرج الكروب : « لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري » – فالنصان متشابهان تماماً مع اختلاف قليل في بعض الكلمات .

(٥) في مفرج الكروب : « وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها »

(٦) في مفرج الكروب : « على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده » .

شمسُ الدين بن المقدّم عسكرًا ، فنهبوه[١] ؛ وعاد منهزمًا إلى حلب ، فأخلف عليه شمسُ الدين عليّ بن الدّاية ، عوضًا عما أُخذ منه .

ثم إنَّ الأمراء بدمشق ، اتفقوا على إرسال الملك الصّالح إلى ابن الدّاية بحلب ، لأنّها أمُّ البلاد ، فأنفذوا إليه يطلبون إرسال سعد الدّين ليأخذ الملك الصالح ، فوصل إليهم سعدُ الدّين كُمُشْتكين ، واتفقوا على أن يكون شمس الدّين عـليّ أتابكًا للملك الصالح . وحلف شمسُ الدّين وجمال الدِّين شاذبخت للأمراء على أقطاعهم ، ونفذت النسخة مع سابق الدّين عثمان إلى دمشق .

مسير الصالح الى حلب

وسار الملكُ الصّالح وأُمُّه مع سَعد الدّين كمشتكين[٢] والأمراء الّذين أقطاعهم بحلب ، ولما وصلوا ما بين حماة وحلب وَصَل مِنْ جمال الدّين شاذبخت مَنْ خَوَّف الأمرآء مِن بني الدّاية ، فقبضوا «سابقَ الدين عثمان» ، بقنَّسرين ؛ وكتموا الحال ؛ ووصلوا إلى باب حلب ، فخرج بدرُ الدّين حسن ، فقبضوه ، ودخلوا [١٨٧ ظ] ‖ من «باب الميدان» وقد عمل به الخوان ، فلم يلتفتوا اليه ؛ وبادروا بالملك الصّالح ، وصعدوا به إلى القلعة .

وكان «بشمس الدّين عليّ» نقرس ، فحُمِل في محفّة ، وحضر بين يَديْ المَلِك الصّالح ، فزندوا ، يديه ، وقيّدوا أَخَوَيْه ، وجعلوا الجميع في المطمورة[٣] ، بالمركز .

وكان شاذبخت قد احتاط ، واستخدمَ جماعةً من الأجناد ، فصار

(١) مثل هذا النص جاء في مفرج الكروب ٨/٢ ، وكذلك في ابن الأثير ١٣٠/٩ .
(٢) في مفرج الكروب ١٠/٢ : «وكان مسير الملك الصالح من دمشق الى حلب لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة ــ اعني سنة تسع وستين وخمسمائة» .
(٣) المطمورة : مغارة يحبس فيها السجناء ، وكانت في القديم معروفة لذلك ــ انظر تكملة معاجم العرب ٦٠/٢ ــ والمركز : موضع الحراسة التي يقوم عليها الجنود .

في مقدار خمسمائة راجل ، و«شمس الدّين» في مقدار مائة ، وأمر اسباسلار[1] باب القلعة أبا بكر بن مقبل : أن يمنع مَنْ يصعدُ إلى القلعة مِنْ أصحابه وأصحاب إخوته ، ما خلا سابق الدّين وبدرالدّين. فكانا يصعدان ، ومع كلّ واحد منهما غلام واحد ؛ ووكّلَ بباب شمس الدّين ثلاثين رجلًا كلّ ليلة ، فعتب على شاذبخت فقال له : «أنا أبعثُ الرجالَ إليك ، ليقوموا في الخدمة». وكان يوكّل بالأجناد الّذين خالفوه حَفَظة يمنعون مَنْ يدخل منهم أو يخرج ، وكان هذا حال القلعة ، في غيبة الملك الصَّالح .

القبض على بني الداية

وأما حالُ المدينة فانَّ السُّنَّةَ من أهل البلد مالوا إلى «المجدية» ، لتعصّبهم للسُّنَّة على الشِّيعة ، وجمعهم بدرالدّين حسن شِحنة حلب ، واستخلصهم في اللّيل. وكان فيهم بنو العجمي ، والشيخ أبو يَعلى ابن أمين الدّولة ، وبنو قاضي بالس – على ما ذكر – وطلب القاضي أبا الفضل بن الخشّاب وبني الطَّرسوسي ، فأبوا أن يحضروا .

وكان أهل حلب من الشِّيعة[2] ، يتوالون أبا الفضل بن الخشّاب ، ويقدّمونه عليهم ، فوافقوه على حفظ البلد للمَلِك الصَّالح ، وعلى مخالفة بني الدَّاية . ‖ فسيَّر بدرَ الدين حسن إلى ابن الخشّاب ، [١٨٨ و] وقال له : «إنَّ جماعة عندي قذفوك ، وتحدّثوا بأنك تطعنُ في الدّولة ، وأنك تريد أن تملك حلب» .

(١) وتكتب أحياناً «أسفهسلار» ، وقد جاء شرحها في صبح الأعشى ٣/٤٨١ : «وصاحبها زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم ، وفي خدمته بخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم» .

(٢) جاء في الروضتين حديث عما وقع في حلب بين السنة والشيعة ، ونقلها الطباخ في اعلام النبلاء ٢/٩٠ : «وتحزّب الناس بحلب : أهل السنة مع بني الداية ، والشيعة مع ابن الخشاب ...»

بين الشيعة والسنة

وكان بدر الدّين وأخواه أرادوا أن تقع الفتنة بحلب بين السّنة والشّيعة ، ليستقيم أمرهم ، فثار الغوغاءُ من الشّيعة ونهبوا دار قطب الدين بن العجمي[1] بالقرب من الزّجاجين ، ودار أبي يعلى بن أمين الدّولة ، بالجرن الأصفر[2] . وكان فيها أموال الأيتام . وانتقل ابنُ العجمي بعد ذلك إلى البلاط ، وابن أمين الدولة إلى تحت القلعة بالقرب من «مسجد السّيدة».

وقُتل في ذلك اليوم في «مدرسة الزجّاجين» الشيخ أبو العباس المغربيّ، وكان مقرئًا محدّثًا .

وثارت الفتنةُ بين الطائفتيْن ؛ وطلبَ الفقرآءُ دورَ الأغنيآء فنُهبتْ دارُ أبي جعفر بن المنذر بالعقبة[3] ، فجمع بدرُ الدين حسن جماعةً من الأجناد ومن أهل البلد السُنَّةَ ومن العسكر ، وألبسهم السلاحَ ، وصعد إلى شاذبخت ، وقال له : «إنَّ أبا الفضل بن الخشّاب يريد أن يملك البلد وقد مال إليه الشيعة وبعضُ السُّنَّة ، فتعينني بنقّابين وزرّاقين حتى أقبضَ عليه ، وأعتقله ، إلى أن يحضر الملكُ الصالحُ» .

فأمر الأجنادَ بلبس السّلاح والخروج معه ، وصار بهم إلى «تلّ فيروز» – وهو موضع سوق الصّاغة الآن[4] – وكان إذ ذاك تلًّا .

(١) في الروضتين كذلك خبر الفتنة قال : «ونهبت الشيعة دار قطب الدين ابن العجمي ودار بهاء الدين ابن أمين الملك» .

(٢) جاء ذكر الجرن الأصفر بمناسبة المسجد الذي وضع فيه بحلب ، قرب الحمام البيلونة – انظر ابن شداد ، قسم حلب ، تحقيق سورديل ٣٥/١ ، وجاء كذلك ذكره في ١٤٨/١ .

(٣) العقبه : حي قديم من أحياء حلب في الغرب منها ، وكان يسمى قديماً عقبة بني المنذر – انظر أول من سكن هذا الحيّ في كتاب نهر الذهب للغزي ٨٧/٢ .

(٤) مرّ ذكر ذلك التلّ في ابن العديم ٩٢/١ على تفصيل أوسع .

وأخذوا الفلاليج والأبواب ، وسدّوا بها الدُّروب ، وزحفوا مـن الطُّرق والأسطحة ، إلى دار ابن الخشّاب . ووقع قتالٌ شديدٌ ، وقُتل ‖ بين الفريقين جماعة كثيرة ، وانتهى إلى الدّار ، فأحرقها ونهبها ، [١٨٨ ظ]
ونهب أدر جماعة من المجاورين له .

٥ وانهزم القاضي أبو الفضل ، واختفى في دار فخرا وابن كياعميد[١] بالقرب من حمّام شراحيل[٢] ، فأقام بها إلى أن وَصَل المِلِك الصَّالحُ في المحرَّم ، من سنة سبعين وخمسمائة ، وصعد إلى القلعة ، وقبض على بني الدَّاية – كما ذكرنا – وصار الأمرُ والتَّدبيرُ إلى سعدِ الدِّين كمشتكين الخادم ، وهو الَّذي بني الخانكاه[٣] المنسوبة إليه بحلب ،
١٠ في جِوَارنا ، وهي كانت دارَ «أبي الطَّيِّب المتنبي»[٤] ، بحلب .

وكان شمسُ الدّين عليّ قد عَزم على أنَّ المَلِك الصَّالح إذا قَدِمَ أخذه بمفرده ، وصعدَ به إلى القلعة . ولا يمكِّن أحدًا من الأمرآء من الصُّعود ، ويطردهم ، ويستقلّ بالأمور .

فسيّر «شاذبخت» من أسرّ ذلك إلى الأمراء الذين كانوا في
١٥ صحبة «المِلِك الصَّالح» ، فاتَّفق رأيُهم في قنَّسرين على قبض أولاد

---

(١) جاءت هذه العبارة غامضة في المخطوطة ، فلم نستطع قراءتها ومعرفة الأعلام المقصودة فيها ، لأنها لم ترد في مصدر آخر ، ولعله فخر الدين أبو الحسن الخشاب ، الأعلاق ١٨/١ .

(٢) جاء في الأعلاق ، لابن شداد ، قسم حلب ١٤٦/١ : «درب شراحيل» فلعلّ الحمّام تقع فيه أو قربه .

(٣) في الأعلاق لابن شداد ، قسم حلب ٩٤/١ : «خانقاه أنشأها سعد الدين كمشتكين الخادم مولى بنت الأتابك عماد الدين قرب دور بني العديم ، وتوفي المذكور سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة مخنوقاً بوتر» – وقد ذكر الغزي أن دور بني العديم تهدمت في حادثة تيمور ، وصارت تلاً – انظر نهر الذهب ١٩٣/٢ .

(٤) من العجيب أن يورد ابن العديم هذه التفصيلات الدقيقة في كتابه الموجز ، فيدلّ على دار الشاعر الكبير المتنبي .

الدّاية ، وتحالفوا على أن قدّموا كمشتكين ، فلمّا رحلوا من قنّسرين ، بدأوا بسابق الدّين ، وكان قد وجّه إلى دمشق في تقرير الأمور ، فقبضوه ، وحفظوا الطُّرق لئلّا يصل إلى حلب مَنْ يُخبر أخويْه ، إلى أن صعدوا إلى القلعة – كما ذكرنا – .

وأما أبو الفضل بن الخشّاب ، فانَّ «الملك الصالح» أمَّنه ، وسيَّر له خاتمًا[1] ، وركب إلى القلعة ، ومعه خلق كثير من أهل حلب ، وعوامّها ، يمشون في خدمته ، وأكّد أمرَه ، وقُرّر على أن يُقتل . فلما دخلَ إلى القلعة ، ووصل قدّام الفرن بالقلعة ، ضربه عليٌّ أخو عز الدين ‖ جورديك[2] فرماه . وجاء بعضُ أجناد القلعة فاحتزَّ رأسه ، وجعلوه على باب القلعة[3] . ثم رُفع على رمح إلى برجٍ بالقلعة ، يقال له «برج الزيت» ؛ وتفرّق أصحابُه من تحت القلعة ، عند ذلك .

[١٨٩ و]

لالا ياقوت

واستولى على دولة «الملِك الصالح» أمير لالا المجاهدُ ياقوت ، وهو الحاكم عليه ، وهو الّذي ربّاه ، وجمال الدين شاذبخت الهندي وهو والي القلعة والحاكم بها ، وسعد الدين كمشتكين مقدّم العساكر ومتولّي إقطاعهم ، وشهاب الدين أبو صالح بن العجمي ، وزير الملك الصالح ؛ فخاف . وولّوا رئاسة حلب الريّس صفيّ الدين طارق ابن الطريرة[4] ، وعزلوا أبا محمد الحكم ، وكان يتولّى الرئاسة في أيام نور الدّين .

(١) جاء تفصيل الأمر في الروضتين ص ٢٣٤ بحوادث سنة ٥٧٠ ﻫ نقلاً عن ابن أبي طيّ .

(٢) في أكثر المصادر العربية يرسم هكذا : «جرديك» بغير واو بعد الجيم .

(٣) في الروضتين ٢٣٤ : «وركب الى القلعة في جمع عظيم ، فصعد اليها ، والشيعة تحت القلعة وقوف ، فقتل وعلّق رأسه على أحد أبراج القلعة ثم رمي برأسه إلى البلد ، وسكنت الفتنة» .

(٤) في الأعلاق ، لابن شداد ، قسم حلب ٤٩/١ : «الرئيس صفي الدين طارق ابن عليّ بن محمد البالسي رئيس حلب المعروف بابن الطريرة» .

فخاف ابن المقدّم والأمراء ، الذين[1] بدمشق ، أن يستقرَّ أمرُ كمشتكين بحلب ، فيأخذ الملك الصالح ، ويسير إلى دمشق ، ويفعل كما فعل بأولاد الدّاية . فكاتبوا سيفَ الدّين غازي صاحب الموصل ، ليصل إليهم ، ويسلّموا إليه دمشق[2] ، فخاف أن تكون مكيدة منهم ، فامتنع من ذلك . وراسل سعدَ الدّين كمشتكين والملك الصالح ، وصالحهما على الجزيرة ، وابقائها في يده .

صلاح الدّين في الشّام

فخاف الأمرآء ، بدمشق من اتفـاق «سيف الدين» و «الملك الصّالح» عليهم ، فكاتبوا «الملكَ الناصرَ صلاحَ الدّين يوسفَ بنَ أيوب» ، واستدعَوه من مصر ليملكوه عليهم[3] ، فسار من مصر[4] في سبعمائة فارس ، والفرنج في طريقه ، فلم يبال بهم . فخرج[5] إليه صاحب بُصرى –وكان ممّن كاتبه– .

[١٨٩ ظ] ‖ ولما وصل إلى دمشق خرج كلّ من كان بهـا من العسكر ، والتقوه . ودخل البلد ، ونزل في دار أبيه المعروفة بدار

(١) جاء في ابن الأثير ، العبارات نفسها أو ما يقرب منها انظر ١٣١/٩ .

(٢) جاء مثل هذه العبارة في معناها وتركيبها في ابن الأثير : «وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحها على ما أخذه من البلاد» .

(٣) يضيف ابن الأثير : «وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم» .

(٤) في ابن الأثير ١٣١/٩ : «فلما وصلت الرسل الى صلاح الدين بذلك ، لم يلبث وسار جريدة في سبعمائة فارس» – انظر مفرج الكروب ١١/٢ .

(٥) في ابن الأثير : «فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه» .

«العقيقي»[١] ، وعصى عليه في القلعة خادم اسمه «ريحان» ، فأعلمه أنه إنما جآء في خدمة «الملك الصالح[٢]» ، فسلَّم إليه القلعة ، وصعد «الملك الناصر» إليها ، وأخذ ما فيها من الأموال ، فاستعان به ، وتزوَّج «خاتون بنت معين الدّين» ، وكانت زوجة «نور الدّين» ، واستخلف أخاه طغتكين[٣] سيف الاسلام . ٥

ملك حمص

وسار إلى حمص[٤] وحماة ، وهما في اقطاع «فخر الدّين مسعود بن الزعفراني» . وكان ظالمًا ، فسار منها بعد موت «نور الدّين» ، فملك «الملك الناصر» في حادي عشر جمادى الأولى ، من سنة سبعين ، مدينة حمص . وبقيت القلعة ، وكان الولاة في القلاع من جهة نور الدّين ، فترك في البلد مَنْ يحفظه ، ويمنع ١٠ مَنْ في القلعة من النّزول[٥] .

وسار إلى حماة ، فَمَلَكَ مدينتَها مستهلّ جُمادى الآخرة ، وكان بالقلعة عزّ الدّين جورديك ، فأرسل إليه ، وقال له : «إنّي في طاعة المِلِك الصّالح ، والخطبة له في البلاد التي في يدي على حالها ،

(١) هذا النص نفسه في ابن الأثير ١٣١/٩ – وعن أحمد العقيقي ممدوح الشاعر أبي الفرج الوأواء ، كتبنا بالتفصيل في «مقدمة» تحقيقنا للوأواء الدمشقي ، طبعة دمشق ١٩٥٠ بالمجمع العلمي العربي . ودار العقيقي هي القسم الكبير من الظاهرية اليوم .

(٢) في ابن الأثير : «وقال أنا مملوك الملك الصّالح وما جئت إلاّ لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه» – وذكر أنه أرسل اليه القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ليقنعه ففعل وقبل ريحان وسلّم القلعة .

(٣) في ابن الأثير ١٣١/٩ : «لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق ، وقرر أمرها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب» .

(٤) في ابن الأثير : «وسار إلى مدينة حمص مستهل جمادى الأولى وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في اقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني» .

(٥) تفصيل الأمر في ابن الأثير ١٣٢/٩ .

والمقصود اتِّفاق الكلمة على طاعة المَلِك الصَّالح ، وأن تسعد البلاد الجزرية وتحفظ بلاده » . فاستحلفه جورديك[١] على ذلك ، وسيّره إلى حلب في اجتماع الكلمة[٢] ، وفي اطلاق شمس الدّين عليّ وأخويه[٣] من السّجن ، وكان إقطاعهم قد قبض من نوّابهم ، ولم يبق في أيديهم غير شيزر[٤] «وقلعة جعبر » .

٥

واستخلفَ جورديك بقلعة «حماة» أخاه ليحفظها ، فلمَّا وصل ‖ جورديك[٥] قَبضَ عليه كمشتكين ، وسَجَنه ، فعلمَ أخوه بذلك ، فسلَّم قلعةَ حماة إلى الملك النَّاصر . [١٩٠ و]

حصار حلب

وسار الملكُ النّاصر إلى حلب ، فوصلها في ثالث جُمادى الآخرة من سنة سبعين ، وحصرها[٦] . فركب الملك الصَّالحُ ، وهو صبيٌّ عمره اثنتا عشرة سنة ، وجمع أهلَ حلب ، وقال لهم : « أنا يتيمكم ، وقد عرفتم إحسانَ أبي إليكم ، وقد جاء هذا الظَّالمُ ينتزع ملكي » . وقال أقوالًا كثيرة . وبكى فأبكى الناسَ ، وبذلوا أنفسهم وأموالَهم له ، واتَّفقوا على القتال دونه ، والذبّ عنه[٧] .

١٠

فجعل الحلبيّون يخرجون ، ويقاتلون الملك النَّاصر عند «جبل جوشن»[٨] ، فلا يقدر أن يتقرّب إلى البلد ؛ وأرسل سعد الدّين

١٥

(١) وهو من المماليك النورية .
(٢) في ابن الأثير ١٣٢/٩ : « اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح » .
(٣) في ابن الأثير : « وفي اطلاق شمس الدين عليّ وحسن وعثمان أولاد الداية » .
(٤) شيزر : شرحنا موقعها في زبدة الحلب ، تحقيقنا .
(٥) في ابن الأثير ١٣٢/٩ : « فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشتكين » .
(٦) في ابن الأثير : « فقاتله أهلها وركب الملك الصالح » .
(٧) تفصيل الخبر في ابن الأثير ١٣٢/٩ .
(٨) جبل جوشن : علقنا على موقعه من مدينة حلب ، عند مدخلها للقادم من دمشق – انظر الزبدة لابن العديم ٢٢٩/٢ بالحاشية .

كمشتكين إلى «سِنَان» مقدّم الاسماعيليّة، وبذل له أموالًا كثيرة ليقتل الملك الناصر، فقفزوا عليـه، فحماه الله منهم، وقتلوا [1].

وبقي محاصرًا حلب إلى سلخ جمادى الآخرة، وكان كمشتكين قد أرسل إلى سيف الدّين غـازي يستنجده، وكان «ريمند»[2] ٥
– صاحب طرابلس الَّذي أسره نُورُ الدّين – قد أطلقه كمشتكين بمائة ألف وخمسين ألفًا صوريّة، في هذه السَّنة. وصار موضع «مري» ملكَ الفرنج، فأرسلَ مَنْ بحلب إليه يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد الَّتي بيد الملك النَّاصر، ليرحل عنهم[3]، فسار إلى حمصَ ونازلها، فرحلَ الملكُ النَّاصرُ عن حلب، مستهلّ شهر رجب. ١٠
فلما نَزَلَ «الرَّستن». رحلَ الفرنجُ عن حمص، ووصل الملكُ النَّاصر إليها، وحصرَ قلعتَهَا إلى أن تسلَّمها[4].

اخذ بعلبك

وسار إلى بعلبك[5]، فتسلَّمها وقلعتها، في رابع[6] شهر رمضان، من سنة سبعين ‖ وخمسمائة. [١٩٠ ظ]

وأما سيفُ الدّين غازي فإنّه جمعَ عساكرَه، وكاتب أخـاه ١٥

---

(١) تفصيل المؤامرة لقتل صلاح الدين في ابن الأثير ٩/١٣٢.

(٢) في ابن الأثير: «وتولى القمص ريمند تدبير الملك الحل والعقد، عن أمره يصدرون .... فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب» – والقومص هنا هو الكونت ريمون الثالث صاحب امارة طرابلس الصليبية ويلقب أحياناً بالصنجيلي.

(٣) في ابن الأثير تفصيل الخبر ٩/١٣٢.

(٤) في ابن الأثير أنه ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة، «فصار أكثر الشام بيده».

(٥) في ابن الأثير: «سار منها إلى بعلبك وبها خادم اسمـه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين فحصرها صلاح الدين ...»

(٦) في ابن الأثير: «وتسلم القلعة رابع عشر رمضان من السنة المذكورة».

عمادَ الدّين زنكي صاحب سنجار ، لينزل إليه بعساكره[1] ليجتمعا على نُصرة المِلِك الصَّالح ، فامتنع . وكان الملكُ الناصرُ قد كاتبه ، وأطمعه في مُلْكِ المَوصل ، لأنَّه الكبير من أولاد أبيه ، فمضى سيفُ الدّين إلى «سنجار» محاصرًا لها ، وسيّر عسكرًا كثيرًا[2] إلى حلب مع أخيه عزّ الدّين مسعود ، مع أكبر أمرائه «زلفندار[3]» ، فوصل عزّ الدين إلى حلب ، واجتمعت عساكر حلب معه ، وساروا إلى حماة ، فقاتلوها .

فأرسل[4] المَلِكُ النَّاصرُ ، وبذل لهم تسليمَ حمص وحماة ، وأن يقرّ بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائبًا عن المَلِك الصَّالح ، فلم يجيبوه إلى ذلك . وقالوا : «لا بدَّ من تسليم جميع ما أخذه من الشَّام ، وعوده إلى مصر .»

الناصر في حلب

فسار الملكُ النَّاصرُ إلى عزّ الدّين[5] وزلفندار ، فالتقوا في تاسع عشر شهر رمضان ، على قرون[6] حماة . فانهزم عسكرُ الموصل ، وثَبَتَ عزُّ الدِّين بعدَ الهزيمة ، فقال الملكُ الناصرُ : «إما أن يكون هذا أشجعَ النَّاس ، أو أنه لا يعرفُ الحربَ» . وأمر أصحابه فحملوا عليه حتى أزالواه عن موقفه[7] ، وتمَّت الهزيمة ، وتبعهم المَلِكُ النَّاصرُ ، وغنموا غنائم كثيرة ، وأسر جماعة كثيرة ، فأطلقهم .

(١) في ابن الأثير ١٣٣/٩ : «ويأمره أن ينزل اليه بعساكره ، ليجتمعوا على المسير الى الشام فامتنع من ذلك» .

(٢) في ابن الأثير : «في عسكر كثير هو معظم عسكره» .

(٣) في ابن الأثير : «أكبر أمير معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضاً زلفندار» .

(٤) النصّ نفسه في ابن الأثير ١٣٣/٩ .

(٥) في ابن الأثير ١٣٣/٩ : «سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار» .

(٦) في ابن الأثير : «بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة» .

(٧) النصّ نفسه أو قريب منه في ابن الأثير ١٣٣/٩ .

حصار حلب

ونزل الملكُ النَّاصرُ على حلب ، محاصرًا لها ، وقطعَ حينئذٍ خطبةَ الملكِ الصَّالح ، وأزال اسمَه عن السِّكَّة في بلاده[1] ، فلما طالَ الأمرُ عليهم راسلوه في الصُّلح ، على أن يكون له ما بيده من بلاد الشَّام ، ولهم ما بأيديهم[2] ، وأخذ المعرَّة ، وكفرطاب ؛ وانتظم الحال بينهم ‖ على ذلك . [١٩١ و] ٥

ورحل عن حلب ، في العشر الأول من شوَّال ، إلى حماة ، فوصلتْه خلعُ الخليفة بها مع رسوله . ووصل خبرُ الكَسْرة إلى سيفِ الدّين ، وهو محاصر سنجار ، فصالحَ « عماد الدّين » على ما بيده ، ورحل إلى الموصل ، وشرع في جمع العساكر .

وسار الملكُ النَّاصرُ من حماة إلى « بارين » ، وفيهـا نائبُ عزِّ الدين ابن الزّعفراني ، ولم يبق بيده غيرها ، فحصرها إلى أن سلَّمها وَاليها إليه بالأمان ، فعاد إلى حماة ، وأقطعها خاله شهاب الدّين محمود بن تكش الحارميّ ، وأقطع حمصَ ناصرَ الدِّين محمد ابنَ عمه أسد الدّين ، وعاد إلى دمشق . ١٠

وخرج سيفُ الدّين غازي صاحب الموصل ، في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة . وسار إلى « نصيبين » ، واستنجدَ صاحبَ « حصن كيفا[3] » وصاحب « ماردين » ، فاجتمع معه عسكرٌ كثيرٌ بلغت عُدَّتُهم ستة آلاف فارس[4] . وأقام بنصيبين حتى خرجَ الشِّتاءُ ، فضجرتِ العَساكرُ وفنيت[5] نفقاتُهم . ١٥

(١) يضيف ابن الأثير : « ودام محاصرًا لهم » .
(٢) في ابن الأثير : « ما بأيديهم منها » .
(٣) حصن كيفا : مدينة من ديار بكر وقيل إنها على الفرات بين جزيرة ابن عمر وميافارقين . انظر تقويم البلدان وزبدة الحلب ٢/٢٢٠ .
(٤) النصّ نفسه جاء في ابن الأثير ١٣٦/٩ .
(٥) في ابن الأثير : « ونفدت نفقاتهم وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة » .

ثم سار إلى حلب ، فعبر بـ « البيرة » وخيّم على جانب الفرات الشامي[١] ، وراسل كمشتكين والملكَ الصالحَ ، لتستقرّ قاعدة يصل عليها إليهم . ووصل كمشتكين إليه ، وجرت مراجعاتٌ كثيرة ، عَزَم فيها على العَود مرارًا ، حتى استقرَّ اجتماعه بالملك الصالح ، وسمحوا ٥ به ، فسار ووصل إلى حلب .

وخرج الملكُ الصَّالح للقائه بنفسه ، فالتقاه قريبَ « القلعة » ، واعتنقَه ، وضمَّه إليه ، وبكى ، ثم أمَرَه بالعود إلى القلعة فعاد ، وسار هو ، فنزل « بعين المباركة »[٢] ، وأقام بها ‖ مدّة ، وعسكرُ حلب [١٩١ ظ] تخرجُ إلى خدمته في كلّ يوم ، وصعد إلى قلعة حلب جريدة ، ١٠ وأكل فيها شيئًا ، ونزل ، وسار منها إلى « تلّ السُّلطان » ، ومعه عسكر حلب ، مضافًا إلى العساكر الواصلة معه .

وخرج رجلٌ ادَّعى أنَّه المنتظر ، وادَّعى النبوَّة « بجبل لَيْلون »[٣] ، واستغوى أهلَ تلك النَّاحية ، وأظهر لهم زخارفَ ، ومُحالًا ، وقال لهم : « إذا جاء العسكرُ إليكم ، فسوف أرميهم بكفّ من تُراب فأهلكهم » . ١٥ وأغاروا على « تركمان » « بجبل سَمْعان » وكان مُقيمًا بأتباعه « بكفرند »[٤] ، فخرج « طُمان » من العسكر ، وسعدُ الدّين كمشتكين بجماعةٍ من العسكر ، ووصلوا إليهم ، فجعلَ أتباعُه يَصيحُون :

(١) في مفرج الكروب ٣٧/٢ : « وخيّم على الجانب الغربي وراسل الحلبيين واستقرت القاعدة أنه يصل اليهم » – وبقية النصّ في ابن العديم مثل الذي جاء في مفرج الكروب .

(٢) عين المباركة : ذكرها ابن الشحنة في الدر المنتخب ٢٥٥ ، وقال إنها في جملة متنزهات حلب .

(٣) انظر ياقوت في معجم البلدان ٧٧٩/١ : « بيت لاها حصن عال بين أنطاكية وحلب على جبل ليلون » .

(٤) في الأصل : « كفرند » – ولقد وقعنا في مراصد الاطلاع ١١٧٢/٣ : « كفرنَفد » وهي من قرى حمص فلعلها هي المقصودة .

«وعدك يا مولانا» ! والسَّيْفُ يعملُ فيهم ، فألقى الترابَ ، فزحف إليه العسكرُ ، وقتلَ الرجالَ وسبَى النسآء ، والتجأ جماعةٌ إلى المغاير ، فاستخرجوهم ولم يُبقوا إلّا على من أسلمَ منهم ، ودخّنوا على جماعة في المغاير ، فماتوا ، ثم عاد العسكرُ إلى «تلّ السّلطان» ، بعد أن قَتَلَ وصَلَب .

٥

الناصر في دمشق

وكان الملكُ النّاصرُ بدمشق في قلّ من العسكر ، لأنّه كان قد سيّرها إلى مصر ، وأنفذ إليها يستدعيها ، فلو عاجله[1] سيفُ الدّين لبلغ منه غرضًا ؛ لكنّه تأخّر ، فوصل عسكرُ مصر إلى الملك النّاصر .

فسار من دمشق إلى ناحية حلب ، ليلقى سيفَ الدِّين ، فالتقاه «بتلّ السّلطان» ، وكان «سيفُ الدّين» قد سبقه إلى تلّ السُلطان ، فوصل الملكُ النّاصر العصرَ ، وقد تعب هوَ وأصحابه[2] وعطشوا ، فألقَوْا نفوسَهم إلى الأرض ليس فيهم حركة .

١٠

[١٩٢ و] فأُشير على سيف الدّين || بلقائهم في تلك الحالة ، فقال زلفندار : «ما بنا حاجة إلى القتال[3] في هذه السّاعة ، وغدًا بكرة نأخذهم كلّهم» . فترك القتال إلى الغدّ ، فلما أصبحوا[4] اصطفّوا للقتال ،

١٥

(١) في ابن الأثير : «فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه لكنهم تريثوا» .

(٢) في مفرج الكروب ٣٩/٢ : «وقد تعب هو وعسكره وعطشوا، فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس بهم حركة ، فأشار على سيف الدين جماعة من اصحابه بقتالهم على هذا الحال» — انظر ابن الأثير ١٣٦/٩ .

(٣) في مفرج الكروب ٣٩/٢ : «ما بنا حاجة إلى قتال هذا الخارجي هذه الساعة ، غداً بكرة نأخذهم كلهم» .

(٤) في مفرج الكروب : «فلما أصبحوا يوم الخميس اصطفوا للقتال» — في ابن الأثير : «فجعل زلفندار وهو المدبر للعسكر السيفي اعلامهم في وهدة ...»

فجعل «زلفندار» الأعلامَ في وهدة من الأرض ، لا يراها إلّا مَنْ هو قريبٌ منها .

فلمّا التقى الفريقان ، ظَنَّ أكثرُ النّاس أنَّ سيفَ الدّين قد انهزم ، لأنّهم لم يروا الأعلامَ ، فانهزموا بعد أن كان مظفَّرُ الدّين بن زين[1] الدين – وهو في الميمنة – قد كسر ميسرةَ الملك النّاصر . وولّوا الأدبار ، وأسر منهم جماعةً فأطلقهم الملكُ النّاصر ، منهم : فخر الدين عبد المسيح ، وأمسك عن تتبّع العسكر ، فلم يقتل غير رجل واحد ، وذلك في يوم الخميس العاشر من شوّال ، سنة إحدى وسبعين وخمسمائة .

هرب الناصر

٥

ونزلَ الملكُ النّاصرُ وعسكرُه ، في بقيّة ذلك اليوم في خيَم القوم ، واستولوا على جميع ما فيها ، وفرّق الاصطبلات والخزائن ، ووَهَبَ خيمةَ سيف الدّين عزّ الدّين فرّوخشاه . ووصل سيفُ الدّين إلى حلب ، وتركَ أخاه عزّ الدّين في جماعة من العسكر ، وعَبَر الفراتَ ، وسار إلى الموصل .

١٠

ووصلَ الملكُ النّاصرُ إلى حلب ، يوم الأحد ثالث عشر شوّال ، فأقام عليها أربعةَ أيام ، ورحل عنها ، يوم الجمعة ثامن عشر شوّال ، فنزل بُزاعَا[2] فحصرها ، وتسلّمها يوم الاثنين العشرين من شوّال .

١٥

(١) في مفرج الكروب ٣٩/٢ : «وكان في ميمنة سيف الدين مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك – صاحب اربل – فكسر ميسرة السلطان . ثم حمل السلطان بنفسه فانكسروا بين يديه ، فلم يقف منهم أحد على أحد ، فأسر جماعة من أمرائهم الأكابر ، منهم فخر الدين عبد المسيح» .

(٢) في أكثر المصادر العربية : «بزاعة» بالتاء – وفي مراصد الاطلاع ١٩٢/١ : «بزُاعة : قال سمعت من أهل حلب من يقول بالضم والكسر ، وهي بلدة من أعمال حلب ، في وادي بُطنان ، بين منبج وحلب ، بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة ، وفيها عيون جارية وأسواق حسنة» – انظر زبدة الحلب ٦٢/٢ حيث شرحنا موقعها .

الناصر في منبج

ورحلَ فنزلَ منبج ، فحصرها ، في التّاسع والعشرين من شوّال ، وبها قطبُ الدّين ينال بنُ حسّان[1] ، وكان شديدَ العَداوة للملك النّاصر ، وكان قد حَنَق عليه لذلك ، فملكَ المدينةَ ، ونقبت القلعة ، فحصره بها ، [١٩٢ ظ] ‖ ونقبها النقّابون[2] ، وملكها عنوةً ، وأخذ كلَّ ما كان فيها ، وأخذ صاحبها أسيرًا[3] ، ثم أطلقه ، فسار إلى الموصل ، فأقطعه سيفُ الدّين «الرّقّة» .

ورحلَ الملكُ النّاصرُ إلى «عَزاز» فنازلها ثالث ذي القعدة[4] ، وحصَرها ونصبَ عليها المنجنيقات .

الوثوب على الناصر

وجلس يومًا في خيمة بعض أمرائه ، ويقال له «جاولي» مقدّم[5] الأسديّة ، فوثبَ عليه باطنيّ ، فجرحه بسكّين في رأسه ، فردَّ المِغفَرُ عنه[6] ، وأمسكَ الملكُ النّاصرُ يَدَيْ الباطني بيديه ، إلّا أنه لا يقدر على منعه من الضَّرب بالكليّة ، بل يضربُ ضربًا ضعيفًا ، فبقيَ الباطنيُّ يضربه بالسكّين في رقبته ، وكان عليه كَزَاغُنْد[7] ، فكانت الضَّربات تقع في زيقه[8] ، والزَّرَدُ

(١) في ابن الأثير ١٣٧/٩ : «قطب الدين ينال بن حسان المنبجي» .
(٢) في ابن الأثير ١٣٧/٩ : «فوصل النقابون الى السور فنقبوها وملكوها عنوة» .
(٣) في ابن الأثير : «وأخذ صاحبها أسيرًا فأخذ صلاح الدين كل ماله وأصبح فقيرًا لا يملك نقيرًا» .
(٤) النص نفسه في ابن الأثير ١٣٧/٩ .
(٥) في ابن الأثير : «يقال له جاولي وهو مقدم الطائفة الأسدية» .
(٦) في ابن الأثير : «فجرحه فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله» — والمغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .
(٧) في تكملة المعاجم لدوزي ٤٢٦/٢ : «كزاغند : رداء قصير من قطن أو حرير ، يكون كدرع واق ، وجمعها كازغندات» .
(٨) في مفرج الكروب ٤٥/٢ : «فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند ، فتقطعه والزرد يمنعها من الوصول الى رقبته» .

يمنعُها من الوصول . وجاء «سيفُ الدّين يازكج»[١] فأمسك السكّين ، فجرحه الباطني ، ولم يُطْلقها من يده الى أن قُتل . وجاء باطنيّان آخران[٢] فقُتلا .

وركب الملكُ الناصر إلى خيمته ، ولازم حصارَ عَزاز[٣] ، حتى تسلّمها بعد قِتال شديد ، في بُكرة الأربعاء ، ثاني عشر ذي الحجّة .
٥ ورحلَ عنها إلى «مَرْجِ دَابق»[٤] .

ثم سارَ فنزَل حلبَ ، يوم الجمعة ، منتصف ذي الحجّة ، وحصرها ، وبها جماعةٌ من العسكر ، ومنَع أهلُ البلد[٥] الملك النّاصرَ من التقرّب إلى البلد ، وكانوا يخرجون إلى خيم المَعْسْكر فيقاتلوه ، وإذا مسك واحد منهم شرحت قدماه ، فيمتنع من المشي ، ولا يكفّون
١٠ عن القتال ، وقام في نُصرته السنّة والشّيعةُ من الحلبيّين ، وأعطي الشيعة «الشرقيّة» في المسجد الجامع ، فكانوا يجتمعون بها للصّلاة .

واتّفق أن الحلبيّين اجتمعوا تحتَ القلعة ، شاكّين في السّلاح ، يستأذنون الملكَ ‖ الصالحَ في الخروج إلى قتال العسكر ، فدخلَ [١٩٣ و]
رسولٌ من المَلِكِ النّاصر ، يقال له «سعد الدّين أبو حامد العجمي
١٥ الكاتب» ، فصاحَ عوامُّ الحلبيين : «ما نصالحُ يارسول ، رُحْ ، ودعْ

---

(١) في الروضتين ، ومفرج الكروب : «وأدرك السلطانَ مملوكه سيف الدين بازكوج فأمسك السكين بكفه» — وفي ابن الأثير ١٣٧/٩ : «وجاء امير الأمراء اسمه يازكش فأمسك السكين» .

(٢) تفصيل هذا العدوان في مفرج الكروب ٤٥/٢ .

(٣) في مفرج الكروب وابن الأثير : «ولازم حصار عزاز ثمانية وثلاثين يوماً» .

(٤) جاء في شرحها في الزبدة لابن العديم ٩٨/٢ ، ومرج دابق بين عزاز وحلب.

(٥) في ابن الاثير ١٣٧/٩ : «وقد قام العامة في حفظ البلد القيام المرضي بحيث أنهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد .»

عنكَ الفضول » . ورجموه بالحجارة ، فخرج ، واتبعوه إلى قريب من الخيام .

الحلف مع الناصر

ثم تردّدت الرسلُ بينهم في الصُّلح بين الملك الصَّالح ، وسيفِ الدين صاحبِ الموصل ، وصاحبِ الحصن ، وصاحب ماردين ، وبين الملكِ النَّاصر . وتحالفوا ، واستقرَّت[1] على أن يكونوا كلُّهم عونًا على النَّاكث الغادر ، واستقرَّ الصلح . ورحلَ الملكُ ٥ النَّاصرُ ، في السَّادس عشر من محرَّم ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ولما تقرَّر الصلحُ ، أخرج الملكُ الصَّالحُ إلى الملك الناصر أختَه بنتَ نور الدّين ، وكانت طفلة صغيرة ، فأكرمها ، وحملَ لها شيئًا كثيرًا ، وقال لها : « ما تريدين؟ » قالت : « أريدُ قلعةَ عزاز » – وكانوا ١٠ قد علَّموها ذلك – فسلَّمها إليهم[2] .

الإسماعيليّة

هجوم على الاسماعيلية

ورحل إلى بلد « الاسماعيليّة » ، وحصرهم[3] ، ثم صالحهم بوساطة خالِه محمود بن تكش[4] ، وسار بعساكره إلى مصر . وكان في شروط الصُّلح أن يُطْلَق عزُّ الدّين

(١) في ابن الأثير ١٣٧/٩ : « وتقرَّرت القاعدة في الصلح للجميع ، للملك الصالح ، ولسيف الدين صاحب الموصل ، ولصاحب الحصن ، ولصاحب ماردين ، وتحالفوا واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر » .

(٢) هذا النص نفسه جاء مختصراً في ابن الأثير ومفرج الكروب .

(٣) في ابن الأثير ١٣٧/٩ : « قصد بلاد الاسماعيلية في المحرم ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه وارادة قتله ، فنهب بلدهم وخربه ، وأحرقه ، وحصر قلعة مصياف وهي أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم » .

(٤) في مفرج الكروب ٤٨/٢ : « فشفع في القوم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة » .

جورديك ، وشمسُ الدّين عليّ بن الدّاية ، وأخواه(١) سابقُ الدّين ، وبدرُ الدّين . فسار أولادُ الدّاية إلى الملكِ النّاصر ، فأكرمهم ، وأنعم عليهم . وأما جورديك ، فأقام في خدمة الملكِ الصَّالِح ، وعلم الجماعةُ براءته مما ظنُّوا به .

٥ وعصى غرسُ الدّين قلج(٢) في «تلّ خالد»(٣) لأنه نُسِبَ اليه أمرٌ أوجبَ وحشته ، فحصل فيهـا بماله ، وحصّنها ، فخرج إليه سعدُ الدّين كمشتكين || بالعسكر ، ومعه «طمان» ، فحصره مدَّةً ، فسيّر ، [١٩٣ ظ] واستشفع بالملك النَّاصر ، فشفع فيه إلى الملك النَّاصر ، فقبل الشفاعة وأمَّنه ، فخرج بماله وأهلِه ، وحاشيته ، ومضى إلى منبج ، فنزل بها ١٠ عند «الدويل» ، وكان الملكُ النَّاصرُ قد أقطعه إيَّاها ، وكان ذلك في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفي هذه السَّنة ، أظهر أهلُ «جبل السمّاق(٤)» الفُسْقَ والفجورَ ، وتسمّوا بالصفاة ؛ واختلطَ النّساءُ والرّجالُ في مجالس الشُّرب ، ولا يمتنعُ أحدُهم من أختِه ولا بنتِه ، ولبسَ النسآءُ ثيابَ الرّجال ، ١٥ وأعلن بعضُهم بأن «سِنَانًا»(٥) ربّه . فسيَّر الملكُ الصالحُ اليهم عسكرَ حلب ، فهربوا من «الجبَل» وتحصَّنوا في رؤوس الجبال ، فأرسل

(١) لعله يريد أن يقول : «وأخويه سابق ...» إلاّ إذا كان الفعل «يطلق» للمجهول .

(٢) انظر الزبدة لابن العديم ٣٢٦/٢ .

(٣) تل خالد : قلعة من نواحي حلب – انظر مراصد الاطلاع ٢٧٠/٢ – وانظر زبدة الحلب ١٦٥/١ .

(٤) جبل السمّاق : جبل عظيم من أعمال حلب الغربية ، في شمالي معرّة النعمان – انظر زبدة الحلب ١٦٤/١ تحقيقنا .

(٥) في الروضتين : أن سناناً صاحب الحشيشية ، وهو من الاسماعيلية ، وكان مقامه في مصياف ، بلدة صغيرة بالقرب من حماة .

«سنان»، وسأل فيهم، وأنكر حالتهم، وكانوا قد نسبوا ذلك إليه، وأنّهم فعلوا ذلك بأمره، فأشار سعدُ الدّين بقبول شفاعته فيهم، وعاد العسكرُ عنهم.

***

سنان والاسماعيلية

وشرع «سِنان» في تتبّع المقدّمين[1] منهم، فأهلكهم، وكان في «الباب»[2] منهم جماعةٌ فثار بهم «البنوية» ٥ من أهل ذلك البلد، وقاتلوهم من التّركمان، فانهزموا واختبئوا في المغاير، فنهبوا دورَهم، وعرّوا نسآءهم، ودخّنوا عليهم في المغاير، وقتلوا من أمكنهم قتله.

ثم إنَّ الاسماعيليّة قفزوا على الوزير شهابِ الدّين أبي صالح بن العجمي، يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول، من سنة ثلاث وسبعين ١٠ وخمسمائة. وكان السَّبب في ذلك أنَّ أبا صالح كان يواطئ المجاهد «اللّالا»[3] وجمال الدّين شاذبخت، على سعد الدِّين كمشتكين، ويحاولون حطَّه عن مرتبته. فعلم كمشتكين ‖ ذلك، فكتب كتابًا الى [١٩٤ و] «سنان» مقدّم الاسماعيلية «بالحصون»، على لسان الملكِ الصالحِ، يلتمس منه قتلَ أبي صالح، واللّالا، وشاذبخت. وكان قد أحضر ١٥ الكِتَاب إلى الملكِ الصَّالحِ، وهو خَارجٌ إلى الصَّيد، وطلبَ خطَّه، وهو أبيض، لم يكتب فيه شيء أصلًا. وقال له: «المولى خارجٌ، ويحتاج أن يكتب كتابًا في أمر كذا وكذا، فيكتب المولى علامتَه». فكتبَ ثقةً بأنَّ الأمر كما ذَكَر.

(١) انفرد ابن العديم في ايراد الأخبار التالية، فلم تقع في المصادر المطبوعة بين أيدينا.

(٢) الباب: انظر الدر المنتخب لابن الشحنة ١٧٢.

(٣) اللالا: لفظ فارسي، يعني الشخص المكلف بالأطفال والعناية بهم وهو غير اللالا البربرية التي تطلق على النساء في المغرب.

فكتب كمشتكين إلى «سنان» بالأمر الذي أراده ، وسيّره إليه ، فلم يشكّ «سنان» في أنّ الأمر وقع من الملك الصّالح ، ليستقلّ بأموره وملكه . فندبَ جماعةً لقتل المذكورين ، فوثبوا على شِهاب الدّين أبي صالح ، عندما خَرج من باب «الجامع الشّرقي» ، بالقرب من داره ، وقتل الاسماعيليّان الّلذان وثبا عليه .

ثمّ وَثَبَ بعد ذلك بمدّة ثلاثة منهم على «الّلالا» ، بالقرب من «خانكاه القصر»[١] ، وتعلّق بذَيْل «بغلتاقه»[٢] ليضربه بالسكّين ، فرفسَ الّلالا الفرس ، وخرج من «البغلتاق» ، فنجا . وأحاط النّاس بالجماعــة الّذين قفزوا عليه ، وفيهم اثنان كانا يتردّدان إلى «ركابدار[٣]» الّلالا ، فقُتل أحدُهما وصُلب ، وصُلب الركابدار أيضًا ، وكُتب على صدره : «هذا جزآءُ من يُؤْوي الملحدَة» .

وأما الآخر ، فصعدوا به إلى القلعة ، فَضُرب ضربًا عنيفًا ، وثُقِب كَعْبُه ، ليقرّر على السَّبب الّذي أوجب وثوبَهم ، فقال للمَلِك الصَّالح : «أنتَ تبعثُ كتبك إلى مولانا سنان بقَتْلِ مَنْ أَمِرْنا بقتله ، ثم تُنْكِرُ فعلَ ذلك ؟» فقال : «ما أمرْتُ بشيء» . وكتب إلى «سنان» يعتبُ عليه فيما فعل بأبي صالح والّلالا . فقال : «أنا

(١) في الأعلاق لابن شداد ٩٣/١ قسم حلب : «خانقاه القصر : وهي تحت القلعة أنشأها الملك العادل نور الدين محمود .... وكان في مكانها قصر من بنــاء شجاع الدين فاتك . وكان مبدأ عمارته لها سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة .» — وفي مقتل الوزير ابي صالح بن العجمي، انظر ابن الأثير ١٤٣/٩ .

(٢) في تكملة معاجم العرب لدوزي ١٠١/١ ما ترجمته ملخصاً : «بغلطاق أو بغولطاق جمعها بغالطيق : رداء يلبس فوق الثياب بدون أكمام أو أكمام قصيرة يحمل تحت الفرجية . وكانت تصنع من القطن أو الحرير ، وتزيّن أحياناً بالجواهر» .

(٣) الركابدار أو الركبدار : هو الذي يحمل السرج المذهب والموشى بين يدي السلطان في المواكب الرسمية — انظر تفصيل ذلك في صبح الأعشى ١٢،٧/٤ .

[١٩٤ ظ] ‖ ما فعلتُ شيئًا إلَّا بأمرِك وخطِّك » . وسيّر إليه كتابًا فيه علامتُه بقتل الثَّلاثة المذكورين ، فعلم أنَّ ذلك كان مكيدةً من كمشتكين .

وكان الاسماعيليّة قد اجتهدوا في قتل شاذبخت ، فلم يقدروا على الوُثوب عليه ، لشدَّة احترازه في القلعة ، فعند ذلك وجد أعدآءُ كمشتكين[١] طريقًا للطَّعن عليه ، وقالوا : « إنَّما أراد قتل هؤلاء ليستقلّ بملكك ، ويفعل فيه ما لا يقدر أن يفعله معهم ، وانَّه قد استصغرك[٢] ، واحتقَر أمرَك » . ٥

حروب الفرنج

وكانت حارم[٣] لسعد الدّين كمشتكين ، أقطعه إياها الملكُ الصَّالحُ ، حين أخذهـا من بدر الدّين حسن ، فأُنهي إلى الملك الصَّالح أنَّ سعد الدّين يريد أن يسلِّمها إلى الفرنج ، لأنَّ أصله فرنجي ، وأنَّه قد قرَّر معهم أن يبيعها عليهم بمال وافر . والدَّليل على صدق ذلك أنَّه أطلق مَنْ كان بالقلعة ، مِنْ أسرى الفرنج ، من أيَّـام نور الدّين ، وأطلق البرنسَ « أرناط »[٤] ، فقطع الطَّريق بالكَرَك ، وسيّر أمواله من حلب وغيّبها . وكتب إليه رجل من الفرنج ١٠ ١٥

(١) في ابن الأثير ٩/١٤٣ : « فصار كل من كان يحسد كمشتكين انضم الى صالح وقووا جنانه وكثروا سواده » .

(٢) في ابن الأثير : « ونسبوه إلى العجز وأنه ليس له حكم وأن سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره » .

(٣) في ابن الأثير : « وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه اياها الملك الصالح فامتنع من بها بعد قبضه » .

(٤) حاكم الكرك « Le Prince Arnauld de Carac » — وكان اسمه قبل أن يأتي الى الشام « Renaud de Chatillon » .

يقال له ؛ الفارس « بدران » بشيء من ذلك ، وبعث بعدّة كتب من سعد الدّين إلى الفرنج ، تشهد بما أنهاه ، ولعلّه وضع ذلك كله عليه ، حتى نالوا غرضهم منه .

فقَبَض الملِكُ الصَّالحُ علَى سعد الدّين ، في التاسع من شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين ، وكان قد جاء يطلب دستورًا إلى حارم ، وطلب تسليمَهـا منه ، فامتنع[١] . فحُمِل إليها تحت « الحوطة »[٢] ، وجيء به إلى تحت قلعتها ، وعذِّب[٣] ، فاستدعى بعض من يثق إليه من المستحفظين بالقلعة ، ‖ وأسرّ اليهما[٤] أنَّهم [١٩٥ و] لا يسلِّمونها ، ولو قُطع ، ثم قال لهما جهرًا : «بعلامة كذا وكذا ، سلّموا » . فصعد إلى القلعة ، وأظهر مَن فيها العصيانَ والمقاتلة ، فعذِّب عذابًا شديدًا ، وعلّق برجليه ، وسقط بالخلّ ، والكلس ، والدُّخان ، وعُصِر ، وأصحابُه يشاهدونه ، ولا يجيبون إلى التسليم[٥] .

وخرج الفرنجُ من «أنطاكية » ؛ يطلبون « حارم » ، فتقدَّم الملكُ الصَّالحُ بخنق كمشتكين ، فخُنق بوترٍ ، وأصحابُه يشاهدونه ولا يسلمون ، وكسروا يَدَيْه وعنقَه ، ورموه إلى خندق « حارم » ، فحين علم الفرنج ذلك ساروا إلى شيزر .

(١) في ابن الأثير ١٤٣/٩ : « ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا » .

(٢) في مراصد الاطلاع ٤٣٨/١ : «الحوطة : قرية بحمص أو بجبلة ، بساحل الشام».

(٣) في ابن الأثير : « فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه ، فمات في العذاب» فالمؤرخ يختصر هنا ما يفصّل فيه ابن العديم – انظر مفرج الكروب ٦٣/٢ .

(٤) انتقل فجأة إلى الحديث عن شخصين لم يمهّد لهما ، فلعل سطرًا قد سقط قبل هذا الكلام ؛ ولم نستطع أن نتأكد من هذا لأن نسخة لننغراد تنقص خمس كراريس وتساوي عندنا مقدار (٧٨ ورقة) .

(٥) في ابن الأثير ١٣٤/٩ : « وأصر أصحابه على الامتناع والعصيان » – انظر مفرج الكروب ٦٣/٢ .

ودخل المَلِكُ الصَّالحُ إلى حلب ، وخلَّف العسكرَ بأرضِ «عِمّ»[1] و«جاشر» ، حول حارم ؛ يمنعونَها من الفرنج ، ويباكرونها كلَّ يوم لطلب التَّسليم ، ومقدَّم العسكر «طمان بن غازي» – وكان من أكبر الأُمراء – .

في حماة

وعاد الفرنج إلى حماة فحصروها ، ولم يظفروا بطائل ، وطمعوا في حارم ، لعصيان أصحاب كمشتكين بها ، وظَنُّوا أنَّ الملكَ الصَّالحَ صبيّ[2] ، وعسكره قليل ، والملكُ النَّاصر بمصر ، فلا ينجدهم إلَّا بعد أن يأخذوا «حارم» ، فنزلوا عليها ، ومعهم كند كبير[3] من الفرنج ، كان قد خرج من البحر إلى السَّاحل ، يقال له كند «قلنط لماني» ، ومعهم البرنس ، وابن لاون ، والقومص صاحب طرابلس ، فندم من «بحارم» ؛ حيث لم يسلموها إلى الملك الصَّالح .

وحصرها الفرنج ، وضايقوها بالمجانيق والسَّلالم ، فصاحَ مَنْ فيها : «صلاح الدّين يا منصور» ! فأحضروا خيمة ، كانوا أخذوها من خيم الملك الناصر ‖ في كسرة «الرَّملة» في هذه السّنة ، وأخبروهم [١٩٥ ظ] بالكسرة ليضعفوا عزيمتهم ، وعسكر حلب بازائهم من «عِمّ» إلى تيزين[4] .

(١) عمّ : حصن على بعد ٤١ كيلومترًا من بلدة ارتاح – انظر زبدة الحلب تحقيقنا ١٨٧/١ .

(٢) في ابن الأثير ١٤٣/٩ : «ظناً منهم أنهم لا ناصر لهم وأن الملك الصالح صبيّ قليل العسكر ، وصلاح الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها» – وهكذا يفصّل ابن العديم حيث يختصر ابن الأثير .

(٣) في مفرج الكروب ٦٤/٢ : «ووصل في هذه السنة – أعني سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة – كند كبير من الفرنج الى الساحل يقال له اقلندس من أكبر طواغيتهم» – وابن العديم يسميه هنا «قلنط» .

(٤) تيزين : قرية كبيرة من نواحي حلب ، في غربي جبل سمعان على أربعين كيلومترًا من أنطاكية – أنظر زبدة الحلب ١٤٤/١ .

ودخلت سنة أربع وسبعين : والفرنج مجدّون على قِتال «حارم»، ونقبوا في تلّ القلعة، من جهة القبلة نقبًا، ومن جهة الشّمال آخر. فانهدَّ السّور على مَنْ تحته، وهو موضع البغلة، التي جدّدها السُّلطانُ الملكُ الظّاهرُ – قدّس اللهُ روحَه –.

٥ وامتنعَ القتالُ مِنْ تلك الناحية، خوفًا من وقوع شيء آخر. فأخرج المسلمون رجلًا من عندهم إلى «طمان»، يطلب الأمانَ مِن الملك الصَّالح والنجدة، فسيّر إلى الملكِ الصَّالح، وأعلمه.

فانتخبَ الملكُ الصالحُ رجالًا أجلادًا من الحلبيّين، وأعطاهم مالًا جزيلًا، وقال لهم: «أريدُ منكم أن تدخلوا قلعةَ حارم»؛ فجاءوا، ١٠ والفرنج مُحْدِقون بها، في اللّيل، فسلكوا خيامهم مفرّقين، حتى جاوزوها. وصاحوا بالتكبير والتّهليل، وصعدوا القلعة، وصار فيها شوكة من المقاتلة، بعد أن كان قُتل من المسلمين بها رجالٌ عدّة. والمسلمون – أعني عسكر حلب – إذ ذاك حول الفرنج جرايد، وأثقالهم «بدير سمعان»، وهم يتخطَّفون مَن يمكنهم أخذه من الفرنج ويحفظون ١٥ أطراف البلد.

وسار العسكرُ عند ذاك إلى «دير أطمة»[1]، وصادفوا الفرنجَ في وطأة «أطمة»، فحملوا عليهم، فانهزموا وقُتل من الفرنج، وأُسر جماعةٌ؛ فدام حصارُ الفرنج أربعة أشهر[2]. وأرسل الملكُ الصَّالحُ إليهم، وقال: «إنَّ المِلكَ النَّاصرَ واصلٌ إلى الشَّام، وربَّما يسلِّم ٢٠ مَن «بحارم» إليه قلعتها، ويُضْحي في جواركم. ‖ وبذل لهم مالًا [١٩٦ و] بمقدار ما أنفقوا مدَّة حصارهم لها. وانتظم الصُّلْحُ، ورحلوا.

(١) دير أطمة: لم نستطع أن نحدّد موقع «أطمة».
(٢) في ابن الأثير ١٤٣/٩: «وأطالوا المقام عليها أربعة أشهر».

وخرج المَلِكُ الصَّالحُ ، فنزل على « حارم » ، فسلَّمها إليه أصحاب كمشتكين ، وصفح عن جرمهم ، وولّى فيها « سَرخك »[1] جمدار[2] أبيه نورِ الدّين . ودخل حلب وطالب نوابَ كمشتكين بماله ، واعتقلَ ابنَ التّنَبي[3] وزيرَه ، فأحضرَ بعضَ المال ، وعُذِّب حتّى أحضره ، ثم هربَ من الاعتقال . ٥

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، سعى جماعة بالقاضي محي الدّين أبي حامد بن الشَّهرزوري ، قاضي حلب ، وقدحوا فيه عند جمالِ الدّين شاذبخت ، وأوهموه أنه يميل إلى الملكِ الصَّالح ، ووضعوا على لسانه أشعارًا نسبوها إليه ، فأوجب ذلك استيحاشَه ، وتوجَّه إلى الموصل . وعُرِض القضاء على عمّي « أبي غانم محمّد بن هبة الله بن أبي جَرادة » ١٠ فامتنع . فقلِّد والدي القضاء بحلب وأعمالها ، وبقي على قضائها إلى أن مات الملكُ الصَّالح ، وفي دولة عزّ الدّين ، وعماد الدّين ، ومدّة من دولة السّلطان الملك النّاصر .

وقَبض الملكُ الصَّالحُ قريةً للاسماعيليّة تعرف « بحجيرا »[4] من ضِياع نقرة بني أسد ، فكتب « سنان » إلى الملك الصَّالح كتبًا ١٥

(١) يقول ابن الأثير وهو يختصر الأحداث اختصارًا كبيرًا : « فسلموا القلعة إلى الملك الصالح فاستناب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سرخك » .

(٢) الجمدار : هو الذي يتصدّى لالباس السلطان أو الأمير ثيابه ، وأصله جامادار ... من لفظين فارسيين ، أحدهما جاما ومعناه الثوب ، والثاني دار ومعناه ممسك» – انظر صبح الأعشى ، للقلقشندي ٥/٤٥٩ .

(٣) في الأعلاق لابن شدّاد ، قسم حلب ٩٤/١ : « خانقاه أنشأها الأمير جمال الدين أبو الثناء عبد القاهر بن عيسى المعروف بابن التنبي في ذيل العقبة ، كانت دارًا يسكنها فوقفها عند وفاته ، وكانت رابع عشر المحرّم سنة تسع وثلاثين وستمائة » – انظر اعلام النبلاء للطباخ ٤٠٤/٤ .

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٢١٦/٢ : « حجيرا : من قرى غوطة دمشق بها قبر مدرك بن زياد صحابي » .

عدّة في إطلاقها ، فلم يُطلقها ، فأرسل جماعةً من الرّجال معهم النفطُ والنار ، فعمدوا إلى الدّكان التي في رأس «الزجّاجين» من الشّرق في القرنة ، فألقوا فيها النار .

فنهض نائبُ رئيس البلد بمن معه في المربّعة[1] ، والجماعة المرتّبون لحراسة الأسواق ، وأخذوا السّقّائين ليطفئوا الحريق ، فأتى الاسماعيليّةُ من أسطحة الأسواق ، وألقوا النار والنفطَ في الأسواق ، فاحترق ‖ سوقُ البزّ الكبير[2] ، وسوق العطّارين ، وسوق مجد الدّين ، المعدّ للبز ، وسوق الخليع[3] ، وسوق الشراشين – وهو الآن يعرف بالكتّانيّين – وسوق السرّاجين ، والسّوق الذي غربيّ الجامع ، جميعه ، إلى أن انتهى الحريق إلى المدرسة الحلاويّة[4] . [١٩٦ ظ]

واحترقَ للتجّار والسّوقيّة ، من القماش والآلات شيء كثير ، وافتقر كثيرٌ منهم بسبب ذلك ، ولم يظفروا من الاسماعيليّة بأحد ، وذلك في سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وماتَ سيفُ الدّين غازي ، صاحبُ الموصل[5] ، ووليها أخوه عزُّ الدّين مسعود ، وذلك في سنة ستّ وسبعين وخمسمائة .

(١) المربّعة : حيّ ، أو قسم من البلد – انظر تكملة معاجم العرب ٥٠٥/١ .

(٢) لا نريد أن نطيل في الهوامش في تحديد مواقع هذه الاسواق التي يذكرها هنا ابن العديم وانما نرشد إلى كتاب الأعلاق لابن شداد قسم حلب ، ففيه ما يبين ويشرح .

(٣) لم نقع على سوق بهذا الاسم .

(٤) تفصيل هذه المدرسة في كتاب الأعلاق لابن شداد قسم حلب ١١٠/١–١١٣ .

(٥) توفي سيف الدين صاحب الموصل في ثالث صفر سنة ٥٧٦ ﻫ. وكان مرضه بالسلّ – انظر ابن الأثير ١٥٠/٩ .

مَوتُ الصَّالح

الملك الصالح

وكان الملكُ الصَّالحُ في هاتين السنتيْن رخيَّ البال ، مستقرًّا في مملكته ، سالكًا في الإحسان الى أهل حلب طريق أبيه ، عفيفَ اليد والفَرج واللِّسَان ، فقدَّر اللهُ تعالى أن حَضَر أجلُه[1] ، وله نحو من تسع عشرة سنة ، فمرض[2] بالقولنج ، واشتدَّ مرضُه . ٥

فدخل إليه طبيبُه «ابنُ سكَّرة اليهوديّ» ، وقال له سرًّا : «يا مولانا شفاؤُك في الخمر ، فانْ رأيتَ أن تأذَن لي في حمله في كمّي ، بحيث لا يطَّلع الَّلالا ، ولا شاذبخت ، ولا أحدٌ من خَلْق الله على ذلك» . فقال : «يا حكيم ، كنتُ والله أظنُك عاقلًا . ١٠ ونبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول : ﴿إنَّ الله لم يَجْعَلْ شِفَاءَ أُمَّتِي فيما حُرِّمَ عليها﴾[3] وما يؤمِّنني أن أموتَ عقيب شُربها - فألقى الله ،

(١) في سنة ٥٧٧ ﻫ توفي في رجب الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة . وفي شرب الخمر وامتناعه عنه - انظر ابن الأثير ١٥٣/٩ لتتحقق الاختلاف .

(٢) قلنا في مقدمة الجزء الأول أن المستشرقين نشروا أقساماً من هذا الكتاب ، ويحسن بنا أن نشير هنا إلى أن هذا القسم، نشر منذ هذه الكلمة هنا «فمرض بالقولنج» حتى الورقة (٢٢٢ و) عند نهاية البيت : «تلك المكارم لا قعبان من لبن ...» أي في الصفحة ١٢٥ الآتية في هذا الجزء .

نشره المستشرق فريتاغ في كتابه الذي جعل عنوانه باللاتينية كما يلي :

Chrestomatia Arabica, G. G. Freytag, Dr. Bonnae, 1834- 97-138.

وهذا النص بالعربية من غير تعليقات أو فواصل أو اشارات ترقيم ، تكاد تكون صورة للمخطوطة ، كما كان النشر لعهده .

(٣) الحديث الشريف جاء في الفتح الكبير للسيوطي ٣٤٣/١، وورد كما يلي : «ان الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرّم عليكم» .

والخمرُ في بطني ، واللهِ لو قال لي مَلَكٌ من المَلَائكة : إنَّ شفاءك في الخمر لما استعملته » .

حكي لي ذلك والدي عن ابن سكَّرة الطبيب .

تسليم حلب لعز الدين

ولما أيسَ مِنْ[1] نفسِه أحضرَ الأمراء والمستحفظين ، وأوصاهم بتَسليم البلدِ إلى ابن عمّه عزِّ الدّين مسعود بن ‖ مودود بن زنكي ، واستحلفهم على ذلك ، فقال له بعضُهم : « إنَّ عمّاد الدّين ابنُ عمّك أيضًا ، وهو زوج أختك ، وكان والدُك يحبّه ويُؤْثره ، وهو تولَّى تربيتَه ، وليس له غير سنجار ، فلو أعطيتَه البلدَ لكانَ أصلح ، وعزُّ الدين له من البلاد من الفُرات إلى هَمَذان ، ولا حاجةَ له إلى بلدك » ، فقال له : « إنَّ هَذا لم يَغِبْ عنّي ، ولكنْ قد علمتم أنَّ صلاحَ الدِّين ، قد تغلَّب على البلاد[2] الشَّامية ، سوي ما بيدي ، ومتي سَلِمَتْ حلب إلى عماد الدّين يعجز عن حفظها ، وإنْ ملَكَها صلاحُ الدّين لم يبقَ لأهلنا معه مُقَام ، وان سلَّمتُها إلى عزِّ الدّين أمكنهُ حفظُها بكثرة عساكره وبلاده[3] » . فاستحسنوا هذا القولَ منه ، وعجبوا مِنْ حُسْنِ[4] رأيه مع شدَّة مَرَضِه ، وصغر سنِّه .

[١٩٧ و]

ثم مات يوم الجمعة خامس وعشرين شهر رجب ، من سنة سبع وسبعين وخمسمائة . ودُفِن بقلعة حلب ، إلى أن ابتَنَت والدتُه

(١) هنا يتقارب المؤرخان ابن الأثير وابن العديم في الرواية – انظر ١٥٣/٩ من ابن الأثير .

(٢) في ابن الأثير ١٥٣/٩ : « قد تغلّب على عامة بلاد الشام » .

(٣) حتى هذه الكلمة تشابه الرواية مع ما جاء في ابن الأثير حرفياً تقريباً .

(٤) في ابن الأثير : « من جودة فطنته » .

«الخانكاه» تجاهَ القَلعة ، ونُقل إليها في أيام ، فسيَّر الأُمراءُ[1] : جورديكُ ، والبصيريٌّ ، وبزغشُ ، وجمالُ الدّين شاذبخت ، النُّوريّون ، مع جماعةِ المماليك النُّورية ، إلى «عزِّ الدّين» ، يَستدعُونَه ، وجدَّدوا الأيمان فيما بينهم له .

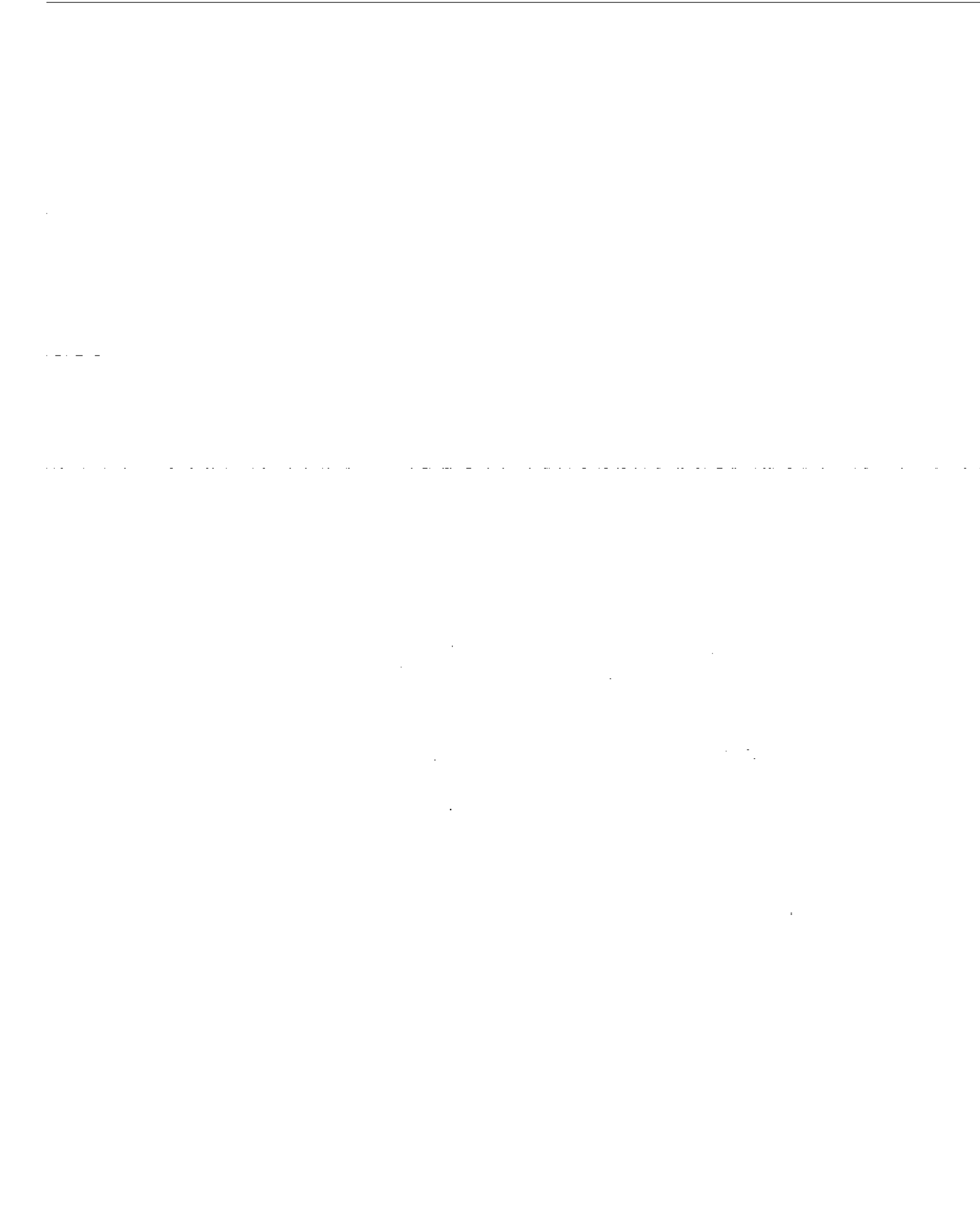
(١) لا يذكر ابن الأثير أسماء الامراء وانما يقول : «ولما قضى نحبه أرسل الأمراء الى أتابك عز الدين يستدعونه الى حلب» .

القسم السادس والعشرون

ذكر
حلب في أيام عز الدين وعماد الدين ابني مودود بن زنكي

تدبير حلب بيد مجاهد الدين - عماد الدين في حلب - الناصر في الشام

٥٧٧ هـ - ٥٧٨ هـ



تدبير حلب بيد مجاهد الدّين

اليمين لعز الدين

وأما عَلَم الدّين سليمان بن جَندر[١] ، وحُسَام الدّين طُمان ابن غازي ، وأهلُ الحاضر ، فإنَّهم راسلوا « عمادَ الدّين » صاحب سنجار ، وكتموا أمرَهم ، و « شاذَبخت »[٢] هو ٥ الوالي بالقلعة ، والحافظ لخزانتها ، والمدبّر للأمور مع « النُّورية » ، فَسَيَّر إلى عَلَم الدّين سليمان ، وحُسام الدين طمان ، وطلب منهما الموافقةَ في اليمين لعزِّ الدين ، فماطلا ، ودافعا . فلما تـأخَّر وصولُ ‖ [١٩٧ ظ] « عمادِ الدّين » عليهما ، وافقا على اليمين لعزِّ الدّين .

ولما وَصَل رسولُ الأمير إلى عزِّ الدّين ، سار هو ومجدُ الدين ١٠ قايماز إلى الفرات ، فنزل على « البيرة »[٣] ، ووصل شهابُ الدّين – أخو عماد الدّين – مختفيًا ، واجتمع بُطمـان وابن جندر ، وأعلمهما أن « عمادَ الدّين » في بعضِ الطَّريق ، فأخبروه بأخذ اليَمينِ عليهم ، وأنَّ تربّصه بالحركة أحوجَهم إلى ذلك ، فعادَ إليه إليه أخوه وعرَّفه ، فعاد إلى بلاده .

دخول حلب

١٥ وأمَّا « عزُّ الدّين » ، فحين وصل إلى « البيرة » أرسل إلى الأُمراء الَّذين بحلب ، واستدعاهم اليه . فخرجوا

(١) في الأصل عندنا : « سليمان بن حيدر » – ولكنها في المصادر الأخرى الباقية : « سليمان بن جندر » .

(٢) في الروضتين : « لما توفي الملك الصالح أرسل دزدار حلب وهو شاذبخت » .

(٣) في ابن الأثير : « قلعة البيرة وهي مطلة على الفرات من أرض الجزيرة » .

والتقوه «بالبيرة» ، وساروا معه إلى حلب[١] ، ودخَلها في العشرين من شعبان . واستقبله مقدّموها ورؤساؤها ، وصعد إلى القلعة .

وكان «تقيُّ الدّين عُمَرُ» – ابنُ أخي المَلك النَّاصر – بمنبج ، فعزم على أن يحولَ بين «عزّ الدّين» وحلب ، حين وصل إلى «البيرة» لأنّه وَصَل جريدةً ، وتخلّف عنهم الغلمانُ والحشدُ ، ثم إنه تثاقَل هو وأصحابه عن ذلك . ٥

ولما وَصَلَ «عزُّ الدّين» إلى حلب ، سار تقيُّ الدّين من منبج إلى حماة[٢] ، وثار أهل حماة ، ونادَوا بشعار «عزّ الدّين»[٣] ، فاشار عسكرُ حلب على عزّ الدّين بقَصْدِها ، وقَصْدِ دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غَيرها من الشّام ، وأعلموه مَحبّةَ أهل الشّام لأهل بيته . ١٠

الناصر في مصر

وكان «الملكُ النّاصرُ» بالدّيار المصرية ، فلم يفعل ، وقال : «بيننا يَمين ، ولا نَغْدر به»[٤] . ولما بلغ «الملك الناصرَ» أخذُ عزّ الدّين حلبَ[٥] قال: «خَرَجَتْ حلبُ عَنْ أيدينا ، ولم يبقَ لنا فيها طمع» .

---

(١) في الروضتين : «أرسل الى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له ، فسار حينئذ الى حلب ، ودخلها وكان يوماً مشهوداً» .

(٢) في الروضتين : «ولما عبر الفرات كان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين بمدينة منبج ، فسار عنها هارباً إلى مدينة حماة» – وفي مفرج الكروب ١٠٨/٢ : «الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخي السلطان بمنبج» .

(٣) في الروضتين : «ونادوا بشعار اتابك» – انظر مفرج الكروب بالصفحة السابقة المذكورة .

(٤) مثل هذا النصّ في الروضتين ، فلعلها استقيا من مصدر واحد ، ومثلها مفرج الكروب .

(٥) في الروضتين : «وكان صلاح الدين بمصر ، وقد أيس من العود إلى الشام» – ومثل هذا جاء في ابن الأثير ١٥٤/٩ .

وأقام عزّ الدّين بحلب[١] ، فسيّر إليه أخوه «عمادُ الدّين زنكي ابن مودود» ، وقال «كيف تختصُّ أنتَ ببلاد عمي وابنه وبأمواله ، ‖ دوني . وهذا أمرٌ لا صَبْر لي عنه» . وطلبَ منه تسليمَ حلب إليه ، [١٩٨ و] وأن يأخُذَ منه «سنجار» عوضًا عنها .

بين عماد وعز الدين

٥ فامتنع «عزُّ الدّين» ، ولم يجبه إلى ما أراد ، فأرسل اليه[٢] وهدَّده بأن يسلّم «سنجار» الى «الملك النَّاصر» فيضايق الموصلَ بها . فأشار عليه طائفة من الأمراء بأخذ «سنجار» منه واعطائه حلب . وكان أشدّ الناس في ذلك «مجاهدُ الدّين» ، وهو الذي كان يتولّى تدبيرَه . وكان أمرآء ١٠ حلب[٣] لا يلتفتون إلى «مجاهد الدّين» ، ولا يسلكون معه ما يسلكهُ عسكرُ الموصل ، فلذلك مَيَّل «عزّ الدّين» إلى ذلك .

وشرعَ «عزُّ الدّين» في المَيْل إلى الأمراء ، الَّذين حلفوا له أولًا ، والإعراض عن الَّذين مالوا إلى أخيه «عماد الدّين» ، وأحسنَ إلى أهل حلب ، وخَلَع عليهم ، وأجراهم عَلى عَادَتهم في أيَّام عمّه

(١) في ابن الأثير ، بالصفحة المذكورة : «لما دخل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب أن يسلّم اليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار فلم يجبه إلى ذلك» — وقد أوردنا هذا النصّ لنصوّر تقارب الروايات وتشابهها بين ابن العديم وابن الأثير ، فقد اختصر ابن الأثير حيث فصّل ابن العديم ، ونقلا من غير شك عن مصدر واحد — انظر رواية الروضتين في الموضوع ، وكذلك مفرج الكروب ١٠٩/٢ .

(٢) في ابن الأثير ، بالصفحة المذكورة : «ولج عماد الدين في ذلك ، وقال : ان سلمتم اليّ حلب ، والاّ سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ جماعة من الأمراء بتسليمها اليه وكان أشدهم في ذلك مجاهد الدين قايماز» — انظر مفرج الكروب ١٠٩/٢ .

(٣) في ابن الأثير : «وكان الأمراء الحلبيون لا يلتفتون إلى مجاهد الدين ويسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل ، فاستقر الأمر على تسليم حلب الى عماد الدين» .

« نورِ الدّين » ، وابنه « الملك الصّالح » ، وأبْقَى قاضيَها والدي ، وخطيبَها عمّي ، ورئيسَها « صفيَّ الدّين طارقَ ابن الطريرة » على ولاياتهم ؛ وولّى بقلعــة حلب « شهابَ الدّين اسحقَ بْنَ أميرك » الجاندار[١] ، صاحب الرّقّة . وأبقي « شاذبخت » في القلعة ناظرًا معه ؛ وولّى مدينةَ حلب والديوانَ مظفرَ الدّين ابن زين الدّين[٢] .

حرب الفرنجة

وكان الصُّلحُ قد انفسخَ ، بموت الملكِ الصّالح ، بين الفرنج والمسلمين . وكانت « شيحُ الحَديد[٣] » مناصفةً بين المسلمين والفرنج ، فأضافها عسكرُ حلب ، قبل وصولِ عزِّ الدّين إلى « الدّربساك[٤] » ، واختصُّوا بها دونَ الفرنج ، وحَضَر أهلُها إلى طمان ، فأعطاهُم الأمان .

فلمّا وَصَلَ « عزُّ الدّين » ، سيّر العساكرَ إلى ناحية « حارم » ، وحاولوا نهبَ « العَمق »[٥] ، فانحازَ أهلُه كلُّهم إلى « شيح[٦] لعلمهم بأنَّ « طمانًا » أمّنهم ، فأراد عسكرُ الموصل أن ينهبوها ، فقالَ [١٩٨ ظ] هم : « إنَّ شيح لحلب ، وإنّهم في أماني » . فلم يلتفتوا إلى قوله ،

(١) شرحنا بأن الجاندار معناها ممسك السلاح كما في صبح الأعشى ٤٥٩/٥ .

(٢) في الروضتين ، عن ابن أبي طي : « أراد مظفر الدين بن زين ، وكان اليه شحنكية حلب ، الاستيلاء على قلعة حلب » – في ابن الأثير ١٥٧/٩ : « مظفر الدين كو كبري ابن زين الدين علي كوچك » – انظر مفرج الكروب ١١٨/٢ .

(٣) شيح الحديد : قرية من قرى حلب ، ويقال لها : الشيحة – انظر مراصد الاطلاع ٨٢٤/٢ ، وفي الدر المنتخب ١٢٧ أنها من أعمال العمق .

(٤) الدربساك : في بعض النسخ : « درب بساك » – وموقعه قرب أنطاكية – انظر ياقوت ٦٤٦/٢ ، وفي السلوك ٥٥١/١ : دير بَسّاك .

(٥) العَمق : كورة بنواحي حلب – انظر مراصد الاطلاع ٩٦٢/٢ وهو هنا عمق حارم ، وقد ذكرها المتنبي في شعره .

(٦) هي شيح الحديد .

وسار وَاليها لَيْلاً ، فسبقهم إلى « المخاض »[١] ، ووقفَ في وجوههم يردّهم ، فقتلَ منهم جماعةً . ثم تكاثروا وعَبَروا ، فسبقهم طمانٌ إلى « شيح » ، وأمرهم أن يَجعلوا النسآء في المغاير ودَرْبِها .

فوصلَ عسكرُ الموصل ، فرأوا ذلك ، فعزموا على القتال ، فصاح ٥ طُمان : « إذا كنتم تخفرون ذمّتي ، فأنا أرحلُ إلى الفرنج » . وسار في أصحابه الى أن قَرب من « يغرا »[٢] ، فوصله مَنْ أخبَرَهُ بأنّهم عادُوا عنها ، ولم ينالوا منها طائلًا . وخافوا من مَلامة عزِّ الدّين ، فعاد « طمان » ، ونزلَ كلّ منهم في خيامه « بحارم » .

وكاتَبَ المَوَاصلةُ « عزَّ الدّين » ، يَطْعَنُون على « طمان »[٣] ، وأنّه ١٠ وافق أهلَ « شيح » في العِصيان ، وأراد اللِّحاقَ بالفرنج ، فأحضر « طمانَ » والمواصلةَ ، وتقابلوا[٤] بين يَدَيْه . فقال عزُّ الدّين : « الحق مع حسام الدّين ، ولا يجوز نقضُ العَهد لواحدٍ من المسلمين » . وكان ذلك في شهر رمضان من السَّنة .

حلب والموصل

وبقيت المواحشةُ بين أمراء حلب والمَوَاصِلةِ ؛ والحلبيّون ١٥ لا يَرَوْنَ التَّغاضيَ لمجاهد الدّين . ومجاهدُ الدّين يحاولُ أن يكونوا معه كأمراء المَوْصل . والأمراءُ الحلبيّون يمنّون عليه بأنّهم اختاروه لهذا الأمر ، ويطلبون منه الزِّيادة ، ويختلقُ المَوَاصلةُ عليهم الأكاذيبَ .

---

(١) المخاض : لم نقع على هذا الموقع بالتحديد .
(٢) يغرا : على حدود العمق بجوار دربساك – انظر زبدة الحلب ٢٩٣/٢ .
(٣) ذكرنا من قبلُ كامل اسمه في التواريخ وهو : « حسام الدين طمان » .
(٤) لم نقع على مثل هذا الموقف أو حديث عنه في أحد المصادر الأخرى ، وانما يتفرد ابن العديم في الكلام عن ذلك كما يتفرد في كثير من مباحث هذا الجزء .

فهربَ الأميرُ علمُ الدّين سليمانُ بنُ جندر ، قاصدًا «الملك النّاصر» إلى مصر . فقالوا لعزّ الدّين : «إنَّ طمانًا سيهرب بعده» ، فأمَرَ عزُّ الدّين مظفرَ الدّين ابن زين الدين ، وبَني الغراف[1] ، والجرايحي وغيرهم أن يميدوا من || «السَّعدي»[2] إلى «المباركة»[3] في طريقه ، وأن يقف جماعةٌ حول دار «طمان» – وكان يسكن خارجَ المدينة – . ٥

[١٩٩ و] فلما لم يجر من «طمان» شَيء من ذلك ، جآوًا اليه نصفَ اللّيل ، وطلبوه ، فخرج إليهم ، فوجد ابنَ زين الدين وبني الغراف ، فسألهم عمَّا يريدون ، فقالوا : «إنَّه أُنْهِيَ إلى عزِّ الدّين بأنَّك تريدُ الهربَ ، وقد أمَرنا بأن نعوقَك» فقال : «والله ما لهٰذا صحّة ، ولو أردتُ المسيرَ عَنْ حلب لَمَضَيْتُ ، لا على وَجْه الخِفْيَة ، ولا أخافُ من أحد» . ١٠

فجعلوا لهم طريقًا آخر إلى نَيْل غرضهم ، وأصبحوا ، وَعزّ الدّين منتظرٌ ما يكون ، فقالوا له : «كان قد عزم على الهرب ، فلما علم أنَّ الطريق قد أُخذ عليه ، وأن الدَّار قد أُحيط بها أخَّرَ ذلك إلى وقت ينتهزُ فيه الفرصةَ ، والمصلحةُ قبضُه قبل هَرَبه» . فَأمَرَهُم بأن يقبضوه مُحْتَرمًا ، ويُحضروه إليه . ١٥

فجآوُه ليلًا ، مِنْ أعلى الدَّار وأسفلِها ، وأزعجوه ، وكانَ نائمًا ، فخرج إلى الباب ، فوجد مظفَّر الدّين بن زين الدّين مع بني الغراف ،

(١) لم نقف على حديث عن هؤلاء في المصادر الأخرى .

(٢) السَّعْدي : جاء في الدر المنتخب ٢٥٥ : «السعدي : فضاء فياح تجري فيه أنهر متشعبة من نهر واحد بحافتيها مروج خضر وبها من الزهر المختلف ما لا يبلغه الوصف» – وقد ذكره المؤلف في جملة متنزهات حلب .

(٣) المباركة : انظر الصفحة ٢٥ السابقة من هذا الكتاب بالحاشية .

فقالوا له : « إنَّ المَوْلى عزُّ الدين قد أَمَرنا بالقبْض عليكَ ». فقال لهم : « السمع والطاعة ، فشأنكم وما أُمِرتُم به » ؛ فَأَرْكَبوه ، وحَمَلُوه ، والرجالُ محيطةٌ به ، وفتحوا باللَّيل بابَ القلعة ، واعتقلوهُ بها غيرَ مضيّق عليه .

٥ وأحضره « عزُّ الدين » ، ووانَسَه ، وقال : « لم أفعلْ ما فعلتُ إلَّا لشدَّة رغبتي فيك ، وافتقاري إلى مثلك » ؛ فعرَّفه ما ينطوي عليه ، وأنَّ ما نُقل عنه لم يَخْطُر بباله . فقال : « إنَّ وقيعةَ أعدائِك فيك ، لم تَزِدْك عِندي إلَّا حظوة » .

وبقي مُعْتَقلًا في القلعة أسبوعًا ، ثُمَّ خَلَع عليه ، وأطلقه ‖ وزاد في أقطاعه « الأخْتَرين »[1] . ١٠

[١٩٩ ظ]

زواج عز الدين

وأقام « عزُّ الدّين » حتَّى انقضَت مُدَّةُ الشِّتاء ، ثم تزوَّج أُمَّ الملك الصالح ، في خامس شوّال من السنة ، ثم سيَّرها الى المَوْصل ، واستولى على جميع الخَزَائن[2] التي كانت لنور الدّين وولدِهِ بقلعة حلب ، وما كان فيها من السّلاح ، والزرد ، والقسيِّ ، والخُوَذِ ، رالبركسطوانات[3] ، والنشَّاب ، والآلات ، ولم يترك فيها إلَّا شيئًا يسيرًا من السّلاح العتيق ، وسيَّر ذلك كلَّه إلى « الرَّقَّة » . ١٥

وترَكَ في قلعة حلب ولدَه نورَ الدّين محمودًا طفلًا صغيرًا ، وردّ أمرَه إلى الوالي بالقلعة : شهابَ الدّين اسحق ، وسلَّم البلدَ والعسكرَ

---

(١) الأخترين ؛ قرية مشهورة قرب حلب .

(٢) في الروضتين : « ووصل ابن عمه إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى حلب ، فجمع ظاهره وباطنه ، وأخذ خزائنه ودفائنه ، وأخلى كنائنه » .

(٣) البَرْكُسْطُوانات : غاشية الحصان المزركشة، وتكون لغير الخيول كذلك – انظر دوزي : تكملة المعاجم ، وفي حاشية السلوك ١٧٧/١ ، وقد رسمها بركستوان

إلى مظفَّر الدّين ابن زين الدّين . وسار إلى الرقَّة ، سادس عشر شوَّال، فأقام بها فصلَ الرَّبيع .

عِمَادُ الدِّين فِي حَلَب

المقايضة

وراسلَ أخاه «عمادَ الدّين» ، في المُقَايضة «بسنجار» ، ليتوفَّر على حِفْظ بلاده ، ويضمّ بعضها إلى بعض ، ولعلمه أنَّه يحتاجُ إلى الإقامة بالشَّام ، لتعلُّق أطماع «الملك النَّاصر» بحلب . وقَدِم عليه أخوه . واستقرَّت المُقَايَضةُ على ذلك ، وتحالفا[1] على أن تكون حلبُ وأعمالُها لِعماد الدّين و «سنجار» وأعمالُها لعزِّ الدين . وأنَّ كل واحدٍ منهما يُنْجد صاحبَه ، وَأنْ يكون «طمانُ» مع عماد الدّين ، فسيّر «طمانَ» ، وصعدَ إلى قلعة حلب ، وكان معهم علامةٌ من عزِّ الدّين ، فتسلمَّها ، وسَيَّر عزُّ الدّين مَنْ تسلَّم سنجار .

وفي حالِ طلوع «طمان» ، ونَقْلِ الوالي متاعَه ، طَمِعَ «مُظَفَّرُ الدّين ابن زين الدين» بأن يملك القلعةَ ، ووافَقَه جماعةٌ من الحلبيين كانوا بقربه ، في الدّار المعروفة بشمسِ الدّين علِيّ بن الدّاية وجماعةٌ من الأجناد ، ولَبِسَ هو زَرَدِيَّةً ، تحتَ قِبائه ، وألبسَ ‖ جماعةً مِنْ أصحابه الزَّردَ تحتَ الثِّياب ، ومع كلّ واحد منهم سيفٌ . وأرسل إلى شهاب الدّين ، وقال له : «إنَّه وَصَلني كتابٌ من أتابك عزِّ الدّين ، وأمرني أن أطلع في جماعة إليك ، فأمرْه بالصُّعود .

[٢٠٠ و]

(١) يريد أن الأخوين عز الدين وعماد الدين تحالفا .

وكانَ « جمالُ الدّين شاذبخت » ، في حوش القلعة الشرقي ، الّذي هَدَمه الملكُ العادلُ – وكان بَيْن الجِسْرَيْن اللّذين جدَّدهما السلطانُ الملكُ الظاهر – رحمه اللهُ – وعَمل مكان ذلك الحوش بغلة[1] – فرأى الجندَ مجتمعين تحتَ القلعة ، فَسَيَّر « شاذبخت » ، وأحضرَ بوَّابًا كانَ للقلعة ، يُقال له « عليّ بن منيعة » وكان جلدًا يقظًا ، وأمرَه بالاحتراز .

قلعة حلب

٥

فلما أن أراد أن يدخُلَ من بابِ القلعة ، تقدَّم إليه ، وقال له : « لا تدخلْ إلَّا أنتَ وحدَك » . وكان في ركابه جماعةٌ فمنعوهم . فلم يتمّ له ما أراد .

١٠ وعادَ ابنُ زين الدّين إلى داره ، وقيل إنَّ ابنَ مقبل الاسباسلار ، قال له : « أنتَ تَصْعَدُ إلى القلعة ، فما هَذا الزَّردُ عليك ؟ » فعاد ، وجَعل يعتذرُ عمَّا شاع في النَّاس مِنْ فعله .

وكتبَ شهابُ الدّين الوالي وجمالُ الدّين شاذبخت إلى عزِّ الدّين كتابًا بخطِّ « حسين بن يلدَك[2] » ، إمام « المقام » . وأخذ تحته ١٥ خطوطَ الأجناد ، والنقيب ، والاسباسلار . فلم يمكن « عزّ الدّين » مكاشفته في ذلك ، لقرب « الملك النَّاصر » من البلاد .

وبعثَ « مظفَّرُ الدّين » إلى « عزِّ الدين » يعتذرُ ، ويقول : « إنَّ الاسماعيليّة أوعدوني القتل ، وما أمكنني إلَّا الاحتراز بالسّلاح ، أنا ،

---

(١) « بغلة » : مرت بنا هذه الكلمة في الصفحة ٣٧ كذلك .

(٢) حسين بن يلدك : رسمت غامضة ، فلم نتبيّن صحة الاسم في الأصل ، ولم نقع عليه في المصادر بين أيدينا ، لان ابن العديم يورد في بعض المواقع تفصيلات لا نجد الأصول التي استسقى منها معلوماته – وقد شرحنا حيّ المقام من حلب قبل قليل .

ومَنْ معي ، وأنكَرَ الحَفَظَةُ بالقلعة ذلك عليَّ ، ولم يكن ذلك لأمرٍ غير ما ذَكَرْتُه » . فلم يقابلْهُ على ذلك .

وأما « طمان » ، فإنَّه قبَضَ عَلَى الجَمَاعةِ الَّذين كانوا معه ، وحبَسَهم || في القلعة ، واطَّلع على ما كانوا أضمروه ، وأطاقهم في اليوم الثاني ، وسَتَر هذا الأمرَ . [٢٠٠ ظ] ٥

دخول حلب ثم وَصَل قطبُ الدّين ابنُ عماد الدّين إلى حلب ، ثم وَرَد أبوه « عماد الدّين » ، فوصل بأهله ، وماله ، وأجناده ، وزوجته بنت نور الدّين . ووصل على البريّة من جهة « الأحصّ »[١] . والتقاه الأكابرُ مِنَ الحَلبيّين . وصعد إلى قلعة حلب ، في ثالث عشر المحرَّم ، من سنة ثَمان وسَبعين وخمسمائة ، وقيل في مستهلّه . ١٠

وولّى القلعةَ « عبدَ الصَّمد بن الحكَّاك المَوْصِليَّ » ؛ والعسكرُ ، والخزائنُ ، والنظرُ في أحوال القلعة إلى مجاهد الدّين بزْغش . وأنزلَ « شاذبخت » مِن القلعة . والقضاءُ ، والخطابةُ ، والرئاسةُ ، على ما كان عليه ، في ايَّام أَخيه وابنِ عمِّه .

وولَّى الوزارةَ « بهاءَ الدّين أبا الفتح نصرَ بن محمَّد بن القَيْسرانيّ[٢] » ، أخا « موفّق الدّين خالد » – وزيرَ نور الدّين – واستمرَّ الشِّيعَةُ في أيّامه ، وأيّام أخيه ، على قَاعدتهم ، الَّتي أقَرَّهم عليها « الملكُ الصَّالح » ، مِنْ إقامة شِعَارهم بالشرقيّة[٣] ، بالمسجد الجامع . ١٥

(١) الأحصّ : ذكرنا موقعها في زبدة الحلب ، تحقيقنا ١٦/١ وهي من قرى السفيرة قرب حلب .

(٢) نصر بن محمد بن القيسراني : نسبة إلى مدينة قيسارية على ساحل البحر بالشام ، انظر اللباب لابن الأثير ١٦/٢ .

(٣) مرت بنا في الصفحات السابقة موقع الشرقية في الجامع الكبير بحلب .

وأبقي «سرخك»[1] في حارم على ما كان عليه . وحكم «شاذبخت» في عَزَاز وقلعتها – وهو وكيلٌ عن ابنةِ نور الدّين التي أطلقها الملكُ النَّاصرُ لها – وصالحَ الفرنجَ .

وجرى في الاحسان إلى أهل حلب ، على قاعدة عمّه وابن عمه وأخيه . ولما بلغَ الملكَ النَّاصرَ حديثُ حلب وأخذُ عماد الدّين إياها ، ٥ قال : «أخَذْنا واللهِ حلبَ» . فقيل له : «كيفَ قلتَ في عزِّ الدّين لما أخذها خَرَجَت حلب عَنْ أيدينا ، وقلتَ : حينَ أخَذَها عماد الدّين أخَذْنا حلبَ ؟» فقال : «لأنَّ عزَّ الدّين ملكٌ صاحبُ رجالٍ ومالٍ ، وعماد الدّين ، لا مال ولا رجال» !

النَّاصِرُ في الشَّام ١٠

صلاح الدين في دمشق

‖ وخرج «الملك النَّاصر» ، مِنْ مصر في خامس المحرَّم [٢٠١ و] من هذه السَّنة . وخرج النّاسُ يودّعونه ، ويسيرون معه ويتأسّفون على فِرَاقه ، وكان معه معلِّمٌ لبعض أولاده ، فالتفتَ إلى بعض[2] الحاضرين ، وأنشد :

تَمَتَّعْ مِنْ شَميم عَرارِ «نَجْدٍ» فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرارِ ١٥

(١) في ابن الأثير ١٦٣/٩ : «لما ملك صلاح الدين كان بقلعة حارم وهي من أعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه سرخك وولاه عليها الملك الصالح» – ولكننا لم نقع على كامل اسمه في المصادر .

(٢) بسط هذه الحكاية كذلك ابن الأثير ، ونقلها صاحب مفرج الكروب ، وقال ابن الأثير : «وفي الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الحاضرين الحاضرين وأنشد :» ...

فانقبضَ السُّلطانُ ، وتَطيّر . فقُدِّر أنَّه لم يَعدُ[1] إلى مصر ، إلى أن مات ، مع طول مدّته ، واتّساع مُلكه في غيرها .

وسار على «أيلة» وأغار[2] على بلاد الفرنج في طريقه . ووصل دمشق في صفر . ثم خرج منها إلى ناحية «الغَوْر» ، فأغار[3] على ناحية «طبريّة» و«بَيْسان» ، وعاد إلى دمشق[4] . ثم خرج إلى «بيروت» ، ونازَلها ، واجتمع الفرنجُ فرحّلوه عنها . فدخل إلى دمشق . وبلغه أنَّ المَواصلة[5] كاتبوا الفرنجَ على قتاله ، فجعلَ ذلكَ حُجَّةً عليهم .

وسارَ حتّى نزلَ على حلب ، في ثامن عشر من جُمادى الأولى ، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . ونَزل على «عين أشمونيت»[6] ، وامتد عسكرُه حولَها شرقًا ، وأقام ثلاثة أيّام ، فقال له عمادُ الدّين : «امضِ إلى سنجار ، وخُذْها وأدفعْها إليَّ ، وأنا أُعطيكَ حلب» .

وكان «عمادُ الدّين» قد ندِم على مقايَضة أخيه بحلب وسنجار ،

(١) في ابن الأثير : «فلم يعد اليها إلى أن مات مع طول المدة» .
(٢) تفصيل الخبر في ابن الأثير ١٥٥/٩ – «وأيلة» : ميناء على البحر الأحمر معروف .
(٣) في ابن الأثير : «فأتى دمشق فوصلها حادي عشر صفر من السنة» – وطبرية وبيسان جاء ذكرهما في كتاب الأعلاق الخطيرة لابن شداد ، قسم فلسطين ، تحقيقنا
(٤) في ابن الأثير ١٥٦/٩ : «ثم سار الى بلاد الفرنج في ربيع الأول ، فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم بالأقحوانة من الأردن ... ثم انه سـار عن دمشق إلى بيروت ، فنهب بلدها ... وحصرها عدة أيام» .
(٥) في مفرج الكروب ١١٥/٢ : «ثم عزم السلطان على السير الى البلاد الشرقية وإلى حلب ، فبلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج ، ورغبوهم في قصد الثغور الاسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم» .
(٦) عين أشمونيت : معروفة بعين أشمول ، وهي في جملة متنزهات حلب – انظر الدر المنتخب ٢٥٥ .

حيث وَصَل ووَجَد خَزائنَها صِفْرًا من المال ، وقلعتَها خاليةً من العُدَد والسِّلاح والآلات ، وأنَّه يجاور مثل « الملك الناصر » فيها .

فعند ذلك سار « الملك الناصر » إلى[1] عبر « البيرة » ، وكان ‖ صاحبها « شهابُ الدّين بْنُ أَرتق » قد صار في طاعته . فعَبَر [٢٠١ ظ]
٥ إليه مظفَّرُ الدّين ابن زين الدّين إلى الناحية الشَّاميّة ، وحرَّان ، اذ ذاك في يده ، كان أقطعه إياها عزُّ الدّين صاحبُ الموصل . وحَصَلَتْ بينه وبينه وحشةٌ من الوَقت الَّذي عَزَم فيه على أخذ قلعة حلب ، فكانتْ رسلُه تتردَّدُ إلى « الملك النَّاصر » ، تطمعه في البلاد ، وتحثُّه على الوصول .

١٠ وعادَ ابنُ زين الدّين معه حتى عبَر الفُرات[2] في جسر « البيرة » ، وكان « عزُّ الدّين » قد وصلَ بعساكر المَوصل إلى « دارا »[3] ، ليمنع « الملك النَّاصرَ » من حلب ، فلما عبر[4] الفراتَ عاد إلى الموصل .

(١) في ابن الأثير ١٥٦/٩ : « فقصد البيرة وهي قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزري ، وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفي طاعته » — وفي مفرج الكروب ١١٦/٢ : « وكانت البيرة لشهاب الدين الأرتقي » .

(٢) في ابن الأثير ١٥٦/٩ : « فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة ، وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب » .

(٣) نقلنا عن ابن الأثير انه ذكر « نصيبين » — و« دارا » : مدينة في لحف جبل ماردين .

(٤) في ابن الأثير ، كما نقلنا ، يجعل الحديث عن اثنين فيقول : « فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل » .

الناصر في الفرات

وعبرَ « الملكُ النَّاصرُ » ، فأخذ « الرّهـا »[١] من ابن الزعفراني ، وسلّمها إلى ابنِ زين الدّين ، وأخذَ الرّقّة من ابن حسّان[٢] ، ودفعها إلى ابن الزَّعفراني[٣] . وكاتَب ملوكَ الشَّرق[٤] فأطاعوه ، وقَصَدَ « نصيبين »[٥] ، فأخذها .

وسار إلى المَوصل ، وفيها عسكرٌ قويٌّ[٦] ، فقُوتل قتالًا شديدًا ، ولم يظفر منها بطائل ، فرَحَل عنهـا إلى « سنجار » ، فأنفذَ « مجاهدُ الدّين » إليها عسكرًا ، فمنعه « الملكُ النَّاصرُ » مـن الوصول[٧] . وحاصرَ « سنجار » ، فسلمّها إليه أميرٌ من الأكراد[٨] الزرزارية ، وكان في برجٍ من أبراجها ، فسلَّم إليه تلك النَّاحية ، وصارت « الباشورة »[٩] معه ، فضعفت نفسُ واليها « أمير أميران »

(١) الرّها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام — انظر زبدة الحلب ٢٥/١ .

(٢) في ابن الأثير : «كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسّان المنبجيّ» — وأما ابن زين الدين فهو مظفّر الدين كوكبوري ابن زين الدين ، وانظر مفرج الكروب ١٢٣/٢ .

(٣) في ابن الأثير ١٥٧/٩ : « وكان بها حينئذ مقطع وهو الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني » .

(٤) في ابن الأثير ١٥٧/٩ : « كاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته » .

(٥) في ابن الأثير : « سار الى نصيبين ، فملك المدينة لوقتها » .

(٦) تفصيل الحشد العسكري والقتال بالموصل ، يقع في ابن الأثير ١٥٧/٩ .

(٧) في ابن الأثير ١٥٨/٩ : « فسمع بهم صلاح الدين فمنعهم من الوصول اليها وأوقع بهم » .

(٨) في ابن الأثير : « فكاتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزرزارية » — وارجع إلى هذه الصفحة تجد تفصيل الأمر في تسليم سنجار .

(٩) الباشورة : في الدر المنتخب ٤٥ : « والباشورة هي قطعة أرض ظاهر سور البلد يجعل عليها سور خاص يحول بينهـا وبين الخندق يخرج منها إلى ظاهر البلد » .

أخي عزِّ الدِّين[١] ، فسلَّمها بالأمان ، في ثاني شهر رمضان من السَّنة ، وقرّر «الملكُ النَّاصرُ» أمورَها ، وعادَ إلى حَرَّان[٢] .

ولما قصدَ «الملكُ النَّاصرُ» البلادَ الشرقيَّةَ ، رأى عمادُ الدِّين أن يخرِّب المعاقلَ المطيفةَ ‖ ببلد حلب ، فشنَّ الغارات على شاطئ الفرات ، [٢٠٢ و] وهدم حصن بالس[٣] ، وحصر قليعة نادر[٤] ففتحها ، ثم هدمها بعد ذلك ، وأغار على قرى الشطِّ ، فأخربها واستاق مواشيها ، وأحرق جسر «قلعة جعبر»[٥] .

ثم وصل إلى «منبج» وقاتلها ، وأغار على بلدها ، ووصلت الغارة إلى «قلعة نجم»[٦] ، وعبر الفرات ، فأغار على «سروج»[٧] .

١٠ ثم عاد إلى حلب ؛ ثم خرج وهَدَم «حصن الكرزين» وخرب حصن «بزاعًا» وقلعة «عزاز» ، في جمادى الآخرة ، وخرب حصن «كفرلاثا»[٨] بعد أخذه من صاحبه بكمش ، وكان قد استأمن الى «الملك الناصر» ، وضاق الحال عليه ، فشرع في قطع جامكية أجناد من القلعة ، وقتَّر على نفسه في النفقات .

(١) في ابن الأثير ١٥٨/٩ : «وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عز الدين صاحب الموصل» — انظر مفرج الكروب ١٢٣/٢ .

(٢) في ابن الأثير : «وسار الى حرّان ، وفرّق عساكره ليستريحوا ، وبقي جريدة في خواصه وثقات أصحابه ، وكان وصوله اليها أوائل ذي القعدة من السّنة» .

(٣) بالس : ذكرنا شرح موقعها في زبدة الحلب ٥٤/١ .

(٤) «قليعة نادر» بغير نقط — لم نقع عليها في المصادر العربية ، وفي دوسو ٩٠ يذكر القليعة قرب طرابلس ، فلعل مراد ابن العديم غير هذه .

(٥) جعبر : قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، كانت تسمى دوسر ، انظر مراصد الاطلاع ٣٣٥/١ .

(٦) قلعة نجم : قلعة مطلة على الفرات — انظر زبدة الحلب ١٠٣/١ .

(٧) سروج : أنظر زبدة الحلب ٧٨/٢ وهي شمالي حران .

(٨) كفرلاثا : قرية قريبة من اريحا السورية — وقد مرت بنا بزاعا وعزاز في ابن العديم بالجزء الثاني .

وأما «الملكُ النَّاصرُ» ، فرحل من «حرّان» فنزل «بحرزم»[١] تحت قلعة «ماردين» . فلم يرَ له فيها طمعًا[٢] ، فسار إلى «آمد» ، في ذي الحجّة . وكان قد وعد «نور الدين[٣] محمد بن قرا أرسلان» بأخذها من ابن نيسان[٤] ، وتسليمها إليه ، وحلف له على ذلك ، فتسلَّمها في العشر الأول ، من المحرّم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة . ٥ وكان فيها من المـال شيء عظيم . فسلَّم ذلك كلَّه مع البلد إلى نور الدّين ، وقيل له في أخذ الأموال وتسليم البلد ، فقال : «ما كنتُ لأُعطيه الأصلَ وأبخل بالفرع[٥]» .

(١) في ابن الأثير ٩/١٦١ : «بجوزم» وهو تصحيف – وصوابها ما جاء عندنا وما يوافق معجم البلدان لياقوت ، وهي بلدة من أعمال الجزيرة ، وأكثر أهلها أرمن نصارى – انظر ياقوت معجم البلدان ، مادة (حرزم) .

(٢) في ابن الأثير ٩/١٦١ : «بجوزم تحت ماردين ، فلم ير لطمعه وجهاً ، وسار عنها إلى آمد على طريق البارعية» .

(٣) في ابن الأثير : «وكان نور الدين محمد بن قرا ارسلان يطالبه في كل وقت بقصدها وتسليمها اليه» – في مفرج الكروب : «نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا» .

(٤) في الأصل عندنا : «ابن بيسان» – وفي ابن الأثير : «بهاء الدين بن نيسان» – وفي مفرج الكروب ٢/١٣٥ : «مسعود بن أبي عليّ بن نيسان» .

(٥) في ابن الأثير : «فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ، ولم يعط الناس من الذخائر شيئاً ، ولا فرّق فيهم ديناراً واحداً ولا قوتاً» – وانظر بقية الموضوع في ابن الأثير : وفي مفرج الكروب بالصفحات المذكورة ، النصّ نفسه الذي أورده ابن العديم .

القسم السابع والعشرون

ذكر
حلب في أيام الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب

حصار الناصر حلب - دخول الناصر حلب - تسليم حلب للعادل - غزو الفرنج

إخراج العادل من حلب

٥٧٩ هـ - ٥٨٢ هـ

حصار الناصر حلب

الناصر في الشام

ثم إنَّ الملك الناصر عبر إلى الشَّام ، فمرَّ «بتلّ خَالد»[١] فحصرها ، فسلَّمها أهلُها بالأمان في المحرّم . ثم سار منها إلى عين تاب[٢] ، وبها «ناصر الدّين محمد» أخو «الشّيخ
٥ اسماعيل الخزندار[٣] ، فدخل || في طاعته ، فأبقاها عليه[٤] . [٢٠٢ ظ]

ولمَّا علم «عمادُ الدّين» ذلك ، وتحقَّق قصدَه لحلب ، أخذَ رهائن الحلبيين ، وأصعدَ جماعةً من أولادهم وأقاربهم ، خوفًا من تسليم البلد ، وقَسَم الأبراجَ والأبوابَ على جماعةٍ من الأُمرآء .وكان الأُمرآءُ «الياروقيّة» بها في شوكتهم[٥] .

١٠ وجاء الملكُ النّاصرُ ، ونَزَل على حلب في السَّادس والعشرين من محرّم سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وامتدّ عسكره من «بابلَّى»[٦]

(١) في ابن الأثير ١٦١/٩ : «وقصد تلّ خالد ، وهو من أعمال حلب» .
(٢) في ابن الأثير : «عينتاب» – واما ابن العديم وابن واصل : «عين تاب» – وفي معجم البلدان لياقوت ٧٥٩/٣ أنها كانت تعرف بدلوك ، وانها الآن من أعمال حلب – انظر زبدة الحلب ٣٠٢/٢ .
(٣) في مفرج الكروب ١٣٩/٢ : «ناصر الدين محمد بن خمارتكين أخو الشيخ اسماعيل خازن نور الدين – رحمه الله – وحاجبه ، وكان قد سلّمها إليه نور الدين ، فبقيت في يده إلى هذه السنة» – وفي ابن الأثير : «ناصر الدين محمد وهو أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين» .
(٤) في ابن الأثير : «فلما نازله صلاح الدين أرسل اليه يطلب أن يقرّ الحصن بيده وينزل إلى خدمته ويكون تحت خدمته وطاعته» .
(٥) انظر في ذلك ابن الأثير ١٦٢/٩ ، وابن واصل ١٤٢/٢ .
(٦) كلمة غير منقوطة في الأصل ، فلعلها كما رسمنا – وبابلّى : قرية قريبة متّصلة أرضها بأرض بانقوسا ، بها عدة جواسق وبحرات وجنينات وغير ذلك – انظر الدر المنتخب ٢٥٦ .

إلى النَّهر ممتدًّا إلى «باسلين»[١] ، ونزل هو على «الخناقيّة»[٢] . وقاتل عسكر حلب قتالًا عظيمًا ، في ذلك اليوم ، وأسر «حسامَ الدّين محمود بن الختلو» ، بالقرب من «بانقوسا»[٣] ، وهو الذي تولى شِحْنَكِية حلب ، فيما بعد .

وهجمَ تاجُ الملوك بُوري[٤] بْنُ أيّوب ، أخو «الملك النّاصر» ، على عسكر حلب ، فَضُرِب بنشّاب زنبورك[٥] جرح بوري فأصابَ ركبتَه ، فوقع في الأكحل ، فبقي أيّامًا ، وماتَ بعد فتح حلب ، ودُفن بتربة «شِهاب الدّين الحارميّ» ، «بالمقام»[٦] ، ثم نقل إلى دمشق .

وجدّ الملكُ الناصرُ ، بسبب أخيه على محاصرة حلب أيامًا ، فاجتمع إليه الأجنادُ من العسكر والرّجال ، وطلبوا منه قرارَهم فَمطَلَهم[٧] ، فقالوا : «قد ذهبتْ أخبارُنا ، ونحتاجُ لغلاء الأسعار إلى ما لا بدّ

---

(١) «باسلين» : رسمت كذلك في نسختنا ، ولم نقع على تحديد مكانها ، فلعلها من المتنزهات في حلب ، أو لعلها مصحّفة .

(٢) الخناقية : ذكرها ابن الشحنة في جملة متنزهات حلب ، انظر الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص ٢٥٦ .

(٣) بانقوسا : محلّة كبيرة ظاهر حلب من جهة الشرق والشمال ، وهي لعهد ابن الشحنة بندر عظيم – انظر الدر المنتخب ٤٤ .

(٤) بورى : اسم تركيّ ، معناه : الذئب ، وهو أصغر أولاد أيوب ، وله ديوان شعر ، انظر اعلام النبلاء للطباخ ١٣٤/٢ .

(٥) في ابن الأثير : «طعن في ركبته فانفكت فمات منها» – ونشاب زنبورك : ضرب من القسيّ التي ترمى عنها السهام ، أو هي أنواع من القسيّ ، وجمعها زنبوركات – انظر تكملة المعاجم لدوزي مادة «زنبورك» .

(٦) المقام : مقام ابراهيم الخليل عليه السلام – انظر الدر المنتخب ٨٠ .

(٧) في ابن الأثير : «وطلبوا منه شيئاً فاعتذر بقلة المال عنده ، فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع حلي نسائه ، فمال حينئذ إلى تسليم حلب ، وأخذ العوض منها» – والقرار : هنا يشبه ما نسمّيه بالأجر أو التعويض ، وسيمر بنا أنه يقرنها بالجامكية ، وما تزال الجامكية مستعملة في عامية أهل حلب .

منه » ، وشَحَّ بماله ، فقال لهم : « أنتم تعلمون حالي ، وقلَّة مالي ، وأنني تسلَّمتُ حلب صِفْرًا من الأموال ، وضياعُها في أقطاعِكم » .
فقال له بعضهم : «مَنْ يريد حلبَ يحتاجُ إلى أن يُخْرِجَ الأموالَ ولو بَاع حليَ نسائه » ؛ فأحضر أوانيَ من الذَّهب والفضَّة ، وغيرها ؛
٥ وباع ذلك ، وأنفقه فيهم .

وكان الحلبيّون يخرجون ‖ على جاري عادتهم ، ويقاتلون أشدَّ [٢٠٣ و] قتال بغَيْر جَامِكيَّة ، ولا قَرَار ، نخوةً على البلد ، ومحبّة لملكهم ، فأفكر عمادُ الدّين ، ورأى أنه لا قِبَل له بالملك النَّاصر ، وأنَّ ماله ينفد ، ولا يُفيده شيئًا ، فخلا ليلةً بطمان[1] ، وقال له :

١٠ «ما عندك في أمرنا ؟ هذا الملكُ النَّاصرُ ، قد نَزَل محاصرًا لنا ، وهو ملكٌ قويّ ، ذو مال . والظَّاهر أنَّه يطيلُ الحصارَ ، وتعلمُ أنّي أخَذْتُ حلبَ خاليةً من الخزائن ، والجند فيطالبونني وليس لي من المال ما يكفيني لمصابرته . ولا أدري عاقبةَ هَذا الأمر إلى ما ينتهي » .

١٥ فأحسَّ طمان عند ذلك بما قد حصل في نفسه ، فقال له : «أنا اذكر لك ما عندي ، على شريطة الكتمان والاحتياط بالمواثيق والأيمَان ، على أن لا يطَّلع أحدٌ عَلى ما يدورُ بيننا ، فإنَّ هؤلاء الأمرآء إنْ اطَّلعوا على شيء مِمَّا نحن فيه أفسدوه ، وانعكسَ الغَرض » .

تسليم حلب

فتحالفا على كِتمان ذلك ، فقال له طمان : « أرى من ٢٠ الرأي في حلب أن تسلِّمها إلى المَلك النَّاصر ، بجاهها ، وحرمتها ، قبل أن تنتهكَ حرمتُها ، ويضعفَ أمرُها ، وتَفنى الأموالُ ،

(١) في مفرج الكروب : «الأمير حسام الدين طمان الياروقي» .

وتضجرُ الرجالُ ، ويستغلّ بلدَها فيتقوّى هو وعسكرُه به ، ونحنُ لا نزدادُ إلّا ضعفًا . والآن فنحن عندنا قوةٌ ، ونـأخذُ منه ما نريدُ من الأموال والبلاد . ونستريحُ من الأجناد وإلحاحهم في الطّلب . ثمّ قد أصبح مَلِكًا عظيمًا ، وهو صاحب مصر ، وأكثرُ الشّام ، وملوكُ الشّرق قد أطاعوه ومعظمُ الجَزيرة في يده »

فقال له : « واللهِ هذا الّذي قلتَه كلّه رأيي ، وهو الذي وقع لي ، فاخرجْ إليه ، وتحدَّثْ معه على أن يعطيَني : الخابورَ ، وسنجارَ ؛ وأيَّ ‖ شيء قدرتَ على أن تزدادَه فافعلْ ، واطلب الرَّقّة لنفسك » . [٢٠٣ ظ]

ثم إنَّ طُمان كتمَ ذلك الأمرَ ، وباكرَ القتالَ ، وأظهرَ أنَّ بداره واصطبله « بالحاضر » خشبًا عظيمًا ، وأنه يريد نقضَها ، كيلا يحرقَها العسكر ، فكان يبيتُ كلَّ ليلة في داره ، خارجَ المدينة . ويجتمع بالسّلطان الملكِ النّاصرِ ، خاليًا ، ويرتّبُ الأمورَ معه ، ويجيءُ إلى عمادِ الدّين ويقرّرُ الحالَ معه ، وينزلُ ، ويصعدُ إلى القلعة من « بُرْجِ المِنْشار »[١] – وكان عند باب الجبـل[٢] الآن متّصلًا بالمنشار – إلى أن قرَّر مع المَلكِ النّاصر : أنْ يأخذَ حلبَ وعملَها ، ولا يأخذَ معها شيئًا من أموالها ، وذَخائرِها ، وجميعَ ما فيها من الآلات والسّلاح ، وأن يُعطيَ عمادَ الدّين عوضًا عنها : سنجارَ ، والخابورَ ، ونَصيبين ، وسروج ، وأن يكون لِطُمان الرَّقّة ؛ ويكون مع عماد الدّين .

---

(١) برج المنشار : لم يذكر هذا البرج في كتب الذين رسموا القلعة ووصفوها من فرنجة وعرب ، ولم نقع على ذكر للمنشار ، على الرغم من أن ابن العديم يحدّد موقعه بالقرب من باب الجبل ، شرقي القلعة .

(٢) باب الجبل : جاء في الدر المنتخب ذكره بالصفحة ٥١ قال : « وفتح في سور القلعة باباً يسمى الجبل ، شرقي باب القلعة » .

وشَرَطَ عليه أن تكونَ الخَطابة والقَضاءُ للحنفيّة[١] بحلب، في بني العَديم، على ما هي عليه، كما كان في دولة المَلك الصّالح، وأن لا ينقل إلى الشافعيّة.

هذا كلُّه يتقرّرُ؛ والقتالُ في كلّ يوم بَيْنَ العسكريْن على حاله. ٥ ولَيْسَ عِنْد الطائفتيْن علمٌ بما يجري. ويخرجُ من الحلبيّين في كلّ يوم عشرة آلاف مقاتل أو أكثر، يقاتلون أشدّ قتال.

دخولُ النّاصِرِ حَلَب

خروج عماد الدين

ولم يَعلمْ أحدٌ من الأُمراء ولا مِنْ أهلِ البلد، حتّى صَعدتْ أعلامُ «الملك النّاصر» على القلعة، بعد أن تَوثّق كلُّ ١٠ واحدٍ من المَلِكَيْن مِنْ صاحبِه بالأيْمان. فَأُسْقِطَ في أيدي أهلِ حلب والأمراء من «الياروقيّة»، وغيرهم. وخاف «الياروقيّة» على أخبارهم، والحلبيّون على أنفسِهم، لِمَا تكرّر مِنْهم من قِتالِ «الملكِ النّاصر»، مرّةً || بعد أخرى، في أيّام الملك الصّالح. [٢٠٤ و]

وصرّحَ العوامُّ بسبّه، وحَمَلَ رجلٌ من الحلبيّين[٢] يقال له ١٥ «سيف بن المؤذن» إجانة الغسّال. وصارَ بها إلى تحت الطيّارة[٣]

---

(١) انظر «مقدّمتنا» في أسرة ابن العديم، ومناصب القضاء التي تولّاها أجداده وأقاربه. وذلك في صدر الجزء الأول من زبدة الحلب الذي حققناه.

(٢) في مفرج الكروب ٢/١٤٢: «حتى أن بعض عامة حلب أحضر إجانة وفيها ماء وناده: أنت لا تصلح للملك بل تصلح أن تغسل الثياب» – والاجانة: المركن الذي يغسل فيه الثياب.

(٣) الطيّارة: باب في مكان مرتفع عادة، وغالباً يكون في أعمدة محيطة به، كأنه قلعة مرتفعة على صخرة – انظر دوزي، تكملة معاجم العرب ٢/٨٠.

بالقلعة ، وعمادُ الدّين جالسٌ بها يشير إليه أن يغسلَ فيها كالمخانيث ، ونادى إليه : «يا عمادَ الدّين ، نحنُ كنَّا نقاتلُ بلا جَامِكِيّة ولا جرَاية ، فما حَمَلك على أنْ فَعَلْتَ ما فعلتَ ؟ »

وقيل : إنَّ بعضهم رماه بالنشّاب ، فوقَع في وسط الطيَّارة ، وعمل عوامّ حلب أشعارًا عاميّة[1] ، كانوا يغنّون بها ، ويدقّون على طبيلاتهم بها ، منها :

أحباب قلبي لا تلُوموني   هٰذا «عمادُ الدّين» مجنون
قَايَض بسنجار لقلعة حلب   وزادَه المولى نصيبين

ودقَّ آخر على طبله ، وقال مُشيرًا إلى «عِمَادِ الدّين» :

وبعت «بسنجار» قلعة حلب   عدمتك من بايع مُشتري
خريتَ على حَلَبٍ خِرْيَةً   نَسَخْتَ بها خريةَ «الأشْعَري»[2]

وصَعد إليه «صفيُّ الدِّين» — رئيسُ البلد — ووبّخه على ما فعل ، وهو في قلعة حلب لم يخرج منها بعد ، فقال له عمادُ الدّين : فما فات ، فاستهزأ به .

وأنفذَ عسكرُ حلب وأهلُها[3] ، إلى السُّلطان الملك النَّاصر :

(١) ذكرنا في مقدمة طبعتنا لزبدة الحلب بالجزء الأول ، أن المؤرخ ابن العديم كان أديباً مشاركاً ، وأوردنا من شعره ما وسعنا ، وهنا يحسن أن نسجّل لابن العديم يده في رواية الشعر العاميّ بحلب ، وقد نقله عن أبيه نقلاً أميناً ، ونحن نروي الشعر العاميّ كما جاءنا ، فهو يشبه عامية الحلبيّين لأيامنا ويقارب زجلهم .

(٢) لعلّه يريد أبا موسى الأشعري الذي دخل في التحكيم ووقف لعمرو بن العاص ، وكانت منه وقفة التصديق في الخدعة ، توفي سنة ٤٤ هـ وهو صحابي جليل — وهذان البيتـان يبدءان القسم الذي نقابله في نسخة لننغراد — كما قلنا في المقدمة — بالورقة ٨٠ و ، وقد وقع خرم خمس كراسات .

(٣) في الروضتين : « فأنفذوا عنه عز الدين جرديك وزين الدين بلك فبقوا عنده إلى الليل ، واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد » .

عزَّ الدّين جورديك ، وزينَ الدّين بالك ، فاستحلفوه للعسكر ولأهْل البَلد ، في سابع عشر صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وخرجَت العساكرُ[١] ومقدّمو حلب إليه إلى «الميدان الأخضر»[٢] ، وخلَعَ عليهم ، وطيَّب قلوبَهم .

٥ ولما استقرَّ ‖ أمرُ الصُّلح ، حضرَ الملكُ النَّاصرُ صلاحُ الدّين [٢٠٤ ظ] عند أخيه تاج الملوك ، «بالخناقية» يَعُودُه[٣] وقال له : «هٰذه حلب ، قد أخذناها ، وهي لك» فقال[٤] : «لو كانَ وأنا حيٌّ ، ووالله ، لقد أخذتَها غاليةً حيثُ تفقدُ مثلي» . فبكى الملكُ النَّاصرُ والحاضرون .

وأقام «عمادُ الدّين» بالقلعة ، يقضي أشغاله ، وينقلُ أقمشتَه ، ١٠ وخزائنَه ، والسلطانُ الملكُ النَّاصرُ مقيمٌ «بالميدان الأخضر» ، إلى يوم الخميس ثالث وعشرين من صفر . فَنزل «عمادُ الدّين» من القلعة ورتَّب فيها «طُمان» مقيمًا بها ، إلى أن يتسلَّم نوابُ «عِماد الدّين» ما اعتاضَ به عن حلب ، واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب ، حتى باع الأغلاقَ والخوابيَ ، واشترى الملكُ النَّاصرُ منها شيئًا ١٥ كثيرًا .

ونزلَ عمادُ الدّين ، في ذلك اليوم إلى السُّلطان الملك النَّاصرِ وعمل له السُّلطان وليمةً[٥] واحتفل وقدَّم «لعماد الدّين» أشياء فاخرةً من الخَيل والعُدَد ، والمَتاع الفاخر .

(١) في الروضتين : «وخرجت العساكر الى خدمته إلى الميدان الأخضر» .
(٢) الميدان الأخضر : انظر زبدة الحلب بتحقيقنا ١٣٦/٢ .
(٣) في ابن الأثير ١٦٣/٩ : «حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده» — والخناقية : من متنزهات حلب .
(٤) في ابن الأثير : «فقال ذلك لو كان وأنا حيّ» .
(٥) في ابن الأثير : «وقد عمل له دعوة احتفل فيها» .

موت بوري

وهم في ذلك إذ جاءه بعضُ أصحابه وأسَرَّ اليه بموت أخيه «تاج الملوك» ، فلم يُظْهِر جَزَعًا ولا هَلَعًا ، وكتم ذلك عن عماد الدّين ، إلى أن انقضى المجلسُ ، وأمرهم بتجهيزه[1] .

فلما انقضي أمرُ الدَّعوة ، وعلِم عمادُ الدّين بعد ذلك عزَّاه عن أخيه ، وسار السُّلطانُ الملكُ النَّاصرُ معه مشيّعًا في ذلك اليوم ، فسار حتى نزل «مرج قراحصار» فنزل به ، والسُّلطان في خيمته إلى أن وَصَل «عمادَ الدّين» رسلُ أصحابه يُخبرونه بأنَّهم تسلموا «سنجار» ، والمواضعَ التي تقرَّرت له معها ، فرُفِعَت أعلامُ الملك النَّاصر ، عند [٢٠٥ و] ‖ ذلك على القلعة . وصعد إليها في يوم الاثنين السَّابع والعشرين ، من صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

تسلم حارم

وامتنع[2] سرخك ، والي «حارم» ، مِنْ تسليمها إلى السُّلطان الملك النَّاصر ، فبذلَ له ما يجب من الإقطاع[3] ، فاشتطَّ في الطَّلب . وراسلَ الفرنجَ ، ليستنجدَ بهم ، فسمع بعضُ الأجناد ، بقلعة حارم ، ذلكَ ، فخافوا أن يسلّمها إلى الفرنج ، فوثبوا عليه ، وحَبسوه ، وأرسلوا إلى السُّلطان ، يُعْلِمُونَه بذلك ، ويطلبون منه الأمانَ والإنعامَ ، فأجابهم إلى ذلك وتسلَّمها .

(١) جاء مثل ذلك موجزًا في ابن الأثير ، ويعلّق هناك : «وكان هذا من الصبر الجميل» .

(٢) في ابن الأثير ١٦٣/٩ : «لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم ، وهي من أعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه سرخك، وولاّه عليها الملك الصالح عماد الدين» — انظر مفرج الكروب ١٤٦/٢ .

(٣) في ابن الأثير : «ووعده الاحسان فاشتط في الطلب ؛ وتردّدت الرسل بينهم فراسل الفرنج ليحتمي بهم ، فسمعَ من معه من الأجناد» — وهكذا نلاحظ تقارب المؤرخين في التعبير عن الحادث ، فلعلّ ابن العديم أخذ عنه — انظر مفرج الكروب ١٤٦/٢ .

وأقرَّ عين تاب(١) بيد صاحبها ، وسلَّم «تلَّ خالد» إلى «بدر الدّين دلدرم»(٢) صاحبِ «تل باشر» ، وكان من كبار الياروقية . وأقطع «عَزازَ» الأمير(٣) علَم الدين سليمان ابن جندر . وولّى الملكُ النّاصرُ قلعةَ حلب(٤) سيف الدّين يازكج الأسدي . ووَلّى

٥ شِحْنَكية حَلب حسامَ الدّين تميرك بن يونس ، وولّى ديوانَ حلب ناصحَ الدّين ابن العَميد الدمشقي .وأبقى الرئيسَ «صفيَّ الدّين طارق ابن أبي غانم بن الطّريرة» ، في مَنْصِبه على حَاله ، وزاد إقطاعَه .

مذهب الشافعية

وكان الفقيه «عيسى» كثير التعصُّب ، فما زالَ به ، حتَّى نقلَ الخطابةَ عنِ الحَنَفيّة إلى الشّافعية ،

١٠ وعُزِل عنها عمّي «أبو المعالي» . ووليها «أبو البركات سعيد بن هاشم» . وفعل في القضاء كذلك ، فسيَّر إلى القاضي محيي الدّين محمد بن زكيّ الدّين عليّ(٥) إلى دمشق ، بسفارة «القاضي الفاضل» ، فأُحْضِر إلى حلب وولّى قضاءها ، وعُزل «والدي» عن القضاء ، وامتدحه(٦) مُحيي الدّين بن الزَّكيّ ، بقصيدة بائيّة ، قال فيها :

(١) في ابن الأثير : «فان صلاح الدين أقرّ عينتاب بيد صاحبها» .
(٢) في ابن الأثير : «وأقطع تلّ خالد لأمير يقال له داروم الياروقي وهو صاحب تلّ باشر» — في مفرج الكروب : «الأمير بدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق» .
(٣) في ابن الأثير : «وأما قلعة عزاز فان عماد الدين اسماعيل كان قد خربها ، فأقطعها صلاح الدين لأمير يقال له سليمان بن جندر فعمرها» — وفي مفرج الكروب : «سليمان بن جندر» .
(٤) في ابن الأثير ١٦٤/٩ : «لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي ، وهو صبيّ ، وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج وكان أكبر الأمراء الأسديّة» — في مفرج الكروب ١٤٧/٢ : «سيف الدين يازكوج ... حسام الدين بميرك الخليفتي ... ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقي» .
(٥) في مفرج الكروب ١٤٧/٢ : «وولى السلطان القضاء بحلب لمحيي الدين بن زكي الدين» .
(٦) في ابن الأثير ١٦٢/٩ : «ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها : وفتحكم ...»

[٢٠٥ ظ] ‖ وفتحكم «حَلَبًا» بالسَّيْفِ في صَفَرٍ   مُبَشِّرٌ بِفُتُوح «القُدْس» فيرَجَب

فاتّفق مِنْ[1] أحسن الإتفاقات ، وأعجبها ، فتحُ القدس في شهر رجب من سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة .

وأقام محيي الدّين في القَضاء بحلب مدّة ، ثم استناب القاضيَ زينَ الدّين أبا البيان نبأ بن البانياسي[2] في قضاء حلب ، وطار إلى بلَدِه دمشق . ٥

الظاهر غازي

ثم إنَّ السُّلطانَ «الملك الناصرَ» أقام بحلب ، ورحل منها في الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وجعل فيها ولدَه الملك «الظّاهرَ غازي» – وكان صبيًا – وجعل تدبيرَ أمره إلى سيف الدّين يازكج[3] . ١٠

وسار إلى دمشق ، ثمَّ خرج إلى الغَزاة[4] في جُمادى الاخرة ، وسار إلى «بَيسان»[5] ، وقد هَرَبَ أهلُها ، فخرَّبها ، ونهَبَها ؛ وخرَّب

---

(١) في ابن الأثير ١٦٢/٩ : «فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة» .

(٢) في الأصل عندنا بغير نقط ، ولكننا نظرنا في الروضتين وفي مفرّج الكروب فأصلحناها ، وقد جاءت في مفرج الكروب ١٤٧/٢ : «واستناب فيها زين الدين أبا البيان نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي» .

(٣) قبل سطور ورد ذكر الرجل ، فلعل ابن العديم نقل عن مصدرين مختلفين متتابعين .

(٤) في ابن الأثير ١٦٤/٩ : «وسار إلى دمشق وتجهّز للغزو ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر ، وسار إلى بلد الفرنج ، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة» .

(٥) في ابن الأثير : «فقصد بيسان فأحرقها وخربها وأغار على ما هناك» – في مفرج الكروب ١٤٨/٢ : «ثم سار السلطان حتى أتى القصير ، فبات به وأصبح على المخاض ، وعبر ، وسار حتى أتى بيسان» .

حِصْنَها . ثم سار إلى « عفر بلا »[١] ، فخرَّبها ، وجرَّد قطعةً من العسكر ، فخربوا « النَّاصرة »[٢] و « الفولة »[٣] ، وما حولهما من الضِّياع .

*‎**

وقعات مع الفرنج

وجاء الفرنجُ فنزلوا «عَيْنَ الجالوت »[٤] ، ودار المُسلمون بهم ، وبثُّوا السَّرايا في ديارهم ، للغارة والنَّهب ، ووقع جورديك ، وجاولي الأسدي ، وجماعة من النُّورية على عسكر ٥ « الكرك »[٥] و « الشُّوبك »[٦] ، سائرين في نَجدة الفرنج ، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة ، وأسَرُوا مائةَ نَفَرٍ ، وعادوا .

وجَرَى للمسلمين مع الفرنج وقعاتٌ ، ولم يَتَجاسَروا على الخُروج للمصاف[٧] ، وعاد السلطان « إلى الطُّور »[٨] في سابع عشر جُمادى ١٠ الآخرة . فنَزَل تحت «الجبل »[٩] ، مترقبًا رحيلَهم ، ليجد فرصة ،

---

(١) في الأصل : « عفرتلا » — وفي الروضتين : «كفربلا» — وفي معجم البلدان ٦٨٨/٣ : « عَفَرْبَلا » — بلدة بغور الأردن ، قرب بيسان وطبرية .

(٢) الناصرة : قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً ، فيها كان مولد السيد المسيح — انظر الأعلاق ، قسم فلسطين ٢٨٤ ، ومعجم البلدان ٧٢٩/٤ .

(٣) الفولة : بلدة بفلسطين من أجناد الشام — انظر مراصد الاطلاع ١٠٤٧/٣ .

(٤) في مفرج الكروب ١٤٩/٢ : « ولم يزالوا سائرين حتى أتوا عين جالوت » — وعين جالوت : بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس .

(٥) الكرك : قلعة في نواحي البلقاء ، وهي من الأردن اليوم — انظر الأعلاق ، قسم فلسطين ، في الكلام عنها والتعليق على اسمها ص ٦٩ .

(٦) الشُوبك : قلعة حصينة كذلك بين عمان وايلة قرب الكرك — انظر الأعلاق قسم فلسطين ، في الكلام عنها والتعليق على موقعها ص ٨٠ .

(٧) في مفرج الكروب : « فانتزح السلطان عنهم ليرحلوا ، فيضرب معهم المصاف ، فرحلوا نحو الطور سابع عشر جُمادى الآخرة » .

(٨) الطُور : قيل هو الجبل المشرف على نابلس ، يحجبه السامرة ، وقبل بالقرب من مدين — انظر مراصد الاطلاع ٨٩٦/٢ تجد فيه مواقع الطور .

(٩) في الأصل عندنا : « تحت الجبل » — وفي مفرج الكروب : «تحت الخيل» — في ابن الأثير : « قد استندوا الى جبل هناك » .

[٢٠٦ و] فأصبحوا ، ورحلوا راجعين على أعقابهم . ورحل نحوهم[١] ، ‖ وناوشهم العسكرُ الاسلاميُّ ، فلم يخرجوا إليهم ، والمسلمون حولهم ، حتى نزلوا «الفولة» راجعين . وفرغت أزْوَادُ المُسلمين . فعادوا إلى دمشق ، ودخل السُّلطان دمشق ، في رابع وعشرين من جُمادى الآخرة .

غزو الكرك ثم عزم على غزو «الكرك» ، فخرج إليها في رجب ، وكتب إلى أخيه «الملكِ العادل»[٢] ، وأمره أن يلتقيه إلى الكرَك ، وسار السُّلطان إلى الكرك[٣] ، وحاصرها ، ونَهبَ أعمالها ، وهجم رَبضها ، في رابع شعبان . وهدم سورَها بالمنجنيقات ، وأعجزَه طَمُّ خندقها . ووصلت الفرنج لنجدتها فلما اجتمعوا «بالجليل»[٤] ، رحلَ عنها ، ونزل بازائها .

تسليم حلب للعادل

خروج الظاهر ووصل أخوه «الملك العادل» ، من مصر ، وعقد لابن أخيه «تقيّ الدّين عمر» ، على ولايتها . فسار إليها في نصف شعبان .

(١) في مفرج الكروب : «فرحل نحوهم ، وجرى رمي النشاب واستنهاضهم للامور العظيمة ، فلم يخرجوا» — وفي ابن الأثير ١٦٤/٩ : «وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الاسلام ترميهم بالسّهام ، وتناوشهم القتال ، فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام ...»

(٢) في ابن الأثير ١٦٤/٩ : «وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب ، وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر ، إلى الكرك» — أنظر مفرج الكروب ١٥٢/٢ .

(٣) في ابن الأثير : «فوصل صلاح الدين إلى الكرك في رجب ... وصعد معه المسلمون إلى ربضه وملكه ، وحصر الحصن من الربض ... ونصب عليه سبع منجنيقات» — أنظر تتمة الخبر في ابن الأثير ١٦٦/٩ .

(٤) الجليل : جبل الجليل في ساحل الشام ممتد إلى قرب مصر ، وقيل فيه آراء مختلفة — انظر مراصد الاطلاع ٣٤٤/١ .

وعاد السُّلْطَان الملكُ الناصرُ إلى دمشق ، والملكُ العادل[١] أخوه معه ، فَعَقد له علَى ولاية حلب ، وسارَ إليها في ثاني شَهر رمضان ، فوصَلها ، وصعد قلعتها[٢] في يوم الجمعة ، ثاني وعشرين من شهر رمضان . وخَرَج السُّلْطان الملكُ الظَّاهر منها ومعه «يازكج» ، فوصل إلى والده في شوّال . ٥

ثمن حلب

ويقال إنَّ «الملك العادلَ» دفع إلى السُّلطان ، لأجل حلب ، ثلاثمائةَ ألف دينار مصريّة ، وقيل دُونَ ذلك . وكان السُّلطان مُحتاجًا إليها[٣] لأجل الغَزاة ، فلذلك سلَّم إليه حلب ، وأخذَها مِنْ ولده .

١٠ ولما دخلها «الملكُ العادلُ»[٤] ، ولَّى بقلعتها صارمَ الدّين بزغش ، وولّى الدّيوان والأقطاع والجند ، واستهداء الأموال ، وشِحْنَكِيَّة البلد : «شجاعَ الدّين محمَّد بن بزغش البُصراوي» ، واستكتب الصَّنيعة ابن النحّال — وكان نصرانيًا — فأسلم على يَدَيْه . وولّى وقوف الجامع

(١) في مفرّج الكروب ١٥٣/٢ : «وسار السُلطان إلى دمشق ، وصحبته أخوه الملك العادل ، فوصل إلى دمشق لست بقين من شعبان من هذه السنة» .

(٢) في مفرّج الكروب : «وصعد قلعتها يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان ، وبها الملك الظاهر غازي ، وسيف الدين باركوج» .

(٣) في الروضتين : «كانت الأموال قد قلت على السلطان وقد حصلت عنده عساكر عظيمة ، فأحضر العادل ، وقال أريد أن تقرضني مائة وخمسين ألف دينار إلى الميسور فقال السمع والطاعة ...»

(٤) في الروضتين : «ودخل العادل حلب في رمضان ، وخلع على المقدمين والأعيان ، وكان قد قدم بين يديه كاتبه المعروف بالصَّنيعة لتسلّم حلب وقلعتها ، من الملك الظاهر ، وولى القلعة صارم الدين بزغش ، وولى الديوان والاقطاعات شجاع الدين ابن البيضاوي صَبّاغ ذقنه ، وولّى الانشاء وما يتعلّق بأمور السر للصنيعة ابن النحّال وكان نصرانياً ثم أسلم على يد العادل ، فولّى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى» — ونلاحظ الاختلاف في تسمية شحنكية البلد «البصراوي» في ابن العديم ، وهو في الروضتين «البيضاوي» .

[٢٠٦ ظ] فخر|| الدّين أحمد بن عبدالله بن القصري ، وأمره بتجديد المساجد الدّاثرة بحلب ، والقيام بمصالحها ، وتوفير أوقافها عليها ، وان لا يتعرَّض بوقف المسجد الجامع ، بل يوفِّر وقفه على مصالحه ، ولا يرفع إلى «الزّردخاناه»[1] إلا ما فضل عن ذلك كلّه . وجدّد في أيامه مساجد متعدّدة كانت قد تهدَّمت . ٥

بين الحنفية والشافعية ووقع في أيامه وقعة بين الحنفيّة والشافعيّة ، وصار بينهم جراح ، فصنع لهم الملك العادل دعوة في الميدان الأخضر[2] ؛ وأصلح بين الفريقيْن ، وخلَع على الأكابر من الفقهاء والمدرّسين . وهدم الحوشَ القبليّ الشّرقيَّ الذي كان للقلعة ، وهو ما بين الجسرين تحت المركز ، ورأى أن يُسَفِّحَه ، فسفَّحه السُّلطان الملك ١٠ الظّاهر بعده ؛ وكتب عليه اسمَه بالسّواد إلى أن غاب في أيام ابنه الملك العزيز فجُدّد ، وزالت الكتابة ، وبقي بعضُها .

ابن شداد ووصل رسولُ الخليفة شيخُ الشُّيوخ «صدرُ الدّين عبدالرّحيم ابن اسماعيل[3]» ، إلى السّلطان «الملك النّاصر» ، في الاصلاح بينه وبين عزّ الدّين – صاحب الموصل – وورد معه من ١٥ الموصل[4] القاضي مُحيي الدّين أبو حامد ابن الشّهرزوري ، الّذي

(١) الزردخاناه : هي دار السلاح ، وهي من الفارسية ، وقيل كذلك أنها السجن الخاص بتوقيف كبار الشخصيات .

(٢) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب لابن الشحنة ، ٥٠ : «وبنى فيها نور الدين بن عماد الدين أبنية كثيرة ، وعمل بها ميداناً ، وخضّره بالحشيش فسمي الميدان الأخضر» .

(٣) في ابن الأثير ١٦٧/٩ ، سنة ٥٨٠ ه : «في هذه السنة توفي شيخ الشيوخ عبد الرحمن ابن شيخ الشيوخ اسماعيل ابن شيخ الشيوخ أبي سعيد أحمد ، في شعبان وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولاً إلى صلاح الدين معه شهاب الدين بشير الخادم في معنى الصلح بينه وبين عز الدين صاحب» .

(٤) في مفرج الكروب ١٥٥/٢ : «وأرسل عز الدين مسعود بن مودود زنكي إلى الامام الناصر لدين الله يسأل معه انفاذ» – انظر تتمة تفصيل الخبر في هذا الكتاب .

كان قاضي حلب ثم تولّى قضآء الموصل ، القاضي بهاء الدين أبوالمحاسن ابن شدّاد ، الذي صار قاضي عسكر السلطان «الملك الناصر» ، وولي قضاء حلب في أيام ابنه الملك الظّاهر . ولم يتفق الصلح . بينهما(١) .

شيخ الشيوخ

٥ وحضرني حكايةٌ جرت لشيخ الشيوخ مع «مُحيي الدّين» ، في هذه السَّفرة ، وذلك أن شيخ الشيوخ كان قد وصل إلى السُّلطان «الملك النّاصر» ، وهو || محاصر للموصل ، ليصلح [٢٠٧ و] بينه وبين عزّ الدّين ، في المحاصرة الأولى ، فلم يتَّفق الصلح ، واتَّهم أهلُ الموصل شيخَ الشُّيوخ بالميل(٢) مع «الملك النَّاصر» ، فعمل ١٠ محيي الدّين فيه أبياتًا منها :

بُعِثْتَ رَسُولًا أمْ بُعِثْتَ مُحَرِّضًا ... على القَتْلِ تَسْتَجْلِي القتالَ وتَسْتَحْلي ؟

وقال فيها مخاطبًا للإمام النَّاصر :

فلا تَغْتَرِرْ منه بِفَضْلِ تَنَمُّسٍ ... فما هٰكذا كان «الجُنَيْدُ» ولا «الشّبلي»

فبلغت الأبيات شيخَ الشيوخ .

١٥ فلما اجتمعا في هذه السفرة وتباسطا ، قال له شيخُ الشيوخ : «كيف تلك الأبيات التي عملتَها فيّ ؟» فغالطَه عنها ، فأقسم عليه بالله أن يُنْشِدَه إيَّاها ، فذكرها له ، حتى أنشدَه البيتَ الذي ذكرناه أوَّلًا ، فقال : «والله لقد ظلمتَني ، وانني واللهِ ، اجتهدتُ في الاصلاح فما اتَّفق» فأنشده تمامَها ، حتى بلغ إلى قَوله : «فما

(١) في مفرج الكروب ١٥٦/٢ : «ورجعت الرسل من غير ظفر بطائل ، وكان رجوعهم يوم الخميس سابع ذي الحجة من هذه السنة» .
(٢) انظر تفصيل الحوار ، في مفرج الكروب ١٥٦/٢ .

هكذا كان الجنيد ولا الشِّبلي » فقال : «واللهِ لقد صدقتَ ، فما هكذا كان الجنيد ولا الشّبلي ، أدورُ على أبواب الملوكِ من باب هٰذا الى باب هٰذا » .

ثمَّ إنَّ الرّسل ساروا عن غير زُبدة[1] ، وتوجَّه الملكُ العادلُ من حلب في ذي الحجَّة ، وعَيَّد عند أخيه بدمشق ، ثم عاد إلى حلب . ٥

غَـزْو الفـرَنج

غَزاة الكرك

واهتمّ السُّلطان الملكُ النَّاصرُ ، في سنة ثمانين وخمسمائة ، لغزاة « الكرَك » ، فوصل إليه « نُور الدّين بن قرا أرسلان[2] » ، واجتاز بحلب ، فأكرمه « الملك العادل » ، وأطلعه إلى قلعتها في صفر ، ثم رحل معه ‖ الى دمشق ، فخرج السُّلطان ، والتقاه ١٠ [٢٠٧ ظ] على عبر الجسر ، « بالبقاع » . ثم تقدَّم الى دمشق ولحقاتا[3] وتأهب للغـزاة ، وخرج إلى « الكرك » ، واستحضر العساكر المصرية ، فوصل تقيّ الدّين ابن أخيه[4] ، ومعه بيت الملك العادل ، وخزائنه ، فسيرهم إلى حلب .

ونازل الكرك ، وأحدقت العساكر بها ، وهجموا الربض ، وبينه ١٥

(١) ذكرنا عبارة ابن واصل في فشل المحاولات التي قامت للصلح .

(٢) في مفرج الكروب ١٥٧/٢ : « وجاء نور الدين بن قرا ارسلان صاحب الحصن وآمد ، واجتمعت العساكر برأس الماء » .

(٣) لم نستطع قراءة هذه الكلمة ، ولم نقع على مثلها في المصادر .

(٤) في مفرج الكروب ١٥٧/٢ : « فجاءه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر من الديار المصرية ، بالعساكر المصرية ، وصحبته القاضي الفاضل » .

وبين القلعة خندق[١] وهما جميعًا على سطح جبل ، وسدّوا أكثر الخندق ، وقاربوا فتح الحصن ، وكانت للبرنس « أرناط » ، فكاتب مَن[٢] فيها الفرنجَ ، فوصلوا في جموعهم إلى موضع يعرف «بالواله »[٣] ، فسيّر « الملك النَّاصر » الأثقال ، ورحل بعد أن هدم الحصن بالمنجنيقات .

غزاة نابلس

٥ ورحل عنها[٤] في جمادى الآخرة ، وأمر بعضَ العسكر فدخلوا إلى بلاد الفرنج ، فهجموا نابلس ، ونهبوها ، وخربوها ، واستنقذوا منها أسرى من المسلمين ، وفعلوا في « سَبَسْطِيَّة »[٥] و « جينين »[٦] مثل ذلك ، وعادوا ودخلوا دمشق مع السلطان .

***

خلعة الخليفة

ووصل إليه « شيخ الشُّيوخ » بالخلع ، من الخليفة النَّاصر ،[٧] له ولأخيه « الملك العادل » ، ولابن عمّه ١٠

(١) في مفرج الكروب ٢/١٥٧ : « ولم يبق مانع إلاّ الخندق الواسع العميق ، وهو من الأودية الهائلة ... فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الاخشاب وبناء الحيطان المقابلة من الربض إلى الخندق ... فهان طم الخندق بالدبابات التي قدمت» .

(٢) في مفرج الكروب ٢/١٥٨ : « ولما رأى الفرنج الذين بالكرك ما قد دهمهم من السلطان ، وخافوا أن يملكه ، كاتبوا ملوكهم وفرسانهم يستنجدونهم... فسارت الفرنج في حدهم وحديدهم ونزلوا بالواله » .

(٣) في السلوك للمقريزي ١/٨٤ : « وساروا إلى اللجّون ، ونزل الفرنج بالواله » – ولم يعلّق الناشر الاّ بالاشارة إلى الترجمة الفرنسية لنصوص عن الصليبيين ٤/٢٤٨ . ولعلهامن الأماكن الداثرة بالأردن .

(٤) في مفرج الكروب : « فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ» .

(٥) انظر ما يقول مفرج الكروب في وصف الحال – وسبسطية : بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان وبها قبر زكريا ويحيى ، وهي من أعمال نابلس ، كما في معجم البلدان لياقوت .

(٦) جينين : بليدة بين نابلس وبيسان ، وتلفظ اليوم كذلك ، وقد يكتبها بعض المؤرخين « جنين » – انظر معجم البلدان لياقوت .

(٧) في مفرج الكروب ٢/١٦٢ : « ولما وصل السلطان إلى دمشق وجد بها رسل الخليفة الامام الناصر لدين الله ، أمير المؤمنين ، وهما الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن

ناصر الدّين[١] ، فلبسوها ، ثم خلع السّلطان ، بعد أيّام خلعته الواردة من الخليفة على نور الدّين بن قرا أرسلان .

وورد إليه رسول مظفّر الدّين بن زين الدّين ، يخبره أن عسكر « الموصل » ، وعسكر « قزل »[٢] نزلوا على « إربل » ، وأنهم نهبوا وأخربوا ، وأنّه انتصر عليهم ، ويُشير عليه بقصد الموصل ، ويقوّي طمعَه ، وبذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينار ، فعند ذلك هَادن الفرنجَ مدَّة .

[٢٠٨ و] ورحل || من دمشق في ذي القعدة من سنة ثمانين ، فوصل حلب وأقام بها الى أن خرجت السنة .

في حران

وسار منها إلى «حرّان » ، والتقاه مظفر الدين[٣] بالبيرة ، في المحرم سنة إحدى وثمانين ، وعاد معه الى « حرَّان » ، وطالبه بما بذل له من المال[٤] ، فأنكر ذلك فأحضر رسوله العلم بن ماهان ، فقابله على ذلك ، فأنكر ، فقبض عليه ، ووكّل به .

ثم أخذ منه مدينتي حَرَّان والرُّها ، وأقام في الاعتقال الى مستهل شهر ربيع الأول ، ثم أطلقه خوفًا من انحراف الناس عنه ، لأنهم

اسماعيل بن أبي سعيد أحمد وبشير الخادم » — وفي ترجمة الشيخ صدر الدين ، انظر النجوم الزاهرة ٦/٩٧ .

(١) في مفرج الكروب ٢/١٦٣ : « فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعاً جاءت لهم » .

(٢) في مفرج الكروب ٢/١٦٤ : « ووصلت رسل زين الدين إلى السلطان تخبره أن عسكر الموصل وعسكر قزل صاحب العجم نازلوا إربل مع مجاهد الدين قايماز وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نصر عليهم وكسرهم ، فكان ذلك مما حرّك السلطان على التوجّه إلى الموصل لحصارها » .

(٣) في مفرج الكروب ٢/١٦٥ : « ثم وصل حرّان ، وصاحبها مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين عليّ كوجك ، وكان قد التقاه بالبيرة » .

(٤) في المصدر نفسه : « فلما وصل السلطان إلى حران لم يف له بما بذل من المال » .

علموا أنه الذي ملَّكه البلاد الجزرية ، وأعاد عليه «حرَّان» ، ووعده باعادة الرُها ، اذ عاد من سفرته ، فأعادهما عليه[١] .

غزاة الموصل

وسار الملكُ النَّاصر إلى الموصل ، فوصل «بلد»[٢] ، فنزلت اليه والدةُ عزِّ الدّين[٣] ، ومعها ابنة نور الدّين ، وغيرها من نسآء بني أتابك ، يطلبن منه المصالحة ، والموافقة ، فردّهن خائبات ، ظنًا منه أن «عزَّ الدّين» أرسلهنَّ عجزًا عن حفظ الموصل ؛ واعتذر بأعذار[٤] ندم عليها بعد ذلك .

ورحل ، حتَّى صار بينه وبين الموصل مقدار فرسخ[٥] فكان يجري القتال بين العسكرين ، وبذل أهلُ الموصل نفوسهم في القتال لردّة النّساء[٦] ، وندم السّلطان على ردّهن ، وافتتح «تل عفر» ، فأعطاها عمادَ الدّين صاحب سنجار .

---

(١) انظر في كل ما سبق مفرج الكروب ٢/٦٥ .

(٢) بلد : مدينة قديمة فوق الموصل ، على دجلة ، بينهما سبعة فراسخ ، وربما قيل بلط (بالطاء) – انظر في المواقع الأخرى لبلد في مراصد الاطلاع ١/٢١٧ .

(٣) في ابن الأثير ٩/١٦٨ ، لحوادث سنة ٥٨١ هـ : «فلما وصلوا إلى مدينة بلد، سيّر أتابك عز الدين والدته إلى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء» – وانظر تفصيل المقابلة في هذا المصدر ، باكمال قراءة الصفحة المذكورة ، حيث قال له الفقيه عيسى الهكاري ما قال : وحرّضه على ما فعل .

(٤) في ابن الأثير : «فاعتذر بأعذار غير مقبولة ولم يكن ارسالهن عن ضعف ووهن ، انما أرسلهن طلباً لدفع الشرّ بالتي هي أحسن» .

(٥) في ابن الأثير : «فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه» .

(٦) في المصدر نفسه : «وبذل العامة نفوسهم غيظاً وحنقاً لرده النساء ، فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه فندم على رده النساء ندامة الكسعي حيث فاته الذكر وملك البلد» – وابن الأثير كان شاهد عيان لما يرويه ، حيث يقول حرفياً : «وكنت إذ ذاك بالموصل» ولا شك في أن ابن العديم ينقل عنه .

تسلم ميافارقين

وأقام على حصار الموصل شهرين ، ثمَّ رحل عنها ، وجآءه الخبر بموت[١] شاه أرمن ، وكاتبه جماعةٌ من أهل خلاط[٢] ، فترك الموصل طمعًا في خلاط[٣] فاصطلح أهلُ خلاط مـع البهلوان[٤] صاحب « أذربيجان » ، فنزل السُّلطان على « ميّافارقين » ، وكان صاحبها « قطب الدّين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش » ، || وملك بعده حسام الدّين يولق[٥] أرسلان ، وهو طفل ، [٢٠٨ ظ] فطمع في أخذها ، ونازلها ، فتسلَّمها من واليها ، وزَوَّج بعضَ بنيه ببنت الخاتون بنت قرا[٦] أرسلان ، ثم عاد إلى الموصل عند إياسه من خلاط ، فوصل إلى « كفرزمار »[٧] ، في شعبان ، من سنة إحدى وثمانين ، فأقام بها مدَّة ، والرسل تتردَّد بينه وبين عزِّ الدّين .

فمرض السُّلطان بكفرزمار ، فسار عائدًا إلى حرَّان ، واتبعه عزُّ الدّين بالقاضي بهاء الدين ابن شداد ، وبهاءُ الدّين الرّبيب[٨] ،

---

(١) في مفرج الكروب ١٦٨/٢ : « وورد على السلطان الخبر بوفاة شاه أرمن ابن سكمان صاحب أخلاط » – وشاه أرمن هو ناصر الدين سكمان الثاني بن ابرهيم .

(٢) خلاط : قصبة أرمينية الوسطى ، وقد علقنا عليها في زبدة الحلب ٢٤/٢ عن معجم البلدان .

(٣) ويقول ابن الأثير ١٦٨/٩ « حيث ان شاه أرمن لم يخلف ولداً ولا أحداً من أهل بيته يملك بلاده بعده ، وانما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ، ولقبه سيف الدين » – مفرج الكروب ١٦٨/٢ يقول : « ولم يخلف ولداً ذكراً ولا ذا قرابة » .

(٤) في مفرج الكروب : « البهلوان أتابك شمس الدين محمد بن ايلدكز صاحب العجم » .

(٥) في ابن الأثير يكتفي بقوله ١٦٩/٢ : « وملك بعده ابنه وهو طفل » – وفي حاشية مفرج الكروب ١٦٥/٢ ، « حسام الدين يولق أرسلان » .

(٦) الخاتون هي ابنة فخر الدين قرا أرسلان أخت نور الدين الدراج ، وهي زوجة ابن عمها قطب الدين ايلغازي بن ألبي – أنظر مفرج الكروب ١٧٠/٢ حيث يكمل : « وزوّج السلطان ابنه معز الدين اسحق احدى بناتها » – ومعز الدين ولد بمصر سنة ٥٧٠ هـ ، فقد زوجه أبوه وهو في سن الحادية عشرة .

(٧) كفرزمار : بقرب الموصل .

(٨) انظر مفرج الكروب ١٧٢/٢ والحاشية .

رسولين إليه في موافقته على الخطبة والسكّة ، وأن يكون معه عسكر من جهته ، وأن يسلم اليه «شهرزور»[١] ، وأعمالها ، وما وراء «الزّاب» .

مرض الناصر

واشتد مرضُ السُّلطان بحرَّان في شوّال ، وأيسَ منه[٢] ، وأرجف بموته ، ووصل اليه الملكُ العادل من حلب ، ومعه أطبّاؤها ، واستدعى المقدَّمين من الأُمراء من البلاد ، فوصلوا اليه . وعزم «الملكُ العادلُ» على استحلاف الناس لنفسه .

وسار ناصر الدين[٣] صاحب حمص طمعًا في ملك الشّام ، وقيل انه اجتاز بحلب ، ففرَّق على أحداثها مالًا ، وسار إلى حمص ، وجرى من تقيّ الدّين بمصر حركات مَنْ يريد أن يستبدّ بالملك .

شفاء الناصر

١٠ وتماثل السُّلطان[٤] ، وبلغه ذلك كلُّه ، وأُركِب ، فرآه الناس ، وفرحوا ، وابتنى دارًا ظاهر «حرَّان» فجلس فيها حين عوفي ، فسمّيت «دار العافية» . ولما عوفي ردّ على مظفَّر الدّين «الرُّها» ، وأعطاه سنجقًا ، وأحضر رسولي الموصل ، وحلف لهما على ما تقرَّر في يوم عرفة .

١٥ وبلغه موتُ ابنِ عمّه ناصر الدّين[٥] ، صاحبِ حمص ، ورَحَل

(١) في ابن الأثير ١٧٠/٩ : «وكانت القاعدة أن يسلّم اليه عز الدين شهرزور وأعمالها» – وشهرزور : بلدة صغيرة بين الموصل وهمذان ، ومعناها مدينة زور – انظر تقويم البلدان لأبي الفداء ٤١٢

(٢) في ابن الأثير ١٧٠/٩ : «واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته فحلف الناس لأولاده وجعل لكل منهم شيئاً من البلاد معلوماً وجعل أخاه العادل وصياً على الجميع» .

(٣) في المصدر المذكور : «ولما كان مريضاً بحرّان كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الاقطاع حمص والرحبة ، فسار من عنده الى حمص فاجتاز بحلب» .

(٤) في ابن الأثير : «فعوفي وبلغه الخبر على جهته» .

(٥) في مفرج الكروب ١٧٤/٢ : «فلم يمض غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الأضحى من هذه السنة – اعني سنة احدى وثمانين وخمسمائة – وذلك أنه شرب خمرًا وأكثر منه فأصبح ميتاً – وهذا هو نص ابن الأثير تقريباً .

[٢٠٩ و] عن حرّان إلى حلب ، وصعد قلعتها ‖ يوم الأحد ، رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل إلى دمشق ، فلقيه «أسد الدّين شيركوه» ، ابن صاحب حمص ، فأعطاه حمص ، وسار إلى دمشق .

إخراجُ العـادِل مِنْ حلب

٥

تغير الرأي

وسيّر إلى «الملك العادل» ، وطلبه إليه إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدةً ، ليلة السَّبت الرَّابع والعشرين ، من شهر ربيع الأوَّل من سنة اثنتين . فوصل إليه إلى دمشق ، وجرت بينهما أحاديث ومراجعات استقرَّت على أن الملك العادل يطلع إلى مصر ، ومعه الملك العزيز ، ويكون أتابكه ؛ ويسلِّم حلب إلى الملك «الظَّاهر غازي» ، وينزل الأفضل الى دمشق من مصر ، وينزل تقيّ الدّين أيضًا منها . ١٠

وكان الَّذي حمله على إخراج الملك العادل من حلب أنَّ علم الدين سليمان بن جندر[1] كان بينه وبين الملك النَّاصر صحبة قديمة ، قبل الملك ، ومعاشرة ، وانبساط . وكان الملك العادل وهو بحلب لا يوفيه ما يجب له ، ويُقدّم عليه غيرَه . ١٥

فلما عوفي الملك النَّاصر سايره يومًا «سليمان» ، وجرى حديثُ مرضه ، وكان قد أوصى لكلّ واحد من أولاده بشيء من البلاد ،

(١) في الأصل : «سليمان بن حيدر» — وابن الأثير ١٧٣/٩ : «أمير كبير اسمه سليمان بن جندر ، بينه وبين صلاح الدين صحبة قديمة ... » — وباقي النص كما في ابن العديم تقريباً .

فقال له «سليمان بن جندر» : «بأيّ رأي كنت تظنّ أن وصيَّتك تمضي كأنَّك كنت خارجًا إلى الصيد ، وتعود فلا يخالفونك ، أما تستحيي أن يكون الطَّائر أهدى منك الى المصلحة[1] ؟ » . قال : «وكيف ذلك ؟ » – وهو يضحك – . قال :

٥ **عش الطائر** «اذا أراد الطائر أن يعمل عشًّا لفراخه ، قصد أعاليَ الشَّجرة ، ليحمي فراخَه ، وأنتَ سلَّمت الحصونَ إلى أهلك ، وجعلتَ أولادَك على الأرض .

‖ هذه حلب ، وهي أمّ البلاد[2] بيد أخيك ؛ وحماة بيد تقيّ الدّين ، [٢٠٩ ظ] وحمص بيد ابن أسد الدّين ، وابنُك الأفضل[3] مع تقيّ الدّين

١٠ بمصر يخرجه متى شآء ، وابنك الآخر مع أخيك في خيمته يفعلُ به ما أراد » . فقال له : «صدقتَ ، واكتمْ هذَا الأمر »

(١) هذا النص أخذه مؤلفنا عن ابن الأثير – انظر الكامل ١٧٣/٩ في مقابلة هذه الصفحة كلها ، من الحديث بين صلاح الدين وسليمان بن جندر .

(٢) جملة : «وهي أم البلاد» زادها ابن العديم من عنده ، فليست في ابن الأثير ، وهذا طبيعي من صاحبنا حين يذكر بلده بالتعظيم .

(٣) في ابن الأثير : «وابنك العزيز مع تقي الدين بمصر» – وباقي النص ، في الكامل يشبه تماماً ما جاء عندنا ، وقد روى مثل ذلك ابن واصل في مفرج الكروب .

القسم الثامن والعشرون

ذكر

حلب في أيام الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب

تسليم حلب للظاهر - غزو الفرنج - فتح القدس - فتح البلدان

موت الناصر صلاح الدين

٥٨٢ هـ - ٥٩٠ هـ

تسليم حلب للظاهر

خروج العادل

ثم أخذ حلب من أخيه ، وأعطاها ابنه «الملك الظاهر» ، وأعطى الملك العادل بعد ذلك حرَّان ، والرَّها ، وميافارقين ، ليخرجه من الشام[١] ، ويتوفَّر الشام على أولاده .

٥ فكان ما كان ، وأخرج «تقيّ الدّين» من مصر ، فشقّ عليه ذلك وامتنع من القدوم ، ثم خاف ، فقدم عليه .

وسيّر الملكُ العادلُ «الصّنيعةَ»[٢] لاحضار أهله من حلب ، وسار «الملكُ الظَّاهرُ» – قدَّس الله روحَه – إلى حلب ، وسيّر في خدمته «شجاع الدين عيسى بن بلاشوا»[٣] ، وولَّاه قلعةَ حلب ، وأوصاه

١٠ بتربية الملك الظَّاهر ، وأخيه الملك الزَّاهر ، وحسام الدين بشارة – صاحب بانياس – وولَّاه المدينة ، وجعل الديوان بينهما .

وجعل قرارَ «الملك الظاهر» في السنة ثمانية وأربعين ألف دينار بيضًا ، في كلِّ شهر أربعة آلاف دينار . وكلّ يوم قبًا وكمه[٤] ، وعليق دوابّه من الأهراء ، وخبزه من الأهراء ، واستمرّت هذه الوظيفة ،

١٥ إلى سنة ستّ وثمانين إلى رجب .

---

(١) في ابن الأثير : «ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لأولاده فلم ينفعه ما فعل ، لما أراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ما نذكره» .

(٢) مرّ بنا ذكر الصَّنيعة وكامل اسمه .

(٣) في مفرج الكروب ١٧٩/٢ : «ثم ان السلطان سير ولده الملك الظاهر إلى حلب وفي خدمته حسام الدين بشارة شحنة ، وشجاع الدين عيسى بن بلاشق والياً» .

(٤) لم نقع على مثلها في المصادر ، فانفرد بها ابن العديم ولعلها هنا «قباء وكمّه» .

فورد كتابُ الملك النَّاصر إلى ولده الملكِ الظَّاهر ، يأمره بأن يأمر وينهى ، وأن يقطع الإقطاعات ، وأنَّ البلد بلَدُه . وكان القاضي الزبداني يكتب لــه ، فلم يعجبه ، فانصرف عــلى حالٍ غير محمودة .

اتفاق عجيب

٥ وعلى ذكر «علم الدين سليمان بن جندر» ، تذكرتُ حكايةً مستملحةً عنه ، فأثبتها :

[٢١٠ و] أخبرني ‖ الزكي أحمد بن مسعود الموصلي المقرئ ، قال : كنت أؤم بعلم الدّين سليمان بن جندر ، فاتّفق أنْ خَرَجْتُ معه إلى حارم ، في سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وجلستُ معه تحت شجرة هناك .
١٠ فقال : كنتُ ومجد الدّين أبو بكر بن الدَّاية والملك النَّاصر صلاح الدّين ، تحت هذه الشجرة ، ونور الدّين إذْ ذاك يحاصر حارم ، وهي في أيدي الفرنج . فقال مجدُ الدّين : كنتُ أتمنّى أن نور الدّين يفتح حارم ، ويعطيني إيّاها ، فقال صلاحُ الدّين : أتمنّى على الله مصر . ثم قالا لي : تَمَنَّ أنتَ شيئًا ، فقلتُ : إذ كان مجدُ الدّين صاحبَ
١٥ حارم وصلاحُ الدّين صاحبَ مصر ، ما أضيع بينهما . فقالا : لا بدَّ من أن تتمنَّى شيئًا . فقلتُ : إذا كان ولا بدّ من ذلك فأريد «عمَّ» .

فقدَّر الله أنَّ نورَ الدّين كسر الفرنجَ ، وفتح حارمَ ، وأعطاها مجدَ الدّين ، وأعطاني «عمّ» . فقال صلاحُ الدّين : أخذتُ أنا مصرَ
٢٠ واللهِ ، فانّنا كنَّا ثلاثةً ، وتمنَّى «مجدُ الدّين» حارمَ ، وأخذها . وتمنَّي علمُ الدّين «عمَّ» وأخذَها . وقد بقيتْ أمنيتي . فقدَّرَ اللهُ تعالى : أنْ فَتَحَ أسدُ الدّين مصرَ ، ثمَّ آل الأمرُ إلى أن ملكهــا صلاحُ الدين . وهذا من أغرب الاتفاقات .

زواج الظاهر

وزوَّجَ السُّلطانُ الملكُ النَّاصرُ ولدَه «الملكَ الظَّاهرَ»، في هذهالسَّنة، بابنة أخيه «غازية خاتون» بنت «الملك العادل». ودخل بها يوم الأربعاء سادس وعشرين من شهر رمضان.

غـزو الفـرنج

غزاة الكرك

٥ ثم إنَّ السُّلطانَ عزَم على قَصد «الكرك» مرَّةً أخرى فبرز من دمشق[1]، في النّصف من محرَّم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وسيّر إلى حلب يستدعي عسكرها، ‖ فاعتاق عليه[2]، لاشتغاله بالفرنج بأرض «أنطاكية»، وبلاد «ابن لاون»، وذلك أنه كان قد مات، وأوصى لابن أخيه بالمُلك. [٢١٠ ظ]

١٠ وكان الملكُ المظفَّر تقيُّ الدّين بحماة، فسيّر إليه السّلطان، وأمره بالدّخول[3] إلى بلاد العدوّ، فوصل إلى حلب في سابع عشري محرّم، ونزل في دار «عفيف الدّين بن زريق»، وأقام بها إلى ثالث صفر، وانتقل إلى داري الآن، وكانت إذ ذاك في مُلْك الأمير طمان.

(١) في مفرج الكروب ١٨٦/٢: «وبرز من دمشق مستهلّ المحرّم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة – وهي السنة الغراء التي طهّر الله فيها الأرض المقدسة من نجاسة الشرك بعد أن مكثت مرتهنة في أيدي الكفار نيفاً وتسعين سنة» – في ابن الأثير ١٧٥/٢: «ثم خرج من دمشق أواخر المحرم في عسكرها ...»

(٢) في مفرج الكروب: «وكانت العساكر الحلبية تأخرت بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض أنطاكية وبلاد ابن لاون، وكان قد مات وأوصى لابن أخيه لاون».

(٣) في مفرج الكروب ١٨٧/٢: «يأمره بالدخول إلى بلاد العدوّ واخماد ثائرته، فوصل الملك المظفر الى حلب، ونزل في دار العيفف بن زريق وانتقل إلى دار طمان، وخرج في تاسع صفر من حلب بعسكر حلب إلى حارم، ليعلم العدو أن هذا الجانب غير مهمل».

خراب الشوبك

ثم خرج إلى «حارم» ، وأقام بها الى أن صالحهم ، في العشر الأواخر من شهر ربيع الأوّل ، ثم سار حتى لحق السّلطان ، وأما السّلطان فانه سار إلى رأس الماء[1] ، واجتمعت اليه العساكر الاسلامية من الموصل ، والشّرق ، ومصر ، والشّام ، «بعشترا» ، بعد ان أتته الأخبار أن البرنس «أرناط» يريد الخروج ٥
على الحاجّ ، فأقام قريبًا من «الكرك» مشغلًا خاطره ، ليلزم مكانه الى أن وصل الحاج ، وتقدَّم إلى الكرك[2] ، وبثّ سراياه ، فنهبوا بلدها وبلد «الشوبك» ، وخربوه .

دخول عكا

وأرسل إلى ولده الملكِ الأفضل ، فأخذ قطعةً من العسكر ، فدخل إلى بلد عكا ، فأخربوا ونهبوا ، وخرج إليهم جمع ١٠
من الداوية[3] والاسبتاريّة[4] ، فظفروا بهم ، وقُتل منهم جماعةٌ ، وأسر الباقون ، وقُتل مقدَّم الاسبتار .

وعاد السّلطان الى العسكر ، وعَرَضَ العسكر[5] قلبًا وجناحيْن ، وميمنةً وميسرةً ، وجاليشيّةً وساقةً ، وعرف كلاًّ[6] منهم موضعه ، وسار

(١) في ابن الأثير ١٧٥/٢ : «فسار إلى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية» — انظر السلوك ٩٢/١ : «وأقرّ ابنه الأفضل على رأس الماء» .

(٢) في السلوك ٩٣/١ : «ونزل بصرى ، فأقام لحفظ الحاج حتى قدموا في آخر صفر ، فسار الى الكرك في اثني عشر ألف فارس ونازلها ، وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك ففعل بها مثل ذلك» .

(٣) هم فرسان المعبد ، وهي فئة من المحاربين أنشئت خلال حروب الفرنجة لحماية طريق الحاج المسيحي بين بلدتي القدس ويافا .

(٤) هم جماعة من المحاربة الصليبيين كذلك ، وقد شرحناها في الجزء السابق لابن العديم .

(٥) في ابن الأثير ١٧٦/٩ : «وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس ممن له الاقطاع والجامكية ، سوى المتطوعة ، فعبأ عسكره قلباً وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة» وهكذا يأخذ ابن العديم عن ابن الأثير .

(٦) في ابن الأثير : «وعرف كل منهم موضعه» .

على تعبئة ، فنزل « بالأقحوانة »[١] بالقرب من طبرية .

القمص مع المسلمين

وكان القمص صاحبها[٢] قد انتمى إلى السُّلطان ، لخلفٍ جرى بينه وبين الفرنج . فأرسل الفرنج إليه البطرك والقسوس والرّهبان[٣] ، وتهدّدوه || بفسخ نكاح زوجته ، [٢١١ و] وتحريمه ، فاعتذر[٤] ، وتنصّل ، ورجع عن السُّلطان إليهم . ثم ساروا ٥ كلّهم بجموعهم إلى « صفُّورية »[٥] .

نهب طبرية

فرحل السُّلطان ، يومَ الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر ، وخلَّف طبريةَ ورآء ظهره ، وصعد جبلَها ، وتقدَّم إلى الفرنج ، فلم يخرجوا[٦] من خيمهم ، فنـزل ، وأمر العسكر بالنُّزول ، فلما جَنَّه اللَّيل ، جعل في مقابلة الفرنج مَنْ يمنعهم من ١٠ القتال . ونزل إلى طبريّة جريدةً ، وقاتلها ، وأخذها[٧] في ساعة من نهار ، ونهبوا المدينة وأحرقوها .

فلما سمع الفرنج بذلك ، تقدّموا إلى عساكر المسلمين ، فعاد

(١) في مفرج الكروب ١٨٨/٢ : « فنزل بثغر الاقحوان » — وقد علقنا من قبل في الجزء الماضي على موقع الاقحوانة بالأردن .

(٢) في ابن الأثير ١٧٦/٩ : « وكان القمص قد انتمى الى صلاح الدين كما ذكرنا ، وكتبه متصلة إليه يعده النصرة ويمنيه المعاضدة » .

(٣) في ابن الأثير : « والرهبان وكثيراً من الفرسان ، فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين ، وقالوا له لا شك أسلمت ، والا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج ... »

(٤) انظر رواية ابن الأثير ، فهي لا تختلف كثيراً عما عندنا .

(٥) في السلوك ٩٤/١ : « وسار العادل بعساكر مصر ... وافتتحت عدة حصون حول عكا : وهي الناصرة وقيسارية وحيفا ، وصفورية .. » — وصفورية : من الحصون حول عكا .

(٦) في ابن الأثير ١٧٧/٩ : « فلم ير منهم أحداً ، ولا فارقوا خيامهم » .

(٧) في ابن الأثير : « وأخذ المدينة عنوة في ليلة ، ولجأ من بها إلى القلعة التي لها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها أولادها »

السّلطان إلى عسكره ، والتقى الفريقان ، وجرى بينهما قتال ، وفرّق بينهما اللّيل . وطمع المسلمون فيهم ، وباتوا يحرّض بعضُهم بعضًا[١] .

فلما كان صباح السّبت لخمس بقين من الشهر ، طَلَبَ كلٌّ من الفريقيْن موضعَه ، وعلم المسلمون أنّ «الأردنّ» من ورآئهم ، وبلاد القوم بين أيديهم ، فحملت العساكرُ الاسلاميّةُ من الجوانب ؛ ٥ وحملَ القلبُ ، وصاحوا صيحةً واحدةً ، فهرب القمصُ في أوائل الأمر نحو «صُور» ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، فلم يزل سقيمًا حتى مات في رجب .

نصر المسلمين

وأحاط المسلمون بالباقين من كلّ جانب ، فانهزمت منهم طائفة ، فتبعها المسلمون فلم ينجُ منهم أحد . واعتصمت ١٠ الطائفةُ الأُخرى بتلّ حِطِّين[٢] — وحِطّين : قرية عندها قبرُ شُعَيب عليه السّلام — فضايقهم المسلمون على التلّ ، وأوقدوا النيرانَ حولهم ، فقتلهم العطش . وضاق الأمر بهم حتّى استسلموا للأسر ، فأسر مقدّموهم وهم الملك جفري ، والبرنس أرناط[٣] صاحب ‖ الكرك [٢١١ ظ] وأخو الملك[٤] ، وابن الهنفري[٥] ، وأولاد الستّ ، وصاحب جبيل[٦] ، ١٥ ومقدّم الداويّة ، ومقدّم الاسبتار ، وأمم لا يقع عليها الإحصاء ،

(١) في ابن الأثير ٩/١٧٧ : «فباتوا يحرّض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر» .

(٢) في مفرّج الكروب ٢/١٩٠ العبارة نفسها كما في ابن العديم — وانظر تفصيل المعركة في هذا الكتاب .

(٣) هو رينولد (Reynold de Chatillon) .

(٤) أي أخو الملك جفري وهو (Amalric) .

(٥) هو هنفري بن هنفري (Humphry) .

(٦) في مفرج الكروب ٢/١٩٢ : «وأوك صاحب جبيل ، وهنفري بن هنفري وابن صاحب اسكندرونة ، وصاحب مرقيّة» .

حتى كان الرّجل المسلم يقتاد منهم عشرين فرنجيًا ، في حلقهم حبل .

أسرى الفرنج وأسروا من المصافّ ، ومن بلاد الفرنج أكثر من ثلاثين ألفًا من الفرنج ، ما بين رجل ، وامرأة ، وصبيّ . وقُتل من المقدّمين وغيرهم خلقٌ لا يُحصى . ولم يجر على الفرنج منذ خرجوا إلى السَّاحل[1] مثل هذه الوقعة .

وكان من جملة الغنيمة في يوم المصاف صليب الصَّلبوت[2] ، وهو قطعة خشب مغلَّفة بالذَّهب ، مرصّعة بالجوهر ، يزعمون أنَّ ربَّهم صُلِب عليها ، وضُربت في يديْه المسامير ، أحضروه معهم المصاف تبرّكًا به ، ورفعوه على رمحٍ عالٍ .

قتل أرناط فأمّا مقدّم الداويّة والاسبتار ، فاختار السُّلطانُ قتلهم فقتلوا ، وأما الملك «جفري» ، فإنَّه أكرمه ، وجلس له في دهليز الخيمة ، واستحضره ، وأحضر معه «البرنس أرناط»[3] ، وناول الملك «جفري» شربة من جُلَّابٍ[4] بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشدّ حال من العطش . ثم ناول الملك بعضَها «ابرنس أرناط» ، فقال السّلطان للتّرجمان : «قل للملك : أنتَ الَّذي

(١) في ابن الأثير ٩/١٧٨ : « وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين واربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة » — وبذلك يكون الصليبيّون قبل حطين أقاموا قرابة ٩٢ سنة .

(٢) في مفرج الكروب ٢/١٩١ : « وملك المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمّونه صليب الصلبوت ، فأيقنوا بعده بالبوار» — ومثل ذلك في ابن الأثير ٩/١٧٨ .

(٣) جاء ذكر ذلك في ابن الأثير ٩/١٧٨ : « وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجاً . »

(٤) الجُلّاب والجلّاب : العسل أو السكر عقد بماء الورد . وهو ماء الورد (معرّب) ، وقيل انه الماء ينقع فيه الزبيب .

سقيتَه ، وإلّا ما سقيتُه[١] أنا » . وأراد بذلك عادة العرب أنّ الأسير إذا أكل أو شرب مِمَّن أسره أمِنَ .

وكان السّلطان قد نذر مرّتيْن إنْ أظفره الله به أن يقتله . إحداهُما لما أراد المسيرَ إلى مكّة والمدينة ، وبعثرَةَ قبر النبي – صلّى الله عليه وسلّم –

والمرَّة الأُخرى أنّ السُّلطان كان قد هادنه ، وتحالفا على أمْنِ القوافل المتردّدة من الشّام ‖ الى مصر . فاجتاز به قافلةٌ عظيمة ، [٢١٢ و] غزيرة الأموال ، كثيرة الرّجال ، ومعها جماعة من الأجناد ، فغدر بهم الملعونُ ، واخذَهم وأموالَهم وقال لهم : « قولوا لمحمد يجيء ينصركم »[٢] . فبلغ ذلك السّلطان وسَيَّر إليه ، وهدّده ، ولامه ، وطلب منه ردّها فلم يجب ، فنذر أن يقتله متى ظفر به . ١٠

فالتفت السُّلطانُ إلى « ارناط » ، ووافقه على ما قال ، وقال له : « ها أنا أنتصر لمحمد » . ثم عرض عليه الاسلام ، فلم يفعل . فسلّ السيفَ[٣] ، وضربه به ، فحلّ كتفَه ، وتمَّم عليه مَنْ حَضَر . وأُخذ ورُمي على باب الخيمة . ١٥

فلما رآه الملك على تلك الصُّورة لم يشكَّ في أنّه يُثنّي به ، فاستحضره ، وطَيَّبَ قلبه ، وقال : « لم تَجْر عادةُ الملوك أنّهم يقتلون الملوك . ولكنَّ هذا طغى ، وتجاوز حدَّه فجرى ما جرى »[٤] .

---

(١) انظر ما ورد في مفرج الكروب ١٩٤/٢ .

(٢) في مفرج الكروب ١٩٤/٢ : « وقال : قولوا لمحمدكم يخلّصكم ، فقال له السلطان : ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم » .

(٣) في مفرج الكروب : « فسلّ النمجاة من وسطه » – والنمجاة : خنجر مقوّس يشبه السّيف القصير .

(٤) شبيه بما جاء في مفرج الكروب .

فتح طبرية وعكا

ثم إنَّ السّلطان أصبح يوم الأحد ، الخامس والعشرين ، فنزل على « طبرية » ، وتسلَّم قلعتها بالأمان من صاحبتها[١] ثم رحل منها يوم الثلاثاء إلى « عكّا » ، فنزل عليها يوم الأربعاء سلخ الشّهر . وقاتلها يوم الخميس مستهلّ جُمادى الأولى ، فأخذها[٢] ، واستنقذ منها أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وأخذ جميع ما فيها ، وتفرّق العسكر .

وفتح بعدها قيسارية[٣] ويالس ، وحيفا ، وصفّورية ، والناصرة[٤] ، والشقيف ، والغولة ، فأخذوها ، واستولوا على سكّانها ، وأموالها .

فتح بيروت

ورحل السّلطان من عكّا إلى « تبنين »[٥] ، وقاتلها ، وفتحها يوم الأحد ثامن عشر جُمادى الأولى ، ثم رحل منها الى « صيْدا » فتسلّمها[٦] يوم الأربعاء العشرين منه . ثم سار إلى « بيروت » ، ففتَحها في التاسع والعشرين منه . ثم سلّمت « جبيل » إلى ‖ أصحابه وهو على بيروت . [٢١٢ ظ]

ثم سار إلى « عسقلان » ، ونازلها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة ، وتسلّمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة ، بعد

(١) في مفرج الكروب ١٩٥/٢ : « وراسل القومصية صاحبتها فأجابت إلى التسليم ، وطلبت الأمان لها ولمن معها » .

(٢) فتح عكّا جاء على تفصيل في ابن الأثير ١٧٩/٩ .

(٣) في ابن الأثير : « في مدّة مقام صلاح الدين بعكّا تفرّق عسكره إلى الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، وصفورية ، ومعليا ، والشقيف ، والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها » .

(٤) في الأصل : « الناصرية » ولعل المؤلف أراد « الناصرة » كما في ابن الأثير مما ورد قبل قليل ، وكما وقع في مفرج الكروب ٢٠٢/٢ .

(٥) في ابن الأثير ١٨٠/٩ : « وسير تقيّ الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة » .

(٦) في ابن الأثير : « فلما وصلها صلاح الدّين تسلّمها ساعة وصوله ، وكان ملكه لتسع بقين من جمادى الأولى » .

أن تسلَّم في طريقه مواضع «كالرَّملة» «وينبا» و «الدَّاروم» .
وأقام على عسقلان ، وتسلَّم أصحابه غزة ، وبيت جبرين ، والنَّطرون ،
وبيت لحم ، ومسجد[١] الخليل عليه السَّلام .

فتح القدس

خروج الفرنج

وسار إلى «بيت المقدس» ، فنزل عليه يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين ، ٥
فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيّالة والرجّالة .
وكان عليه من المقاتلة ما يزيد على ستّين ألفاً غير النسآء والصّبيان .
ثم انتقل إلى الجانب الشمالي ، يوم الجمعة العشرين من شهر رجب
ونصب عليه المنجنيقات ، وضايقه بالزَّحف ، والقتـال ، وكثرة ١٠
الرّماة ، حتى أخذ النّقب في السّور ، مما يلي «وادي جهنّم» ، في
قرنة شمالية .

ولمَّا رأوا ذلك وعلموا أن لا ناصر لهم ، وأنَّ جميع البلاد التي
افتتحها السّلطان صار مَنْ بقي من أهلها إلى «القدس» ، خرج
عند ذلك إليه ابن بارزان[٢] ، ملقيًا بيده ، ومتوسطًا لأمر قومه ، ١٥
حتّى استقرّ مع السّلطان خروجُ الفرنج عنها بأموالهم وعيالهم ، وأن

(١) في ابن الأثير ١٨٢/٩ : «ومشهد ابراهيم الخليل عليـه السلام وتبنين ، وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون ، وكلّ ما كان للداوية» — ولم نقع على محل «ينبا» من كتب المسالك ومعاجم البلدان .

(٢) في مفرج الكروب ٢١٣/٢ : «فلما رجع الرسل خائبين محرومين ، أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضر عند السلطان في هذا الأمر وتحريره» وهو «Balain II» في الكتب الفرنجية . وفي المصادر العربية : «بليان الثاني الابليني» .

يؤدّوا عن كلّ رجل منهم عشرة دنانير[١] ، وعن كلّ امرأة خمسة دنانير ، وعن كلّ طفلٍ لم يبلغ الحلم ديناريْن[٢] . ومَنْ عجز عن ذلك استرق ، فبلغ الحاصلُ منْ ذلك عَنْ مَنْ خَرَج منهم مائتين وستّين ألف دينار صوريّة ، واسترقّ بعد ذلك منهم نحو ستّة عشر ألفًا .

٥ وكان السّلطانُ قد رتّب في كلّ باب أميرًا[٣] ‖ أمينًا لأخذ ما [١١٣ و] استقرّ عليهم ، فخانوا ، ولم يؤدّوا الأمانة ، فانه كان فيه ، على التّحقيق ، العدّة التّي ذكرناها[٤] . وأطلق «ابن بارزان» ثمانية عشر ألف رجل من الفقراء ، وَزَنَ عنهم ثلاثين ألف دينار .

وتسلَّم القدس[٥] في يوم الجمعة السابع والعشرين ، من شهر ١٠ رجب ، وأقيمتْ صلاةُ الجمعة فيه ، في الجمعة التّي تلي هذه ، وهي رابع شعبان .

وخطب بالناس[٦] محيي الدّين بنُ زكيّ الدين – وهو يومئذ قاضي حلب – وأزيلت الصّلبان من قبّة الصخرة ، ومحراب داود ، وأزيل

---

(١) في مفرج الكروب ٢١٤/٢ : «فأجاب السلطان إلى بذل الأمان للفرنج ، واشترط أن يزن كلّ رجل عشرة دنانير ، يستوي فيها الغني والفقير» .

(٢) في مفرج الكروب : «فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً نجا ، ومن انقضت الأربعون ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً» – ومثل ذلك تماماً في ابن الأثير ١٨٣/٩ .

(٣) في ابن الأثير : «ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة ، واقتسم الأمناء الأموال ، وتفرقت ايدي سبا» .

(٤) في ابن الأثير : «ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن ، وعم الناس ، فانه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل ...» – انظر مفرج الكروب ففيه نصّ مماثل قريب جداً .

(٥) في مفرج الكروب ٢١٥/٢ : «وسلّمت المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب من هذه السنة – أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة» .

(٦) انظر تفصيل الموقف ونصّ الخطبة في مفرج الكروب ٢١٨/٢–٢٢٧ .

ما كان بالمسجد الأقصى من حوانيت الخمّارين[١] ، وهدمت كنائسهم والمعابد ، وبنيت المحاريبُ والمساجد .

وأقام السّلطان على « القدس » ، ثم رحل عنه ، في الخامس والعشرين من شعبان ، فنزل على صور بعد أن قدم عليه ولده « الملك الظّاهر » ، من حلب في ثامن عشر شهر رمضان ، قبل وصوله إليها . ٥

غزاة صور

وكان نزوله على « صور » في ثاني[٢] عشرين من شهر رمضان ، وضايقها ، وقاتلها . واستدعى أُسطول مصر[٣] ، فكانت منه غرّة في بعض اللّيالي ، وظنّوا أنه ليس في البحر مَن يخافونه ، فما راعهم إلّا ومراكبُ الفرنج منْ « صُور » قد كَبَسَتْهُم ، واخذوا منهم جماعةً ، وقتلوا جماعةً ، فانكسر نشاط السّلطان ، ورحل ١٠ عنها في ثاني ذي القعدة[٤] ، وأعطى العساكر دستورًا ، وساروا إلى بلادهم .

---

(١) وكذلك وصف ابن واصل في مفرج الكروب ما فعل الفرنج بالمسجد الأقصى فارجع اليه ٢/٢١٧ .

(٢) في مفرج الكروب ٢/٢٤٣ : « ونزل على صور يوم الجمعة تاسع شهر رمضان » .

(٣) في المفرج : « واستدعى الاصطول المصري وكان بعكا » .

(٤) في مفرج الكروب ٢/٢٤٦ : « فلم يسع السلطان إلاّ الرحيل ، فأمر بنقل الأثقال ، فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت » .

غـــزو البُـلدان

الوصول الى عكا

وأقام هو بعكا ، الى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وكان مَنْ «بِهُونين»[١] قد أرسلوا الى السُّلطان ، وهو «بصور» ، فأمّنهم ، وسيّر من تسلَّمها . وسار السُّلطان ، فنزل على حصن «كوكب»[٢] في أوائل المحرم من السنة . وكان قد ‖ جعل حولها جماعة يحفظونها من دخول قوة ، فأخذ الفرنج [٢١٣ ظ] غرَّتهم ليلًا[٣] ، وكبسوهم بعَفْربلا[٤] وقتلوا مقدَّمهم «سيف الدّين» أخا «الجاولي» . فسار السلطان ، ونزل عليها بمَن كان قد بقي من خواصّه بعكا ، وكان ولده «الملك الظَّاهر» قد عاد عنه إلى حلب ، وعاد أخوه «الملكُ العادلُ» إلى مصر ، فحصره ، ثم رأى أنه حصنٌ منيعٌ ، فرحل عنه وجعل عليه قايماز النجمي[٥] محاصرًا .

وسار إلى دمشق ، ثم سار من دمشق في النّصف من ربيع الأول إلى حمص ، فنزل على بحيرة «قدس»[٦] ، ووصل اليه «عماد الدّين

(١) انظر الفصل الخاص بهونين ، في كتاب الأعلاق الخطيرة ، قسم فلسطين الذي نشرناه.

(٢) في مفرج الكروب ٢/٢٤٦ : «وكانت كوكب للاسبتارية ، وصفد للداوية» – وفي مفرج الكروب ٢/٢٥٢ : «ونازل كوكب في العشر الأوسط من المحرم» – في ابن الأثير ٩/١٨٨ : «وهما قريبان من حطين» .

(٣) في ابن الأثير ٩/١٨٨ : «وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميرًا يقال له سيف الدين وهو أخو جاولي الأسدي ، وكان شهماً شجاعاً يرجع إلى دين وعبادة ، فأقام عليه حتى آخر شوال وكان أصحابه يحرسونه نوباً مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة ... » إلى آخر ما هنالك من تفصيل .

(٤) عفربلا : شرحناها فيما سبق ، وقلنا انها بلدة بغور الأردن قرب بيسان وطبرية ، وهي في الأصل عندنا من غير نقط ، وتسمى كذلك : كفربلا .

(٥) في ابن الأثير : «ثم رتب على حصن كوكب الأمير قايماز النجميّ»

(٦) بحيرة قدس : على مقربة من حمص ، وهي من عملها .

زنكي »[١] صاحب سنجار ، وتلاحقت به العساكر ، واجتمعت عنده ، فنزل على تلّ قبالة «حصن الأكراد» ، في مستهل ربيع الآخر ، وسيّر إلى الملك الظاهر إلى حلب وإلى «الملك المظفر» ، بأن يجتمعا وينزلا «بتيزين»[٢] قبالة «انطاكية» لحفظ ذلك الجانب ، فسارا حتى نزلا «تيزين» في شهر ربيع الآخر وتواصلت اليه العساكر في هذه المنزلة . ٥

ثم رحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى ، على تعبئة[٣] لقاء العدو ، ودخل إلى بلاد العدو ، وأغار على «صافيتا»[٤] و«العريمة» وغير ذلك من ولاياتهم .

فتح انطرطوس

ووصل إلى «انطرسوس»[٥] في سادس جمادى الأولى فوقف قبالتَها ، ونظر إليها ، وسيَّر مَنْ ردَّ الميمنة ، ١٠ وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر ، من الجانب الآخر ، ونزل في موضعه ، وأحدقت العساكر بها من البحر إلى البحر ، وزحف عليها ، فما استتمَّ نصب الخيم حتى صعد الناس السور[٦] ، وأخذها || بالسيف ، وغنم العسكر جميع ما [٢١٤ و] بها ، وخرب سور البلد . ١٥

(١) في مفرج للكروب ٢/٢٥٥ : «ووصله الخبر بوصول عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في جموعه وجنوده ونزوله على بحيرة قدس من عمل حمص» .

(٢) تيزين : علقنا عليها قبل قليل بالصفحة ٣٦ . — انظر الدر المنتخب لابن الشحنة ٢٢٢ .

(٣) أنظر أخبار هذه التعبية في مفرج الكروب ٢/٢٥٦ .

(٤) صافيتا : قضاء في محافظة اللاذقية ، والبلدة مبنية على أنقاض قديمة—وتذكر معها إلى جانبها «العريمة» دائماً .

(٥) في مفرج الكروب ٢/٢٥٦ : «ورحل يوم الأحد ، فوصل إلى انطرطوس ، فوقف قبالتها ينظر اليها ، وكان عزمه الاجتياز إلى جبلة» — وانطرطوس : هي طرطوس الحالية على الساحل السوري .

(٦) هذا النص عينه ورد في مفرج الكروب من غير اختلاف .

فتح جبلة

وسار إلى حلب ، فوصل اليه ولده «الملك الظَّاهر» في أثناء الطريق ، بالعساكر التي كانت «بتيزين» . ووصل إلى «جَبلة»[١] في ثامن عشر يوم الجمعة ، فما استتمّ نزول العسكر حتى تسلَّم البلد ، سلَّمها اليه قاضيها وأهلها ، وكانوا مسلمين تحت ٥ يد الفرنج ، فعملوا عليها وسلَّموها وبقيت القلعة ممتنعة . وقاتل القلعة ، فسلَّمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر .

غزو اللاذقية

وسار عنها الى «اللَّاذقية» ، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشري جمادى الأولى ، ولها قلعتان ، فقاتلها ، وأخذ البلد ، وغنموا منه غنيمة ، وفرَّق اللَّيل بين الناس . وأصبح ١٠ المسلمون يوم السبت ، واجتهدوا في قتال القلعتين[٢] ، ونقبوا في السور مقدار ستّين ذراعًا . فأيقن الفرنج بالعطب ، فطلبوا الأمان ، يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، وسلموها يوم السبت .

غزو صهيون

ورحل عن اللَّاذقيّة ، يوم الأحد ، فنزل على صهيون ، ونزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشري جمادى الأولى ، ١٥ واستدار العسكر[٣] حولها ، واشتدَّ القتال عليها من جميع الجوانب ، فضربها منجنيقُ ولده «الملك الظاهر» ، حتى هدم قطعةً من سورها تمكِّن الصاعد الصعود منها . وزحف عليها السُّلطان بكرة الجمعة ، ثاني جمادى الآخرة ، فما كان إلَّا ساعةً حتى ارتقى المسلمون على أسوار الربض ، فهجموه ، فانضم أهله إلى القلعة ، فقاتلهم المسلمون ٢٠ فصاحوا الأمان . وسلَّموها على صلح القدس .

(١) في مفرج الكروب ٢٥٨/٢ : «وأصبح السلطان يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى نازلا على جبلة» — وأخبار التسليم مفصَّلة هنا .

(٢) في مفرج الكروب أن لهذه المدينة ثلاث قلاع متلاصقات .

(٣) في مفرج الكروب ٢٦١/٢ : «فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها» .

[٢١٤ ظ] ‖ وأقام السلطان[1] بها حتى تسلم عدّة قلاع ، « كالغيد » و «قلعة الجماهريين » و « حصن بلاطنش ». ثم رحل ونزل على بكاس[2] ؛ وهي قلعة حصينة ، من أعمال حلب على جانب العاصي ، ولها نهر يخرج من تحتها – يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة على شاطئ « العاصي » . ٥

بكاس والشغر

وصعد السلطان جريدة إلى القلعة ، وهي على جبل مطل على العاصي ، فأحدق بها من كل جانب ، وقاتلها قتالاً شديدًا بالمنجنيقات والزحف . وفتحها يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة عنوة ، وأسر من كان بقي فيها ، وغنم جميع ما كان فيها . وكان لها قلعة تسمى « الشّغْر » قريبًا منها يعبر من إحداهما ١٠ الى الأخرى بجسرٍ ، فضربها بالمنجنيقات الى أن طلبوا الأمان ، ثم سلمها أهلها بعد ثلاثة أيام ، يوم الجمعة سادس عشر الشهر .

ثم عاد السلطان الى الثقل ، وسيّر ولده الملك الظّاهر إلى قلعة تسمى « سرمانية » يوم السبت ، فقاتلها قتالاً شديدًا ، وتسلّمها يوم الجمعة[3] ثالث عشري الشّهر المذكور . ١٥

واتفق له هذه الفتوحات المتتابعة كلها في أيام الجمع . وكذلك القدس يوم الجمعة .

---

(١) في مفرج الكروب ٢٦٤/٢ : « ثم تسلم يوم السبت ثالث جمادى الآخرة قلعة العيد ، ويوم الأحد رابع الشهر قلعة الجاهريين ، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلاطنس » – وهذه الحصون تختلف في رسمها عما عندنا في نسخة ابن العديم .

(٢) بكاس : « قلعة حصينة على جانب النهر العاصي المعروف بالأرنليط ، ولها نهر يخرج من تحتها » – كما في مفرج الكروب ٢٦٤/٢ .

(٣) في مفرج الكروب : « ثم تسلّمها يوم الجمعة لسبع بقين من الشهر بعد قطيعة قررها وقبضها – » انظر ابن الأثير ١٩٣/٩ .

حصن برزية

ثم سار السلطان جريدة إلى «حصن برزية»[1] وهو الذي يضرب به المثل في الحصانة، ويحيط به أودية من سائر جوانبه، وعلوها خمسمائة ذراع ونيف وسبعون ذراعًا، فتأمله وقوّى عزمه على حصاره، واستدعى الثقل وبقية العسكر، يوم ٥ السبت رابع عشري جمادى الآخرة. فنزل الثقل تحت الجبل.

وفي بكرة[2] الأحد صعد السّلطان جريدة، مع المقاتلة، والمنجنيقات، وآلات الحصار إلى الجبل، فأحدق بالقلعة، وركب ‖ المنجنيقات عليها فقاتلها ليلًا ونهارًا. ثم قسم العسكر على ثلاثة [٢١٥ و] أقسام؛ يوم الثلاثاء. ورتب كل قسم يقاتل شطرًا من النهار[3]، ١٠ بحيث لا يفتر القتال عليها.

وحضرت نوبةُ السُّلطان، فتسلّمها بنفسه، وركب، وصاح في النّاس، فحملوا حملة الرجل الواحد، وطلعوا إلى الأسوار، وهجموها عنوة، ونهبوا جميع ما فيها، وأسروا من كان فيها. وعاد السلطان إلى الثقل. وأحضر صاحبها ومعه من أهله سبعة عشر نفرًا، فرقّ ١٥ له السّلطان، وأطلقه مع جماعته، وأنفذهم إلى صاحب «انطاكية»، استمالةً له. فانهم كانوا من أهله.

---

(١) في الأصل: «حصن برزويه» ولكن ابن الأثير وابن واصل يقولان انها «حصن برزية» — وهذا الحصن كما يقول ابن الأثير قلعة «تقابل حصن أفامية وتناصفها في أعمالها، وبينها بحيرة تجتمع من ماء العاصي وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره».

(٢) في مفرج الكروب ٢/٢٦٥: «ولما كان بكرة يو م الأحد لخمس بقين من جمادى الآخرة صعد السلطان جريدة».

(٣) يبدو ان ابن واصل ينقل عن ابن شداد في «المحاسن اليوسفية» والنص الكامل هناك هو: «ورتب كل قسم يقاتل شطرًا من النهار، ثم يستريح ويتسلّم القتال الشطر الآخر، بحيث لا يفتر القتال أصلاً».

فتح درب ساك

ثم سار السُّلطان حتى نزل على «درب ساك»[١] ، يوم الجمعة ثامن شهر رجب من السنة ، فقاتلهـا قتالاً شديدًا بالمنجنيقات . وأُخِذ النقب تحت برج منها ، فَوَقَع ، وحماه الفرنج بالرِّجال ، ووقفوا فيه يحمونه عن كلّ من يروم الصعود فيه ، وجعلوا كلّما قتل منهم[٢] واحد أقاموا غيره مقامَه ، عوضًا عن السُّور . ٥

ثم طلبوا الأمان على أن ينزلوا بأنفسهم وثيابهم لا غير ، بعد مراجعتهم[٣] أنطاكية ، وتسلَّمها السُّلطان ، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر .

فتح بغراس

وسار عنها بكرة السبت ، ثالث عشري الشَّهر ، ونزل في مرج «بغراس»[٤] ، وأحدق بعض العسكر «ببغراس» ، ١٠ وأقام يزكا[٥] على باب أنطاكية بحيث لا يشذ عنه مَنْ يخرج منها . وقاتل البلد مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان ، وشرطـوا استئذان أنطاكية . وتسلَّمها في ثاني شعبان من ‖ السنة . [٢١٥ ظ]

وفي ذلك اليوم عاد إلى الخيم ، وراسله أهل «أنطاكية» في طلب الصلح فصالحهم ، لشدّة ضجر العسكر ، وقلـق عماد الدّين ١٥

(١) في بعض المصادر العربية تكتب متصلة : «دربساك» — انظر صبح الأعشى ١٢٢/٤ ، والدر المنتخب ص ٢٢٢ .

(٢) هذه عبارة القاضي بهاء الدين ابن شداد أثبتها صاحب مفرج الكروب ٢٦٨/٢ ، وأخذ بها ابن الأثير .

(٣) في مفرج الكروب : «واستمهلوا ثلاثة أيام ليراجعوا أهل أنطاكية فأمهلوا حتى أخرجوا . وتسلم الحصن يوم الجمعة لثمان بقين من رجب» .

(٤) بغراس : قلعة منيعة ، وحصن حصين بالقرب من أنطاكية — انظر ابن الأثير ١٩٥/٩ .

(٥) في الأصل كلمة مصحفة ، فصححناها عن ابن الأثير وابن واصل — وفي مفرج الكروب ٢٦٨/٢ : «وجعل أكثر العسكر في مقابلة أنطاكية يزكا يغيرون على أعمالها» — ومثل هذه العبارة تماماً في ابن الأثير .

– صاحب سنجار – لطلب العود إلى بلاده . واستقرّ الصُّلح بينه وبين صاحب أنطاكية على أنطاكية لا غير ، دون غيرها من بلاد الفرنج ، على أن يُطلقوا جميع أسرى المسلمين الذين عندهم . وأن يكون ذلك إلى سبعة أشهر[١] ، فإن جاءهم مَن ينصرهم وإلّا سلَّموا البلد إلى السُّلطان .

الناصر في حلب

٥ وطلبه ولده « الملك الظاهر » أن يتوجه معه إلى حلب ، فسار معه إليها ، ودخلها في حادي عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام في ضيافة « الملك الظَّاهر » ، وأنعم « الملك الظاهر » على جماعةٍ كثيرة من عسكره ، فأشفق السُّلطان عليه . وسار من حلب في رابع عشر شعبان ، فوصل دمشق قبل دخول شهر رمضان .

صفد والكرك

١٠ فسار في أوائل شهر رمضان حتى نزل « صفد » ، ونصب عليها المناجيق[٢] ، وداومها بالقتال حتى تسلَّمها بالأمان في رابع عشر شوال . وكان أصحابه الذين جعلهم على حصار « الكرك » لازموا الحصار هذه المدَّة العظيمة ، وصابرهم مَنْ بها من الفرنج ، حتى فنيتْ أزوادُهم وذخائرهم ، وأكلوا دوابَّهم . فراسلوا[٣] ١٥ أخا السُّلطان « الملكَ العادلَ » – وكان قريبًا منهم ، منازلًا بعضَ القلاع – فطلبوا منه الأمان فأمَّنهم ، وتسلَّمها . وتسلَّم أيضًا « الشوبك » ، وغيرها من القلاع[٤] التي تجاورها .

(١) في ابن الأثير ١٩٥/٩ : « واصطلحوا ثمانية أشهر أولها أول تشرين الأول ، وآخرها آخر أيار » .

(٢) في ابن الأثير ١٩٦/٩ : « وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات » .

(٣) في ابن الأثير : « فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك في جمع من العساكر يحصرها » .

(٤) ذكر ابن الأثير ١٩٦/٩ هذه القلاع فقال : « وتسلّم أيضاً ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرموا الوعيرة والسّلع » – وأما مفرج الكروب ٢٧٢/٢ : « كالشوبك وهرمز والوعر » ، وصاحبنا ابن العديم وقف من الحصون موقف المتسائل فقال : « وغيرها من القلاع » – ويختصر ابن العديم ما فصّل في هذه المصادر .

فتح كوكب

ثم سار السّلطان من «صفد» إلى «كوكب»، فنزل على سطح الجبل، وأحدق العسكر بالقلعة، وضايقها بالقتال، حتى تمكّن النّقب من سورها، فطلب أهلُها الأمان || فتسلّمها في النّصف من ذي القعدة. [٢١٦ و]

وسار بعد ذلك بمدّة الى «بيت المقدس» فدخله يوم الجمعة ثامن ذي الحجة[١]، وسار إلى «عسقلان» مودعًا أخاه «الملك العادل» وكان متوجهًا الى مصر، فأخذ من أخيه عسقلان، وأعطاه «الكرك». ٥

وتوجّه لتفقد البلاد السّاحلية – ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة – وهو بعكا. وتوجّه إلى دمشق فدخلها مستهل صفر. ١٠

ثم توجه في الثالث من شهر ربيع الأول[٢]، إلى «مرج فلوس» محاصرًا «لشقيف أرنون»[٣] ورحل من «مرج فلوس» فأتى «مرج عيون» – وهو قريب من شقيف أرنون – في سابع عشر ربيع الأول.

مكر أرناط

وضاق على الفرنج المجال، وقلّت أزوادهم. فنزل «أرناط» صاحب الشقيف إليه – وكان عظيمًا فيهم ذا رأي ودهاء – فأظهر الطاعة والمودة للسّلطان، ووعده بتسليم المكان وقال: ١٥

«أريد أن تمهلني[٤] حتى أخلّص أولادي وأهلي من الفرنج،

(١) انظر مفرج الكروب ٢٧٨/٢.

(٢) في مفرج الكروب ٢٨٢/٢: «ثم خرج السلطان من دمشق يوم الجمعة ثالث ربيع الأول من هذه السنة بعد صلاة الجمعة فنزل بمرج فلوس».

(٣) شقيف أرنون: موضع حصين قريب من بانياس – انظر الأعلاق الخطيرة، قسم فلسطين، بتحقيقنا. – ويرسمه ابن الأثير ١٩٩/٩ «شقيف أرنوم وهو من أمنع الحصون».

(٤) في مفرج الكروب ٢٨٢/٢: «إني أخاف من المركيس أن يعرف ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى فانهم عنده وأريد أن تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم».

وأسلم اليك الحصن ، وتعطيني موضعًا أسكن فيه بدمشق ، وأقطاعًا تقوم بي وبأهلي وتمكني الآن من الاقامة بالشقيف، حتى أخلِّص أولادي » .

فأجابه السلطان إلى ذلك . وجعل يتردّد إلى خدمته .

٥ وكانت الهدنة بين أنطاكية وبينه قد قرب وقتها ، وخاطره[1] مشغول بذلك. وقد سيّر إلى تقي الدين أن يجمع مَنْ يُقارب تلك الناحية من العساكر ، ويكون بازاء « أنطاكية » .

وبلغه أيضًا أن الفرنج قد تجمعوا «بصور » في جموع[2] عظيمة ،وكان الأمر قد استقرّ مع «ارناط » أن يسلِّم اليه «الشقيف » ،

١٠ في جمادى الآخرة ، وهو مقيم « بمَرْج عيون » ينتظر الميعاد ، و «ارناط » ‖ في هذه المدّة يشتري الأقوات من سوق المسلمين ، ويقوي الشقيف ، [٢١٦ ظ] والسّلطان يحسن الظن به ، ولا يسمع فيه قولَ من يُعلمه بغدره ومكره[3] .

فلما بقي من المدّة ثلاثة أيام وحضر عنده « أرناط » قال له في معنى تسليم « الشَّقيف » ، فاعتذر بأولاده وأهله ، وأنَّ «المركيس »

١٥ لم يمكنهم من المجيء إليه ، وطلب التأخير مدّة أخرى .

حبس أرناط

فعلم السّلطان مكره ، فأخذه وحبسه[4] ، فأجاب الى التسليم ، فسيّر مع جماعةٍ مِن العسكر إلى تحت

---

(١) في ابن الأثير ١٩٩/٩ : « وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند صاحب أنطاكية فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه » .

(٢) انظر في ابن الأثير ١٩٩/٩ .

(٣) انظر ما قال ابن واصل عن هذا الموقف في مفرج الكروب ٢٨٣/٢ .

(٤) في ابن الأثير : « فسير صلاح الدين أرناط إلى دمشق وسجنه ، وتقدّم الى الشقيف فحصره » — انظر مفرج الكروب ٢٩٠/٢ .

« الشقيف » ، فأمرهم بالتّسليم ، فامتنعوا ، وطلب قسّيسًا حدّثه بلسانه وعاد بما قال إليهم ، فاشتدّوا في المنع .

فعلم حينئذٍ أنَّ ذلك كان تأكيدًا مع القسّيس ، فأعادوه الى السّلطان ؛ وسيّره إلى « بانياس » ، وتقدّم إلى « الشّقيف » فحصره ، وضيّق عليه ، وجعل عليه مَن يحفظه ، إلى أن سلّمها ، مَن بها بعد ٥
أن عُذِّب صاحبها أشدّ العذاب ، واشترطوا إطلاق صاحبها ، في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين .

وأما بقية الفرنج ، فانَّ ملكهم كان وعده السّلطان أنّه متى سلّم « عسقلان » أطلقه ، فاتفق أنه أطلقه « بانطرسوس » ، حين فتح تلك الناحية ،واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفًا[1] أبدًا ،فنكث ، ١٠
واتفق مع « المركيس » صاحب « صور » وعسكرًا مع جموع الفرنج على باب « صور » . واتّفق بينهم وبين المسلمين حروب وغارات ، كانت النكاية فيها سجالًا بين الفريقيْن ، بحيث تحاجز الفريقان في آخر تلك الأيام ، من جمادى الآخرة من هذه السّنة .

غزو عكا

[٢١٧ و] وسار الفرنج إلى حصار ‖ « عكا » ، فنزلوا عليها في يوم ١٥
الأربعاء ثامن شهر رجب . وسار السُّلطان فنزل عليهم بظاهر « عكا » ، ومنعهم من الإحاطة بسورها ، فكان نازلًا على قطعة منها تلي الشِّمال ، ومعه الباب الشمالي من « عكا » مفتوحًا ، والمسلمون يدخلون اليها ويخرجون ، والفرنج على الجانب الجنوبي ، وقد أغلق في وجوههم الباب المعروف بباب « عين البقر » ، وكان الفرنج يقومون ١٠
بمحاربة المسلمين ، من جانب المدينة ومن جانب العسكر .

(١) في مفرج الكروب ٢/٢٨٤ : « قد اشترط عليه ألا يشهر عليه سيفاً أبدًا ... فنكث لعنه الله ، وجمع الجموع وأتى صور فخيم على بابها » .

معارك شديدة

وجرتْ بينهم وبين الفرنج وقعاتٌ متعدّدة ، من أعظمها وقعة اتفقت يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان ، خرج الفرنج واصطفوا على تعبئة القتال ، والملك في القلب وبين يديه الانجيل[١] ، فوقف المسلمون أيضًا على تعبئة ، وتحرّكت ميسرةُ ٥ الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها الملك المظفَّر[٢] ، فتراجع عنهم ، وأمدَّه السلطان بأطلاب عدّة من القلب ، فخفّ القلب ، وعادت ميسرة الفرنج فطمعت فيه ، فحملوا على القلب[٣] ، فانكسر ، وانكسر معه معظم الميمنة ، وبلغت هزيمتُهم إلى « الأقحوانة »[٤] ، ومنهم مَنْ دخل دمشق .

١٠ ووصل الفرنج إلى خيم السُّلطان ، فقتلوا ذلك اليوم « أبا عليّ الحسين[٥] بن عبد الله بن رَوَاحة » . وكان قد مدح النبيّ صلى الله

---

(١) في مفرج الكروب ٢٩٤/٢ : « وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أطلس مغطّى وأربعة أنفس يمسكون أطرافه » .

(٢) الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين — في مفرج الكروب ٢٩٦/٢ : « فأخرج لهم الملك المظفّر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفّر ، وكان طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم قليلاً اطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً » — وباقي النص عند ابن العديم يشبه ما في مفرج الكروب — وأما الطلب فهو مقدّم الكتيبة ويجمع على أطلاب ، لفظ كردي .

(٣) في ابن الأثير ٢٠٣/٩ : « فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب وأن كثيرًا منهم قد ساروا نحو الميمنة مددًا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد » .

(٤) في الأصل : « الفحوانه » — وصحيحها ما جاء في مفرج الكروب ٢٩٧/٢ : « وأما المنهزمون فانه بلغت هزيمتهم الى الأقحوانة ، قاطع جسر طبرية ومنهم من تم إلى دمشق » — فصوبناها .

(٥) في ابن الأثير ٢٠٣/٩ : « وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبو علي بن رواحة الحمويّ ، وهو من أهل العلم وله شعر حسن وما ورث الشهادة من بعيد . فان جدّه عبدالله بن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله الروم يوم موتة ، وهذا قتله الفرنج يوم عكا » — وفي مفرج الكروب ٣٠٠/٢ : «الشيخ جمال الدين أبو عليّ الحسين ابن الشيخ أبي محمد عبدالله ابن الحسين بن رواحة...

عليه وسلم – ووقف بازآء قبره ، وأنشد قصيدتَه ، وقال : « يا رسول الله إنَّ لكل شاعر جائزة وقرى ، وإني أطلبُ جائزتي الشَّهادة ، فاستجاب اللهُ دعاءه » .

وقُتل ذلك اليوم[1] مكبّس السلطان وطُشت داره[2] ، وثبتتْ ميسرةُ المسلمين ، وصاح «السّلطان» ‖ فيمن بقي من المسلمين : «يال الاسلام[3] » . وعادت ميسرةُ الفرنجُ إلى عسكره ، فتكاثر الناس وراءهم ، وحملوا عليهم ، فانهزموا ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم زهاء سبعة آلاف[4] . ولم يقتل من المسلمين غير مائة وخمسين نفرًا . [٢١٧ ظ]

رحيل السلطان

ثم إنَّ الحرب اتَّصلتْ بينهم ليلًا ونهارًا ، وكثر القتل بينهم ، وأقبل الشّتاءُ ، فلقي المسلمون[5] منه شدّة . وحضروا إلى السّلطان ،وأشاروا عليه بالرّحيل عن «عكا» إلى «الخروبة»[6] ، لينفسح ما بين العسكرين . وكان ذلك للضَّجر من تلك المواقفة ، وملازمة القتال ، حتى أوهم السّلطان [وقالوا له :][7] « إنك قد ضيَّقت

الأنصاري الخزرجي الحمويّ ... » وقد ذكر ابن واصل في المفرج شيئاً من القصيدة التي مدح بها النبي الكريم .

(١) في مفرج الكروب ٣٠٢/٢ : « ومن الشهداء اسماعيل الصّوفي الأرموي المكبّس ، وشيخ من الطشت دارية » .

(٢) الطشت دار : بيت الطشت ، الذي يغسل فيه الأيدي والقماش ، والغلمان الذين يقومون بالخدمة يسمون بذلك – انظر السلوك ٢٩٤/١ .

(٣) في ابن الأثير ٢٠٣/٩ : « قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال » .

(٤) في ابن الأثير : « وكانت عدة القتلى سوى من كان إلى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل » .

(٥) يعلّل ابن الأثير سبب الرحيل بفساد الجوّ للروائح الفاسدة من جيف قتلى الفرنج .

(٦) في ابن الأثير : « فرحلوا إلى الخروبة رابع شهر رمضان » – والخروبة : حصن بالشام مشرف على عكا ، كما في ياقوت .

(٧) جملة ناقصة هنا يختل بدونها سياق الكلام ، فرأينا أن نضيفها بين حاصرتين ليتصل السياق ، فأخذناهــا عن ابن الأثير ، مجاراة له ، وذلك إلى أن يتبيّن وجه الصّواب فلقد رأينا ان ابن العديم ينقل عن أكثر من مؤرخ ، فلعله أثبت هنا رأي مؤرخين في هذا الموضع ، فكرّر فكرة الانتقال إلى الخروبة .

على الفرنج مجال الهَرب ، وحلتَ بينهم وبين صور ، وطرابلس ، ولو أفرجتَ لهم عن الطَّريق لما وَقَفوا بين يديك » . فرحل السّلطان إلى « الخروبة » .

تضايق المسلمين

فأصبح الفرنج وقد انبسطوا على عكا[1] ، وأحاطوا بها من سائر جهاتها ، واتَّصل ما بينهم وبين « صور » ، وجاءتْ مراكبُهم منها ، فحصرتْ « عكَّا » من جانب البحر ، وضعفت قلوب المسلمين بعكا ، وعادوا يقتاتون من الحواصل المدخورة ، بعد أن كان مِن المير المجلوبة .

وتوفَّرَ الفرنج على قتال أهل « عكا » بعد أن كانوا مشغولين بالعسكر ، وشرع الفرنج في إدارة خندق على عساكرهم ، كاستدارتهم بعكا ، وجعلوه شكلًا هلاليًا : طرفاه متّصلان بالبحر ، وأقاموا عليه سورًا مما يليهم ، وشرّفوه بالجنويات والطوارق[2] ، والتراس .

واتصلت الأمداد إليهم من البحر ، بالأقوات والرجال والأسلحة ، حتى كان يُنقل اليهم البقول الرَّطبة ، والخضراوات من جزيرة « قبرس » ‖ فتصبح عندهم في اليوم الثاني.   ١   [٢١٨ و]

الاستنفار للجهاد

وسيّر السّلطان إلى الخليفة ، وإلى ملوك الاسلام ، يستنفر ويستصرخ ، واتَّصلت الأخبار بوصول ملك

(١) هذه عبارة ابن الأثير نفسها . « وانبسطوا في تلك الأرض ... وحصروا عكا، وأحاطوا بها من البحر إلى البحر» .

(٢) في مفرج الكروب ٢٧٩/٢ بالحاشية ، شرح وتعليل طويل لكلمة الطوارق ، يستخلص منها أن الطوارق نوع من الترس يحمله الجندي لحماية نفسه من القتال ، وخاصة الجزء الأسفل من جسمه ، أو أن الطوارق متراس يختفي خلفها الجنود الرماح والصخور. – أما « الجنويات » التي تستخدم لنقل الجرحى أو الموتى أو لأغراض غير هذه ؛ وهي في بعض المصادر مركبات للحرب .

الألمان إلى «القسطنطينية»، في ستمائة ألف رجل، منهم ثلاثمائة ألف مقاتل، وثلاثمائة ألف سوقة، وأتباع وصنّاع.

وحكي أنّه كان في عسكره خمسة وعشرون ألف عجلة تنقل الأسلحة والعلوفات، فأسقط في أيدي المسلمين، واستولى اليأسُ عليهم، وتعلّقت آمالهم أنه ربّما مانعه مَنْ في طريقه من «الأرج»[1] ٥ ومِن قلج أرسلان[2]، فلم يتّفق شيء من ذلك، بل سار، وقطَع البلاد، حتّى وصل إلى <قونية>[3].

هلاك الفرنج

وأرسل الله عليهم وبآءً عظيمًا وحرًّا عظيمًا، ومجاعة أحوجتهم إلى نحر دوابّهم، وذبح البقر الذي يجرّ العجل، فكان يموت في كل يوم ألوف من الرّجال، ويسابقون الموتان ١٠ إلى ما معهم من الدوابّ الحاملة للأثقال، حتّى وصلوا إلى «أنطاكية» ولم يبق منهم إلّا دون العُشر.

وكان في جملة مَنْ مات منهم ملكهم الذي غزا الشام، في سنة أَربع وأَربعين، وحاصر دمشق، مات غريقاً في نهرٍ «بطَرْسُوس» يقال له «الفَاتر»، نزل، وسبح فيه فغرق. وقيل بأنه سبح فيه[4] ١٥ وكان المآء باردًا، فمرض ومات. وأُخذ وسُلِق في خلّ، وجُمعت عظامُه، ليدفن في البيت المقدّس.

(١) في ابن الأثير ٢٠٧/٩ : «فلما وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأرج».
(٢) قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلمش بن سلجق.
(٣) طمس في الأصل أكملناه عن المصادر الأخرى. – أنظر ما ذكر في مفرج الكروب ٣١٨/٢، وابن الأثير ٢٠٧/٩.
(٤) كثرت الروايات في موت هذا الملك، فابن الأثير يقول «فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره» – واما ابن واصل فيقول: «فسبح، فعرض له مرض شديد أداه إلى الموت وأراح الله المسلمين منه» ويذكر مع ذلك روايات أخرى في موته.

وأوصى بالمُلك لابنه مكانه[١]، واتفقت الكلمةُ عليه، فمرض «بالثنيّات»، وأقام بها، وسير «كندأكرا» على عسكره، ووصل إلى «أنطاكية»، فمات ذلك «الكند» بها. وخرج البرنس إلى الملك، واستدعاه الى أنطاكية طمعًا ‖ في أنه يموت ويأخذ ماله. [٢١٨ ظ]

٥ وكان قد فرّق عسكره ثلاث فرق لكثرته، فالفرقة الأُولى: اختارت تحت «بغراس» مع الكند المذكور. فوقع عليه عسكر حلب فأخذ منهم مائتيْ رجل، ووقع أيضًا على جمع عظيم خرجوا للعلوفة، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، وأسروا زهاء خمسمائة نفر.

ولما وصل ملك الألمان الى أنطاكية أخذها من صاحبها، وأودع ١٠ فيها خزائنه، وسار منها يوم الأربعاء خامس وعشرين من شهر رجب، سنة ستّ وثمانين وخمسمائة، متوجهًا إلى عكا، وفشا فيهم الوبآءُ حتّى لم يسلم من كلّ عشرة واحد. ولم يخرجوا من «أنطاكية» حتى ملؤوها قبورًا.

ووصل الملك إلى «طرابلس»[٢]، في نحو ألفي فارس، لو ١٥ صادفهم مائة من المسلمين لأخذوهم، ووصلوا إلى «عكًّا» رجالة ضعفاء، لا ينفعون. ومات ابن ملك الألمان على «عكّا» في ذي الحجة، من سنة ستٍّ.

الحرب البحرية

ووصل إلى المسلمين «بعكا» الأسطول المصري في خمسين شينيًّا غنم في طريقه إليها بُطَسٌ[٣] ومراكب

(١) في ابن الأثير: «وكان معه ولد له فصار ملكاً بعده».

(٢) في ابن الأثير ٢٠٧/٩ «فبلغوا طرابلس، وأقاموا بها أياماً، فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم إلاّ نحو ألف رجل».

(٣) ذكرنا في صفحة سابقة أن البطسة أو البطشة سفينة كبيرة تستخدم للحرب، كما جاء في المعاجم، وهي مأخوذة عن الأسبانية – وأما الشينية فهي السفينة جمعها شون وشواني.

فرنجيه ، أسر رجالها وغنم أموالها . وجرى له مصادمات مع مراكب الفرنج المحاصرة لعكا[١] ، كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فدخلوا إلى عكّا ، وتماسكت بما دخل فيها من الأقوات والسّلاح ، وكان دخولها في يوم الاثنين رابع عشر شعبان ، من سنة ستّ وثمانين .

وفي هذا الشهر ، جهّز الفرنج بُطَسًا متعدّدة ، لمحاصرة « بُرْج الذُّبّان »[٢] — وهو على باب ميناء عكا — فجعلوا على صَوَاري البطس ٥ برجًا[٣] ، وملؤوه حطبًا ونفطًا ، على أنهم يسيرون بالبطس ، فاذا ‖ قاربت « برج الذّبان » ولاصقته ، أحرقوا البرج الّذي على الصّاري ، [٢١٩ و] وألصقوه ببرج الذّبان ، ليلقوه على سطحه ، ويقتل مَنْ عليه مِن المقاتلة ويأخذونه . ١٠

وجعلوا في البطسة وقودًا كثيرًا ، ليلقوه في البرج اذا اشتعلت النار فيه . وعبؤوا[٤] بطسًا ملؤوها حطبًا ، على أنهم يدفعونها لتدخل بين بطس المسلمين ، ثم يلهبونها لتحرق بطس المسلمين .

وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة ، تحت قبو ، بحيث لا يصل إليهم نشّاب ، ويكونون تحت القبو ، ويقدّمون البطسة الى البرج ، ١٥

(١) جاء تفصيل ذلك في مفرج الكروب ٢/٣٣٢ — وقد حدد وصول السفن في ليلة النصف من شعبان .

(٢) ذكر ذلك في مفرج الكروب ٢/٣٣٤ : « واتخذ في البحر بطشة هائلة وفيها برج بخرطوم ... وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه » .

(٣) في مفرج الكروب : « وجعلوا على صواري البطش برجاً ، وملئ حطباً ونفطاً ، فاذا قاربت البرج ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصّاري ، وألصقوه بالبرج ليلقوه على سطحه فيهلك كلّ من على البرج» وهذا النصّ شبيه بما في ابن العديم ، وقد صوبنا عنه كلّ ما اضطرب في الأصل عندنا بالمخطوطة ، فقد أصابها هنا بلل وخرق .

(٤) في المفرج : « وعينوا بطشة ثانية وملؤوها حطباً ووقوداً ، على أنهم يدفعونها الى أن تدخل بين البطش الاسلامية » — وقد أثبتنا هذه العبارات عن ابن واصل لنشير إلى أنه نقل عن المصدر الذي أخذ منه ابن العديم روايته .

فأوقدوا النّار ، وضربوا النفط ، فانعكس الهواءُ عليهم ، فاحترقت البطسة ، وهلك مَنْ فيها ، واحترقت البطسة الثانية ، وأخذها المسلمون ، وانقلبت الثّالثة الّتي فيها القبو بمَن فيها .

احراق السفن

وفي هذه السنة ، في ربيع الأول ، أحرق المسلمون ما كان صنعه الفرنج من آلات الحرب والزحف إليهم ، وهي أبرجة عظيمة المقدار ، يزحف بها على عجل ، وفيها المقاتلة ، والجروخ ، والمجانيق ، فعمد لها رجل دمشقي يعرف «بعليّ بن النحاس[1] » ، فرماها من السّور ، بقدور نفط متتابعة ، وصار فيها ريح غريبة ، كانت سببًا لاحراق تلك الآلات وما فيها ومَنْ فيها .

واشتد حصار الفرنج على عكّا ، وملّ مَنْ بها من الأجناد المقام ، ووصل اليهم من مصر مراكب فيها غلّة ، فاتلفوها بالاضاعة وبالتغريق ، تبرمًا بالمقام .

وفي ربيع الأول ، وصلت من بلاد الفرنج مراكب كثيرة ، فيها ألوف من مقاتلة الفرنج من أكبرهم ملكان : يعرف أحدهما بملك «الفرنسيس » والآخر بملك «انكتير »[2] ، فاشتدّت ‖ وطأتهما على [٢١٩ ظ] عكا ، وعظمت نكايتهما ، في سورها . وقلّ ما بها من الميرة والسّلاح .

حيلة المسلمين

فأمر السّلطان بأن أوسق مركبٌ عظيمٌ من «بيروت » ، واستكثر فيه من السّلاح والأقوات والمقاتلة ، وأظهر عليه زيّ الفرنج وشعارهم ، وأُخذَ قومٌ من أسارى الفرنج الّذين في قبضة

(١) في مفرج الكروب ٣١٦/٢ : «وكان شاب من أهل دمشق يقال له عليّ ، ابن عريف النحاسين مولعاً بجمع آلات الزّراقين وتحصيل عقاقيرها » — وبقية التفاصيل تجدها في هذا المصدر وفي ابن الأثير .

(٢) كذا أوردها هنا ابن العديم ، وفي مفرج الكروب : «الانكلتير» — وهم الانكليز بعبارتنا لهذه الأيام — وفي ابن الأثير : «ملك انكلتار» ٢١٣/٩ .

المسلمين ، فتُركوا على ظاهر المركب ، وأنزل معهم في المركب جماعة من المسلمين ممَّن يَعرف لغة الفرنج ، وتزيّوا بزيّ الفرنج ، وحلقوا شعورهم[١] ، وأخذوا معهم خنازير ، ورفعوا على قلع المركب صليبًا . وأوهموا الفرنج أنهم واصلون إليهم نجدةً مِن بلادهم ، وأقلعوا داخلين إلى مرسى « عكا » ، مسلِّمين على الفرنج بلغتهم ، مبشِّرين لهم بأنَّ وراءهم من المدد ، مَنْ تُشَدَّدُ ⟨به منتهم⟩[٢] وتعزُّ به نصرتُهم ، فلم يرتَبِ المحاصرون بذلك ، وأفرجوا لهم عن المرسى .

فدخلوا إلى « عكا » ، وأوصلوا إلى المسلمين بها ، ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال ، وتَمَّت هذه الحيلة . وكانت من الفرص التي لا ينبغي أن تعاود فركن المسلمون إليها ، وطمعوا في أخرى مثلها ، فجهّزوا مركبًا عظيمًا من « بيروت » أيضًا ، وأودعوه مثل ما كان قبله من الآلات والسلاح والأقوات بما مبلغ قيمته خمسة آلاف دينار . وجعل فيه سبعمائة من مقاتلة المسلمين .

حرق مركب

وكان خبرهم قد وصل إلى الفرنج ، فأخذوا عليهم الأرصاد ، فمكثوا أيامًا يلججون في البحر ، ويقاربون عكًّا ، فلا يجدون في الدّخول مطمعًا ، حتى صادفتهم[٣] مراكب « الانكتير » في حال قدومه من بلادِه ، في إحدى وعشرين مركبًا فقاتلوا ‖ [٢٢٠ و] ذلك المركب الاسلامي يومين ، وثبت لهم مع قلَّته ، فغرّق المسلمون من مراكب الفرنج ثلاثة .

(١) في مفرج الكروب ٣٣١/٢ : « وتزيوا بزي الفرنج وحلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على ظهر البطشة » .

(٢) جملة مطموسة في نسخة باريس وهي الأصل ، فأخذناها عن نسخة لننغراد بالورقة ٨٩ ظ وهي : « من تشدّد به منتهم » — والمُنّة : القوة .

(٣) في ابن الأثير ٢١٣/٩ : « فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك انكلتار الفرنج » .

ولما رأوا أنهم قد يئسوا من النجاة ، وأنَّ الفرنج إنْ ظفروا بالمركب حصل لهم به قوة عظيمة ، وحصلوا في الأسر والذلَّة ، عمد رجل حلبيّ حجّار من أهل «باب الأربعين»[1] ، يقال له «يعقوب» وكان مقدّم الجماعة[2] إلى سفل المركب وأخذ قطّاعته ، وخسف المركب ، ودخل فيه الماء ، وغرق . ولم يظفر الكفّار منه بشيء ، سوى رجلَيْن تخطّفهما الفرنج من رأس الماء ، واحتملوهما في مراكبهم ، فأخبرا بهذه الكائنة .

ولما وصل هذا الخبر إلى «عكا» قطَع قلوبَ مَن بها ، وأُسقط في أيديهم ، وهرب جماعة مِن الأمراء[3] منها ، فألقوا أنفسهم في شخاتير صغار ، فأضعف ذلك قلوبَ مَن بقي بها . وعظمت النكاية في سور المدينة ، وفشلوا ، وكاتبوا السلطان ، فأذن لهم في مصالحة الفرنج عن أنفسهم بالبلد .

مصالحة الفرنج

فصالحوا الفرنج على تسليم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات ، والعُدَد والأسلحة ، والمراكب ، وغير ذلك ، وعلى مائتي ألف دينار[4] وألف وخمسمائة أسير ، مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معيّنين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على

(١) باب الأربعين : محلة في حلب مشهورة إلى اليوم .

(٢) في ابن الأثير ٢١٣/٩ : «ونزل مقدم من بها إلى أسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها» — انظر قول يعقوب في هذا الصدد ، مفرج الكروب ٣٥١/٢ .

(٣) في ابن الأثير : «وهم عز الدين أرسل الأسدي ، وابن عز الدين الجاولي ، وسنقر الوشاقي ومعهم غيرهم» .

(٤) في ابن الأثير ٢١٤/٩ : «وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت ، وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور» — في مفرج الكروب ٢٦٠/٢ : «وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم» .

أن يخرجوا سالمين بأنفسهم ، وذراريهم ، وأموالهم ، وقماشهم ، وضمنوا «للمركيس» عشرة آلاف دينار ، لأنَّه كان الواسطة ، ولأصحابه أربعة آلاف .

النزول عن عكا

وحلف الفرنج لهم على ذلك ، وتسلَّموا «عكا» ، في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة . ونكثوا ذلك العهد ، وأسروا كلَّ مَنْ كان بها مِن ‖ المسلمين ، وفرَّقوا بنيهم ، واستصفوا أموالهم ، وسلبوهم ثيابهم وأسلحتَهم ، ثم قتلوا منهم ألفين ومائتين صبرًا ، على دمٍ واحدٍ ، في يوم واحد ، حيث توهّموا فيهم أنهم فقراء[1] ، ليس لهم مُفادٍ ، وأسروا مَنْ رجوا منه أن يُفتدى بمال ، أو يكون من السّلطان على بالٍ . [٢٢٠ ظ]

هدم عسقلان

وأقاموا بعكّا نحو أربعين يومًا ، و «الملك النّاصر» على ‹حصارهم›[2] ، ثم خرجوا منها متوجهين إلى «عسقلان» ، فسار في عراضهم ، ليمنعهم أن يخرجوا من ساحل البحر ، فساروا من عكّا إلى «يافا» ، وهي مسيرة يومٍ واحد ، ‹في شهر كامل›[3] ، لمضايقة السلطان لهم ، وجرى بينهم وبين المسلمين مناضلة ومطاردة ، فلما أشفق السّلطان مِن أخذهم «عسقلان»[4] سبق إليها فهدَمها ، وأخرج أهلها منها ، في شهر رمضان من سنة سبع .

(١) في ابن الأثير ٢١٥/٩ : «وانما يطلقون غلام العسكر والفقراء والأكراد ، ومن لا يؤبه له ، ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء» .

(٢) كلمة مطموسة بالبلل ، كما ذكرنا في المقدمة ، أخذناها عن نسخة لننغراد بالورقة ٢٢٠ ظ ، وهي : «حصارهم» .

(٣) كلمة مطموسة كذلك في نسخة الأصل ، أخذناها عن نسخة لننغراد ، بالورقة ٢٢٠ ظ .

(٤) في ابن الأثير ٢١٦/٩ : «كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها تاسع عشر رمضان وألقيت حجارتها في البحر» – انظر تفكير صلاح الدين وقلقه لهذا الخراب في مفرج الكروب ٢٦٩/٢ .

فأقام الفرنج «بيافا» ، وانتقل السّلطان إلى «الرَّملة» ، وشرع الفرنج[1] في بنآء «يافا» وتحصينها ، ثم ساروا عنها ، فنزلوا بعسقلان ، وشرعوا في عمارتها . ثم ساروا إلى «الدَّاروم» ، فحصروها ثلاث مرات ، أخذوها في المرة الثالثة بالأمان .

٥ وعاد السُّلطان ، في ثالث ذي الحجة ، بالعساكر الى البيت المقدَّس[2] ، وعمَّره ، وحصَّنه ، ووعّر طريقه ، وعمَّق خندقه . وجعل «الملك العادل» ، بازآء الفرنج «بالرَّملة» .

وفاة المظفر

وتوفي الملك المظفَّر تقيّ الدّين ، «على منازكرد» ، وهو محاصر لها ، بعد أن جرى له مصاف مع بكتمر[3]

١٠ صاحب «خلاط» ، وكسره تقيّ الدّين .

ودخلت سنة ثمان وثمانين ، والسّلطان بالبيت المقدّس ، والملك العادل في الرّملة ، وقد صار بيد الفرنج مما كان بيد المسلمين من الفتوح ، ما بين ‖ عكا و «الدَّاروم» ، ولم يمكنهم مفارقة الساحل ، خوفًا من أن [٢٢١ و] يحول المسلمون بينهم وبين مراكبهم ، فتنقطع مادتهم .

عصيان المنصور

١٥ وعصى فيها الملك المنصور[4] ابن تقيّ الدّين على السّلطان بميافارقين ، وحني[5] ، وحرَّان ، والرُّها ،

---

(١) في ابن الأثير ٢١٦/٩ : «ان الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها ، وشرعوا في عمارتها» .

(٢) في ابن الأثير ٢١٧/٩ : «ونزل هو — اي صلاح الدين — بدار الأقصى مجاور بيعة قمامة ... وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد ما رث منه ، فأحكم الموضع ... وأمر بحفر خندق خارج الفصيل» — انظر في هذا مفرج الكروب ٣٧٥/٢ .

(٣) سيف الدين بكتمر — وخبره في مفرج الكروب ، والمدينة فيها «ملاذكرد» .

(٤) الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقيّ الدين ، جاء خبر عصيانه على السلطان في مفرج الكروب ٣٧٧/٢ .

(٥) في الأصل المخطوط عندنا : «حني» وهي بلد في ديار بكر ويقال لها حاني أيضاً ، كما جاء في مفرج الكروب ، وفي ابن الأثير ٢٢٠/٢ — انظر مراصد الاطلاع ٤٤٣/١ .

وسُمَيْسَاط ، والموزر ، فسيّر إليه ابنه الملك الأفضل وأقطعه تلك البلاد الشرقية ، فسار إلى حلب ومعه أخوه «الملك الظّافر» ، ⟨ووصلا⟩[1] الى حلب . فأرسل السّلطان أخاه «الملك العادل» ، جريدةً ، في عشرين فارسًا من مماليكه ، وأمره أن يردّ «الملكَ الأفضلَ» ، ويطيّب قلبَ «الملك المنصور» ، ويعطيه ما يريد ، فوصل «الملك العادل» ، واجتمع بالملك المنصور ، وقرّر أمره . ٥

هدنة مع الفرنج

ثم أن السلطان جرت له أحوال مع الفرنج ، ووقعات ، ومراسلات ، يطول الكتاب بتعدادها ، إلى أن انتظم الصلح بينه وبين الفرنج ، في حادي وعشرين من شعبان سنة ثمانٍ وثمانين ، لمدة ثلاث سنين وخمسة أشهر[2] ، على أن سلّموا إلى المسلمين «عسقلان» ، و«غزة» ، و «الدّاروم» . واقتصروا من البلاد السّاحلية على ما بين «صور» و «يافا» بعد أن فتح السلطان «يافا» ، وبقي القلعة[3] . ١٠

واتفق ملوك الجزائر من الفرنج على تمليك الساحل رجلًا منهم يعرف «بالكندهري» ، وزوّجوه بنت ملكهم القديم ، التي قد استقرّ عندهم أن يجعلوها على كلّ مَنْ ملكوه . ١٥

وسار السُّلطان من القدس إلى بيروت في شوّال ، ووصل إلى خدمته[4] صاحب أنطاكية «الابرنس» وولده «قومص طرابلس» ؛ وخلع عليهما ، وجدّد بينه وبينهما الهدنة والعقد .

(١) كلمة مطموسة في نسخة باريس ، أخذناها عن نسخة لننغراد : «ووصلا» .

(٢) في مفرج الكروب ٢/٤٠٤ : «وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها مبتدأ أيلول الموافق الحادي والعشرين من شعبان» .

(٣) انظر خبر ذلك في مفرج الكروب ٢/٣٩٤ – ولعلها : «باقي القلعة» .

(٤) في مفرج الكروب ٢/٤٠٩ : «وصل الى خدمته بيمند صاحب أنطاكية ، يوم السبت الحادي والعشرين من شوال فأكرمه السلطان وآنسه ، ورفع مجلسه» .

الناصر في دمشق

وفي سادس عشري ذي القعدة[١] ، دخل إلى دمشق ، بعد مدّة تقارب أربع سنين . ‖ وكان « الملك الظاهر »[٢] قد [٢٢١ ظ] ودّعه من « القدس » ، ورحل إلى حلب في شهر رمضان . وأخبرني القاضي بهاء الدّين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : أنه ٥ ودّعه ، ثم سيّر إليه ، واستأذنه في مراجعته في أشياء فادخله عليه — وكنت حاضرًا — ثم قال للملك الظاهر :

وصية الناصر

« أوصيك بتقوى الله فإنّها رأس كلّ خير : وآمرك بما أمرك الله به ، فانه سبب نجاتك . وأحذّرك من الدّماء والدخول فيها والتقلّد لها[٣] ، فانّ الدم لا ينام . وأوصيك بحفظ ١٠ قلوب الرعيّة ، والنّظر في أحوالهم ، فأنتَ أميني وأمين الله عليهم . وأوصيكَ بحفظِ قُلوب الأُمراء ، وأربابِ الدّولة والأكابر . فما بلغتُ ما بلغتُ إلّا بمداراة النّاس . ولا تَحْقِد على أحَد ، فانَّ المَوْتَ لا يُبقي على أحد . واحذرْ ما بينك وبين النّاس ، فانّه لا يغفر إلّا برضاهم[٤] ؛ وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه ، فانّه كريم » .

١٥ وفي شهر ذي القعدة ، سلّم إلى « الملك المنصور » ما كان لأبيه بالشام ، وهو « منبج ، وحماة ، وسلمية ، ومعرّة النعمان »

وانقضت سنة ثمان وثمانين .

(١) في مفرج الكروب ٢/٤٠٩ : « ثم سار السلطان الى دمشق ، فوصلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال ، وفرح الناس به لأن غيبته كانت قد طالت عنهم مدة أربع سنين » .

(٢) في مفرج الكروب ٢/٤٠٩ : « وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد فارق أباه بالقدس ، ووصل إلى دمشق لما بلغته حركة أبيه إلى دمشق» .

(٣) في ابن شداد : « والتقلد بها » .

(٤) في الأصل : « برضائهم » — وفي ابن شداد : « برضاهم » وهي الرواية التي اعتمدناها .

والهدنة مع الفرنج مستمرّة ، و «الملك النّاصر » بدمشق ، «والملك الظّاهر » بحلب ، والملك العزيز بمصر ، والملك الأفضل ، وهو أكبر ولد السّلطان ، معه بدمشق .

موتُ النّاصِر صَلاح الدّين

موت الناصر

فمرض السّلطان ، في اليوم الخامس عشر ، من صفر ، بحمّى حادة ، واختلط ذهنه[1] في السّابع ، وحُبس كلامه ، وانجذبتْ مادّةُ المرض إلى دماغه . وتوفي[2] – رحمه الله – في الثّالث عشر من مرضه ، في وقت الفجر ، من يوم الأربعاء ، السّابع والعشرين من صَفر ، من سنة تسع وثمانين وخمسمائة . ٥

***

[٢٢٢ و] صفات السلطان

|| وليس في خزانته[3] من المال يومَ وفاته سوى دينار واحد صوري ، وسبعة وأربعين درهمًا نقرة . ودعوتُه على المنابر من أقصى حضرموت في الجنوب إلى أوائل بلاد « أراينه » في الشّمال عرضًا ، ومن طرابلس الغرب إلى باب همذان طولًا . ونُقودُها من الدّراهم والدنانير مضروبةٌ باسمه ، وعساكرُها ⟨مطيعة⟩[4] لأمره ، ١٠

(١) يسرد ابن واصل في مفرج الكروب مراحل المرض على تفصيل دقيق ، فارجع اليه ٤١٨/٢ .

(٢) في ابن الأثير ٢٢٥/٩ ، تفصيل أعمال صلاح الدين – وكمال ترجمته في ابن خلكان . وقد نشرنا كتيباً عن صلاح الدين وفتوحاته عنوانه « الناصر صلاح الدين » بالقاهرة سنة ١٩٦٠ ، صدر عن دار المعارف .

(٣) في مفرج الكروب ٤٢٦/٢ : « ولم يخلف رحمه الله في خزانته إلاّ سبعة وأربعين درهماً وجرماً واحداً صورياً » – انظر الفيح القسيّ ٤٥٦ .

(٤) في نسخة الأصل بباريس مطموسة ، أخذناها عن نسخة لننغراد بالورقة ٩١ و .

سائرةٌ تحت لوائه. ومِنْ جُملة مُلكه ديار مصر، والشَّام جميعه، والجزيرة وديار بكر، واليمن.

تِلْكَ المكارمُ لَا قعبانُ مِنْ لَبَن شِيبَا بِماء فَعَادا بَعْدُ أَبْوالَا(١)

وكان وزيرُه القاضي الفاضل «عبد الرحيم بن علي البيساني»، ٥ صاحب البلاغة في الكتابة.

واستقرّ ملكُ ابنه السلطان «الملكُ الظَّاهرُ غازي ابنُ الملكِ النَّاصِر يوسفَ بنِ أيُّوب» لحلب، والبيرة، وكفرطاب، وعَزاز، وحَارم، وشَيزر، وبارين، وتلّ باشر. واستقلّ بملك حلب، وأنعم على رعيّته، واستمال قلوبَهم بالاحسان، وعملَ بوصيّة أبيه في الأفعال ١٠ الحِسَان. وشاركَ أهلَ حلبَ في سرورهم والحزن، وقلّد أعناقَهم أطواقَ الانعام والمِنَن، وجالس الكبير منهم والصَّغير. واستمالَ الجليل والحَقير.

وكان — رحمه الله — مع طَلَاقَة وجهه، من أعظم المُلوك هيبةً، وأشدّهم سطوةً، واسدّهم رأيًا، وأكثرهم عطاء. وكانت الوفودُ في كلّ ١٥ عام تزدحمُ ببابه من الشُّعراء، والقرَّاء، والفقراء، وغيرهم. وكان يُوسعهم فضلًا وإنعامًا. ويوليهم مبرّة وإكرامًا.

[٢٢٢ ظ] ولم يجتمع بباب أحد ‖ من الملوك بعد «سيف الدّولة بن حمدان» ما اجتمع ببابه — رحمه الله — وزاد على «سيف الدولة» في الحباء، والفضل والعطاء.

(١) هنا يقف المستشرق فريتاغ في صفحاته التي نشرها في «بون» عن ابن العديم بالعربية سنة ١٨٣٤، وبذلك يكون قد أظهر من مخطوطة باريس مقدار ٢٦ ورقة أي ٨٥ صفحة. — انظر الصفحة ٤٠ السابقة من هذا الجزء والتعليق بالحاشية.

القسم التاسع والعشرون

ذكر

حلب في بقية أيام الظاهر ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب

هجمات العادل في الشام - الخلاف بين الإخوة - هجوم الفرنج

وصول العادل إلى دمشق - موت الظاهر

٥٩٠ هـ - ٦١٣ هـ

هجمات العادل في الشام

وخرج صاحب[١] الموصل «عزّ الدّين»، باتفاق «عماد الدّين» وصاحب ماردين، لاستنقاذ حرّان والرّها[٢]، من يد «الملك العادل»، في شهر ربيع الآخر من هذه السنة؛ ونزل بدنيسر[٣].

٥ ونزل «الملك العادل» بحرّان، واستنجد بعساكر «الملك الظّاهر» و«الملك الأفضل»، فسيّر الملك الظّاهر عسكره ومقدّمه الملك المنصور ابن تقيّ الدّين، ونزل الملك العادل على سروج فافتتحها. ومرض عزّ الدّين، وعاد إلى الموصل عن غير لقاء.

ثم نزل الملك العادل على الرقّة، فأخذها، وأعطاها ابن أخيه ١٠ «الملك الظافر». وسار بالعساكر إلى نصيبين، وأقطع الخابور وبلد القنا، ثم اصطلحوا في شهر شعبان.

الياروقية وكان الياروقية ومقدّمهم «دلدرم» صاحب «تلّ باشر»[٤]، قد تكبّروا وتحامقوا على الملك الظّاهر، وقصّروا في خدمته، في حياة أبيه. وكانوا يعظّمون «بدر الدين دلدرم»، ويركبون ١٥ كلّهم في خدمته حتى كأنه السلطان، وكان بأيديهم من الأقطاع خير

(١) مسير أتابك، جاء تفصيله في ابن الأثير ٩/٢٢٧.

(٢) في ابن الأثير ٩/٢٢٨ : «وكان العادل قد عسكر قريباً منها بمرج الريحان فخافهم خوفاً عظيماً».

(٣) دنيسر : من مدن الجزيرة قرب نصيبين.

(٤) علقنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب على تلّ باشر وقلنا إنها قلعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان.

ضياع «جبل السّماق»[1]، وغيرها؛ وملك الملك الظاهر حلب، فسلكوا معه من الحماقة، ما كانوا يسلكونه من قبل، فاعتقل مقدَّمهم «دلدرم» في قلعة حلب، وقيّده، وأخرج الباقين عن حلب، وقبض أقطاعهم، وطلب من «دلدرم» تسليم «تلّ باشر» فامتنع، وذلك في سنة تسعين وخمسمائة.

واتّفق أن وقع خلف بين الأفضل والملك العزيز، بسبب أميرين من النّاصرية[2]، أحدهما ميمون ‖ القصري، والآخر سنقر الكبير، [٢٢٣ و] وكان بأيديهما عدّة من القلاع، فاستشعرا من الملك الأفضل أن يقبضهما، فسارا إلى مصر، وكاشفا «الافضل» بالعصيان.

وطلبا من العزيز[3] الكون في خدمته على أن يذبّ عما في أيديهما، فأقطع الملك الأفضل بلادهما، وأقطعهما الملك العزيز نابلس — وكانت مقطعة مع ابن المشطوب — فامتنع من تسليمها إليهما، وسار إلى الملك الأفضل فوقع الشرّ بينهما بسبب ذلك.

العزيز في دمشق

ونزل الملك العزيز الى دمشق، في جمادى الآخرة، وأقطع بلدها، وقاتلها، فسيّر الملك الأفضل إلى عمّه[4]، وأعلمه بذلك، فسار «الملك العادل» من بلاده شرقي الفرات جريدةً، واجتمع بالملك الظاهر غازي[5] بحلب، وأصعده إلى قلعة

(١) جبل السّماق: جبل من أعمال حلب الغربية انظر زبدة الحلب ١٦٤/١.

(٢) أي المماليك الناصرية.

(٣) الملك العزيز هو عثمان بن صلاح الدين، وهو صاحب مصر؛ وأخوه الملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين.

(٤) في ابن الأثير ٢٣١/٩: «فأرسل الأفضل إلى عمّه الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده».

(٥) الملك الظاهر، هو غازي ابن صلاح الدين، صاحب حلب — وفي ابن الأثير مثل هذا الوصف لاجتماع الظاهر وناصر الدين وأسد الدين «اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها».

حلب ، وأنزله في الدار ، التي فيها ابنة الملك العادل «غازية خاتون» ، زوجة السّلطان الملك الظّاهر . وطلب من الملك الظّاهر موافقته على المسير إلى نصرة الملك الأفضل ، واصلاح ما في قلوب الملكيْن من المضاغنة ، فوافقه على ذلك . ثم قال له الملك العادل : «انا ضيفك ، ولا بدّ للضّيف من قِرىً ، وأطلب أن تكون ضيافتي منك دلدرم» . ٥ فأجابه إلى ذلك وأطلقه .

وكان «العلم بن ماهان» في خدمة السُّلطان «الملك الظاهر» ، في محلّ الوزارة ، فأشار عليه بقبض عمّه الملك العادل ، فامتنع ،وقال : «هذا عمّي ، ومحلُّه محـلّ الوالد» . ونزل الملك «بدلدرم» من القلعة ، فمضى في يومه إلى «تلّ باشر» . ١٠

مراسلات ابن أولاد صلاح الدين

وصعد الملك العادل والملك الظّاهر ، إلى نصرة الملك || الأفضل ، بعد أن سلَّم الملك الأفضل إلى [٢٢٣ ظ] الملك الظّاهر جبلة ، واللاذقيه ، وبلاطنش(١) وأعمال ذلك كلّه ، لينصره على أخيه . واجتمع الملك العادل والملك الظّاهر بالملك الأفضل ، وتـأخّر الملكُ العزيزُ عن دمشق . ١٥

وجرتْ بين الملوك الثلاثة مراسلاتٌ أفضت إلى الاتّفاق والصُّلح ، على أن تكون بلادُ الملك الأفضل بحالها ، وما كان بيد «ميمون» و «سنقر» ، على حاله ، ويكونان في خدمة «الملك العزيز» . ووقعت الأيمان والعهود على ذلك ، في شعبان من سنة تسعين وخمسمائة .

٢٠ وعاد «الملك العزيز» إلى مصر و «الملك الظّاهر» الى حلب ، والملك العادل إلى الشرق .

---

(١) بلاطنش : —وهو في مراصد الاطلاع ١/٢١٥ بالسين في آخره— حصن بسواحل الشام ، مقابل اللاذقية ، من أعمال حلب آنذاك .

القاضي ابن شداد

وفي سنة إحدى وتسعين اتّصل القاضي «بهاءُ الدّين أبو المحاسن، يوسف بن رافع بن تميم[1]» بخدمة «الملك الظاهر»، وقدم اليه إلى حلب، وولّاه قضاء حلب ووقوفها، وعزل عن قضائها «زين الدين أبا البيان بنا» نائب «محيي الدّين ابن الزكي»، وحلّ عنده بهاءُ الدّين في رتبة الوزارة والمشورة. ٥

الخلافُ بين الاخوة

الافضل مع العادل

ثم إنَّ «الملك الأفضل»[2] استشعر من أخيه «الملك العزيز» أن ينزل الى دمشق، ويحاصرها، في سنة إحدى وتسعين، كما فعل في السّنة الخالية، فسار إلى «قلعة جعبر»، واجتمع بعمّه «الملك العادل». بها، وفاوضه في الوصول اليه إلى دمشق، لينصره ١٠ على الملك العزيز إنْ وصل الى دمشق، إمّا بصُلح أو بغيره، فوافقه على ذلك.

وتوجّه الملك العادل الى دمشق، ثم عدل الملك الأفضل إلى حلب، إلى أخيه الملك الظاهر، ووصل إليه إلى حلب، وفاوضه في انجاده على الملك العزيز، فلم يجد عنده نيّة ‖ صادقة في الحركة معه إلى ١٥ [٢٢٤ و] دمشق. واشترط عليه شرائط من جملتها أن صاحب «حماة» الملك

(١) هو ابن شداد مؤلف كتاب سيرة صلاح الدين: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وقد توفي القاضي بهاء الدين بن شداد سنة ٦٣٢ هـ، وطبع كتابه بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ – انظر ترجمته في وفيات الاعيان ٢/٣٥٤.

(٢) في ابن الأثير ٩/٢٣٤: «فبلغ الخبر إلى الأفضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه إلى نصرته، وسار من عنده الى حلب الى أخيه الملك الظاهر غازي. وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الأفضل اليها».

المنصور محمّد بن تقي الدّين ، وعزّ الدّين بن المقدّم صاحب «بارين»[١] ، و «بدر الدّين دلدرم بن ياروق» ، صاحب «تل باشر» ، كانوا كلّهم في طاعته ، ومضافين اليه ، وبلادهم من جملة بلاد الملك الظّاهر ، وأنهم كانوا من جملة أصحابه ، فانحرفوا عنه ، ٥ وانضافوا إلى عمه الملك العادل .

وكان الملك العادل قد شفع اليه في دلدرم ، وأطلقه لأجله ، وضمن له عنه الطاعة والقيام بما يجب ، فانضاف إلى عمّه .

وطلب «الملك الظّاهر» أنّ الملك العادل يقوم له ، بما جرى بينه وبينه من الشرط ، وأن لا يعرض لأتباعه المذكورين

١٠ وسار الملك الأفضل إلى دمشق ، على أن يقرّر مع عمّه ما التمسه الملك الظّاهر . فلم يتّفق للملك الظّاهر شيء مما التمسه . فعاد بالكليّة عنهما ، وأرسل إلى الملك العزيز[٢] ، يحضّه ، ويحرضه على قصدهما لأن الملك الأفضل مال إلى الملك العادل ، وألقى أموره كلّها إليه[٣] .

العزيز مع الظّاهر

ووصلت رسل الملك العزيز إلى الملك الظّاهر ، بموافقته ١٥ معه ، ومعاضدته . وحلف له الملك الظّاهر ، في شهر رجب من السّنة .

ونزل الملك العزيز ، من مصر ، في شهر رمضان ؛ والأسدية والأكراد مخامرون عليه ، والملك العادل والملك الأفضل ، قد كاتباهم ،

(١) بارين : علقنا على هذه المدينة في الجزء الثاني ، وقلنا أنها بين حلب وحماة من جهة الغرب .

(٢) في ابن الأثير ٢٣٥/٩ : «فأرسل حينئذ سرًّا إلى الملك العزيز يأمره بالثبات ، وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها ، وتكفل بأن يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها» .

(٣) في مفرج الكروب ٤٤/٣ : «وأفضى الملك الأفضل إلى الملك العادل باسراره».

فمالوا إليهما لتقدمة[1] الملك العزيز الناصريّة عليهم .

وخرج الملك الظّاهر ، فنزل بقنسرين ، وعيّد بها عيد الفطر ، وعيّد الملك العزيز «بالفوّار»[2] ، وعزم الملك العزيز على الرحيل إلى دمشق ، والنزول عليها ، ورحل ابو الهيجاء السمين[3] ‖ والمهرانيّة ، [٢٢٤ ظ] والأسدية في رابع شوال . وساروا الى دمشق . ٥

ورحل الملك الظّاهر من «قنّسرين» إلى «قراحصار» ، قاصداً حصار منبج – وهي في يد الملك المنصور صاحب حماة – فلما وصل الملك الظّاهر إلى «بزاعا» ، وصله الخبر بأنّ العسكر خامر على الملك العزيز ، وأنّه رجع عن دمشق ؛ وسار الملك العادل والأفضل خلفه إلى مصر ، فعاد الملك الظّاهر إلى «قرا حصار» حتّى انسلخ شوال ، ودخل حلب . ١٠

العزيز في مصر

ووصله الخبر بأن الملك العادل[4] والأفضل ، سارا خلف الملك العزيز إلى مصر ، ونزلا على «بلبيس» ، ودخل الملك العزيز إلى مصر ، واستقرَّ أمره بها ، وعلم الملك العادل بأنّه لا يتمشّى أمرهما مع الملك العزيز ، فكتب[5] إلى القاضي

(١) في ابن الأثير : «وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ، ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء ، فأنفوا من ذلك» ... «لان الأسدية والأكراد لا يريدون العزيز» .

(٢) الفوّار : بالشام من أرض السواد – انظر مفرج الكروب ٤٨/٣ : «وثبت الملك العزيز في معسكره بالفوار ومعه خواص أصحابه على الخطر» .

(٣) أبو الهيجاء من الأكراد ، كما في ابن الأثير ٢٣٤/٩ – في مفرج الكروب ٤٧/٣ : «وكان مقدم الأمراء حسام الدين أبا الهيجاء السمين» – «رحل الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين والأكراد المهرانية والأسدية رحلة واحدة بعد دخول الليل وهم لابسون عدة الحرب» .

(٤) في ابن الأثير ٢٣٥/٩ : «ووصل العادل والأفضل إلى بلبيس فنازلوا من بها من الناصرية» .

(٥) في مفرج الكروب ٥٢/٣ : «فبعث يستدعي القاضي الفاضل ليتفق معه على ما فيه صلاح ذات البين» .

الفاضل ، وطلب الاجتماع به ، فألزمه الملك العزيز بالخروج اليه ، فاجتمع به ، وأصلح حاله[1] مع الملك العزيز ، وشرط عليه أن يعفو عن الأسدية . وقال للملك الأفضل : « أنا كان مقصودي الاصلاح بينكم ، وأن لا يقع على دولتكم خلل ، وقد حصل ذلك » .

٥ وتحالفوا ، وعاد الملك الأفضل ، ومعه أبو الهيجاء السمين ، وبقي الملك العادل مع الملك العزيز بمصر ، ووافقه ، فانحرف الملك الظَّاهر عن الملك العزيز بذلك السبب ، ومال إلى الملك الأفضل .

مسيرة العزيز الى الشام

وكان الملكُ العادلُ قد احتوى على الملك العزيز ، وأوقع في نفسه أن السَّلطنة تكون له في بلاد الاسلام ، ١٠ والخطبة والسكَّة . وكان يبلغه عن الملك الأفضل كلمات توجب الحنق عليه ، فاتَّفق مع الملك العزيز على أن ينزلا جميعًا إلى الشام ، لتقرير هذه القاعدة ‖ في جميع بلاد الاسلام . [٢٢٥ و]

فسيَّر الملك الظَّاهر أخاه الملك الزَّاهر داود ، والقاضي بهاء الدين قاضي حلب ، وسابق الدين عثمان ، صاحب شيزر في سنة اثنتين وتسعين ١٥ وخمسمائة إلى الملك العزيز ، لتسكين الفتنة ، والرجوع الى ما فيه صلاح النيّة والموافقة بين الأهل .

فوصلوا والملك العادل ، والملك العزيز ، قد خرجا مبرزين إلى « البرْكة »[2] في ربيع الأول من السّنة . وعادوا الرسلَ بغير زبدة ، فعرفوا الملك الأفضل في احتيازهم عليه ، بما قد عزم الملك العزيز ،

---

(١) في ابن الأثير ٢٣٥/٩ : « فطالت الأيام ، وارسل الى العزيز سرًا يأمره بارسال القاضي الفاضل ، وكان مطاعاً عند البيت الصلاحي ، لعلو منزلته كانت عند صلاح الدين » .

(٢) لعلها بركة الجب — كما في مفرج الكروب ٦١/٣ .

والملك العادل عليه ، من إقامة الخطبة والسكّة للملك العزيز ، وتعجّب من نقضهما الهدنة معه .

ولمّا وصلوا إلى حلب ، راسل الملك الظّاهر[1] أخاه الأفضل ، في تجديد الصلح بينهما ، وتحالفا على المعاضدة والمناصرة . ووصل الى الملك الظّاهر من الأمراء : علم الدين قيصر الناصري ، أمير جاندار[2] أبيه الملك الناصر ، فأقطعه اللاذقية ؛ وأخذها من ابن السلّار . وسيّر العلم بن ماهان ، ليعتبر ما في قلعتها ويسلّمها إلى قيصر ، ويجعل الأجناد فيها على حالهم ، ويحلّفهم للسلطان الملك الظّاهر .

القبض على ابن ماهان

وكان العلم بن ماهان ، إذ ذاك عند الملك الظّاهر في محلّ الوزارة ، فلما وصل اليها ، ودخل قلعتها طمع باللّاذقية ، وحدثته نفسه بالعصيان ، واستحلف الأجناد لنفسه ، وخالفه بعضهم ، وامتنعوا ، وكتبوا إلى «الملك الظّاهر» ، وقبضوا على ابن ماهان . فسارع الملك الظّـاهر ، وخرج إلى اللّاذقيّة ، وصعد إلى القلعة ، وأحضر ابن ماهان ، وقطع يده ، وقلع عينه ، وقتل غلامًا من خواصّه ، وقطع لسانَ البدر ‖ ابن ماهان قرابته وأذنيه ، وسلخ [٢٢٥ ظ] العامل النصراني الذي كان بها .

واحتوى على جميع ما كان لابن ماهان ، وفرّقه ، ودخل إلى حلب وهو معه ، فأركبه حمارًا مقلوبًا ، وعلى رأسه خفّ امرأة ، ويده معلّقة في عنقه . وطيف به على تلك الحال ، ولطم بالدرّة . ثم صعدوا به إلى القلعة ، فالتقاه «ابن منيفة» بوّابها ، وقال له : «أريد حقي

(١) الملك الظاهر غازي ، صاحب حلب .

(٢) شرحنا في الصفحات السابقة كلمة «جاندار» .

منك ». وأخذ نعله من رجله ، ولطمه به لطمًا كثيرًا . وحُبس في القلعة .

وتحدَّث بعضُ النَّاس أن الملك الظَّاهر أراد أن يرجع عن إقطاع قيصر اللّاذقية ، فكتب إلى ابن ماهان يأمره بالعصيان ، ثم التزم بما فعل ، ولم يظهر صحة ذلك .

العزيز في دمشق

٥ ولما دخل السلطان الملك الظَّاهر من اللّاذقية ، سيّر عسكرًا من عسكر حلب ، نجدة لأخيه الملك الأفضل[١] ، ووصل الملك العزيز والملك العادل ، فنزلا على دمشق ، وحصراها ، وتسلَّمها الملك العزيز بمخامرة[٢] أوجبت دخول الملك العادل من «باب توما »[٣] ، والملك العزيز من باب « الفرج » .

١٠ وخرج الملك الأفضل من القلعة ، وعُوّض عن دمشق بصرخد[٤] ، فسار إليها ، ووصل « الملك الظافر » إلى أخيه « الملك الظاهر » إلى حلب ، فأكرمه ، واحتفل به ، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وشرع « الملك الظاهر » في حفر الخنادق بحلب وتحصينها ، ١٥ وسيّر القاضيَ بهاء الدّين ، وغرس الدّين قلج ، إلى الملك العزيز ، يطلب موافقته . وكان قد رحل الى مصر ، وأبقى الملكَ العادل بدمشق .

---

(١) يفصّل ابن العديم أمر الخلاف بين هؤلاء الأمراء ، وينفرد في ذلك ؛ ولكن ابن الأثير يوجز في هذه الأمور ، ولا نقطع هنا بالمصدر الذي نقل عنه .

(٢) انظر ابن الأثير ٢٣٦/٩ ، وكذلك مفرج الكروب ٦٢/٣–٦٣ .

(٣) باب توما ، وباب الفرج من أبواب دمشق المعروفة – انظر الأعلاق ، قسم دمشق ، بتحقيقنا ص ٣٦ – في أبي الفداء ٩٢/٢ : « فدخل الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما » .

(٤) في ابن الأثير ٢٣٦/٩ : « وأقراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له » .

الظاهر في عين تاب

وخرج «الملك الظاهر» إلى «مرج دابق»[(١)] ، وأقام بها ، وأظهر أن صاحب «مرعش» عاث في بلد «رعبان» ، وسيّر يقدمه عسكره إلى «عين تاب»[(٢)] ، ‖ [٢٢٦ و] فخاف صاحبها حسام الدّين بن ناصر الدّين ، وحفظ القلعة . ونزل العسكر في الربض مظهرين أن لا غرض لهم في حصار القلعة ، بل لشدّة البرد والثلج . ثم أظهر أن صاحب مرعش سيّر إلى «الملك الظاهر» ، واعتذر ، وانقاد إلى طاعته ، وحلف له .

فرحل السّلطان إلى «الراوندان»[(٣)] ، وأقام بها ثلاثة أيام ، ورحل إلى «عزاز» ليلًا ، وهي في أيدي نواب الأمير «سيف الدّين بن علم الدّين عليّ بن سليمان بن جندر» ، وكان مريضًا بحلب ، فأراد السّلطان أن يصعد إلى القلعة من شدّة المطر ، فمنعه مَن في القلعة أن يطلع إلّا باذن «سيف الدّين» ، فسار إلى «دربساك» وبها «ركن الدين الياس» ابن عمّ «سيف الدّين» ، فقبض عليه .

وعاد إلى حلب مُغضبًا ، ودخل إلى دار سيف الدّين بنفسه ، وأخذه في محفّة ، وسيّره إلى «عزاز» ليسلمها ، ووكّل به «حسام الدّين عثمان بن طمان» ، فوصل معه إليها وسلّمها إلى نواب السّلطان «الملك الظاهر» ، وعادوا به إلى حلب .

---

(١) مرج دابق : شرحنا في الجزء الثاني بأنها من أعمال عزاز قرب حلب .
(٢) عين تاب : قلعة ومدينة بين حلب وأنطاكية ، وقد علقنا عليها في الجزء الثاني ٣٠٢/٢ ، وأما رعبان فموقعها في الثغور ، علقنا عليها في المصدر المذكور ١٢٨/١ .
(٣) ذكرنا قبل أن «الراوندان» قلعة وكورة معشبة من نواحي حلب . — انظر زبدة الحلب ١٤٤/٢ .

الظاهر في دربساك

ولما جرى على سيف الدين ذلك ، وكانت « دربساك » معه ، وفيها ماله ونوّابه ، وبها جماعة من أسرى الفرنج ، فأعملوا الحيلة ، وكسروا القيود ، وفتحوا خزانة السلاح ، ولبسوا العُدَد ، وقاموا في القلعة ، فاحتمى الوالي في القلعة مع جماعة من الأجناد ، والقتال عليهم . فعلم الملك الظاهر ، بذلك ، فخرج مجدًّا في السير حتى وصل « درب ساك » ، فوجد الوالي قد انتصر على الأسرى ، وقتلهم .

وعاد السلطان إلى «حارم» ، ثم دخل إلى حلب ، فأقام حتى تقضَّت سنة اثنتين وتسعين . ووصله القاضي «وقلج» بجواب الملك العزيز ، بانتظام الصّلح بينه وبينه .

ورحل الملك العادل ‖ الى بلاده الشرقية ، ووصل ابنه «الملك الكامل محمد» إلى حلب ، زائرًا ابن عمه الملك الظَّاهر ، وكان قد طلبه من أبيه ليزوره ، فالتقاه الملك الظاهر ، وأحسن ضيافته ثم سار إلى أبيه . [٢٢٦ ظ]

في رعبان

وعصي «سربك»[١] «برعبان» على الملك الظَّاهر ، وقد كانت في يده ، عوَّضه بها عن «حارم» وكان من مماليك أبيه الشجعان ، فأظهر الملك الظَّاهر أنَّه يخرج إلى الغزاة ، وخرج إلى «قنّسرين» ، ثم عطف من غير أن يعلم أحد حتى وصل إلى «رعبان» ، فنزل عليها ، وأقام أيامًا لا يقاتلها ، في شهر رمضان ، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

واستغل بلدها ، فلبس «سربك» سلاحه ، وركب ، وحوله جماعة ، قد لبسوا ، وفتح باب القلعة ، ونزل إلى السّلطان ، والتمس منه العفو

(١) لم نقع في المصادر بين أيدينا على كامل اسمه .

فعفا عنه . وردّ «رعبان» إليه ، وسار إلى حلب ، فأقام بها الى أول ذي الحجة من سنة ثلاث وتسعين .

هجوم الفرنج

العادل في الغور

وكان الملك العادل قد سار إلى «الغور»[1] لحركة الفرنج ، واستصحب معه نجدة من الملك الظّاهر ، فوصلت رسله إلى السّلطان الملك الظاهر ، يخبره أن الفرنج[2] قد عزموا على قصد جبلة واللّاذقية فخرج الملك الظاهر إلى «الأثارب» ، وسيّر الحجّارين والزرّاقين ، لهدم[3] حصنَيْ جبلة واللّاذقية . وسار «المبارز أقجا»[4] لهدم «جبلة» ، فهدموا سورها ودورها ، وأجلى أهلَها منها . ٥

غزو اللاذقية

وسار غرس الدين قلج ، وابن طمان ، لهدم اللّاذقية ، فنقبوا القلعــة ، وعلّقوها ، ورفعوا ذخائرها ، وهدموا المدينة ، وذهب أهلها ، وبقي العسكر منتظرًا وصول العدوّ ، ليلقوا النار في الأخشاب المحشوّة || في الأنقاب ، فلم يصل أحد منهم . ١٠ [٢٢٧ و]

وجاء البرنس في البحر تحت «المرقب»[5] ، وطلب غرسَ الدّين

(١) غور الأردن : بين دمشق والقدس ، وهو واد مخصب – انظر مراصد الاطلاع ١٠٠٤/٢ .

(٢) في مفرج الكروب ٧١/٣ : «وفي هذه السنة تحركت الفرنج لقصد بلاد الاسلام ، فخرج الملك العادل بالعساكر ، فخيم بالعقبة ، وهي قريب من صور» .

(٣) في مفرج الكروب : «وأمرهم بهدم ربض بيروت ففعلوا» .

(٤) الاسم مصحف هنا ، وقد ذكر صحيحه مفرج الكروب ١٦٥/٣ : «مبارز الدين أقجا» .

(٥) المَرْقَب : بلدة وقلعة حصينة تشرف على سواحل بحر الشام ، وعلى مدينة بانياس ، وهي على ساحل جبلة ، كما في مراصد الاطلاع ١٢٦٠/٣ .

وابنَ طمان فوصلا إليه ، وكلّماه على جانب البحر ، فأشار عليهما بأن لا تهدم اللّاذقية، وأخبرهما أن الفرنج فتحوا « صيدا » و « بيروت » ، وعادوا إلى « صور » .

فسيّرا وأعلما السلطان وهو « بريحا »[1] ، فأمر ببناء ما استهدم منها ، وسار إلى « حارم » ، فوصلها في محرّم سنة أربع وتسعين . ٥ وأقام بها مدّة ، ثم رحل إلى اللّاذقية ، فعمّرها وعمّر ضياعها ، وتوجه إلى حلب .

وتوفّي غرس الدّين قلج ، فعصى أولادُه بالقلاع التي كانت بيده ، وهي : « دركوش »[2] ، و « الشغر » ، و « بكاس » ، و « شقيف الروج »[3] ، ١٠ وامتنعوا من تسليمها إلى الملك الظاهر[4] . فخرج إليها ، ونازلها ، وأخذ عليها النقوب ، واستنزلهم منها ، وصفح عن جرمهم ، وأجرى لهم المعيشة السنيّة ، وتقدّم عنده منهم : سيف الدين عليّ بن قلج .

---

(١) في مراصد الاطلاع ٦٤٨/٢ : «أريحا : في جند فلسطين، وريحا : بغير ألف — بليدة بنواحي حلب، أنزه بلاد الله وأطيبها، وربما فرّق بين الموضعين بالألف في الأولى دون الثانية» .

(٢) دركوش : حصن قرب أنطاكية — وأما الشغر وبكاس فقد عاقنا عليهما قبل صفحات .

(٣) الشقيف : كالكهف — والرّوج : كورة من كور حلب المشهورة ، في غربيها ، بينها وبين المعرة — انظر مراصد الاطلاع ، وانظر مفرج الكروب ٨١/٣ .

(٤) في مفرج الكروب ٨١/٣ : « فلما مات غرس الدين عصى ابنه شمس الدين محمود بن قلج ، وهو الأكبر ، بالشغر وبكاس ، وعصى أخوه سيف الدين على شقيف دركوش على الملك الظاهر صاحب حلب» — ونلاحظ أن الناشر صحف الكلمات فجعل المدينة « دركوش » أو « وركوس » . وتفصيل الأمان الذي طلبه أولاده جاء في مفرج الكروب بهذه الصفحة .

ودخلت سنة خمس وتسعين

موت العزيز

ومات الملك العزيز[1] بمصر ، واختلف أمراؤها ، فمال الأسديّة إلى الملك الأفضل . والناصريّة إلى الملك العادل .

وانقادَ الناصريّة على نيّاتٍ غير موافقة ، واستدعوا الملكَ الأفضلَ ، فسار من « صرخد » إلى مصر ودخلها . وتلقّاه إخوته على مرحلتيْن منها ، واستوثقوا منه بالأيمان ، على أن يكون كافلاً للملك المنصور « محمد ابن الملك العزيز »[2] ومربّيًا له .

الافضل في مصر

وخرج الجحاف ، وجهاركس[3] ، إلى « ميمون » إلى القدس ، فقيّد « الملك الأفضل » أخاه « الملك المؤيّد » وجماعة من الأمراء كاتبوا « الملك العادل » ، وأرسل الملك الظّاهر وزيره || نظامَ الدين أبا المؤيد محمد بن الحسين ، إلى أخيه الملك الأفضل ، مهنئًا له بولاية مصر ، فأقام عنده مدّة ، والرسل تتردَّد إليه من « الملك الظّاهر » في الاتفاق على الملك . [٢٢٧ ظ]

وكان الملك العادل ، إذ ذاك محاصرًا « ماردين » ، وقد أشرف على أخذها ، فسار الملكُ الأفضلُ إلى دمشق ، وخرج الملك الظاهر إلى « حارم » ، لغدر وقع من الفرنج بناحية « العمق »[4] ، أغاروا

(١) في مفرج الكروب ٨٢/٣ ، حادث وفاة العزيز ، بأن اعترضه ذئب فركض خلفه فعثر به فرسه ، فسقط إلى الأرض فحم من ساعته ، وانتقل منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم ، فكانت مدة ملكه ست سنين إلاّ شهرًا ، وكانت مدة عمره سبعاً وعشرين سنة وأشهراً .

(٢) تفصيل الأمر في مفرج الكروب ٨٧/٣ ، وكذلك ذكر تمليك الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك العزيز ، وعمره يوم توفي والده تسع سنين وشهوراً .

(٣) هو فخر الدين جهاركس — وخبر الكتابة في مفرج الكروب .

(٤) العمق : كورة بنواحي حلب ، وقد ذكرناها فيما سبق من صفحات .

على التركمان ، في تلك الناحية . وسيّر بعضَ العسكر إلى «خناصرة[1]» ليقطع الطريق على الملك العادل إنْ توجَّه الى دمشق .

وصالح الملكُ الظَّاهرُ الفرنجَ ورحلَ إلى «مرج قراحصار» في سلخ رجب من سنة خمس وتسعين .

وُصُولُ العَـادِلِ إلى دمشق

٥

العادل في دمشق

وسار الملكُ العادلُ حتى بلغ الى «تدمر» ، وسار في البرية الى دمشق ، ونزل الملك الأفضل على دمشق ، في نصف شعبان من السنة . ونزل بعضُ عسكره في «الميدان»[2] ، وهجم بعضُ العسكر المدينةَ بمخامرة من أهلها ، ونادوا بشعار الملك الأفضل[3] .

١٠ وكان مجدُ الدّين[4] — أخو الفقيه عيسى — هو الَّذي دخل منها حتّى بلغ السّوق ، وشربوا الفقاع ، فخرج الملك العادل ، من القلعة ، وأخرجهم من البلد .

وخامر بعضُ العسكر على «الملك الأفضل» ، ودخلوا في اللَّيل الى دمشق ، فاختلّ الأمر عند ذلك ، وتأخر الملكُ الأفضل الى «جسر

١٥ الخَشب»[5] .

(١) خناصرة : بليدة من أعمال حلب ، تحاذي قنسرين ، نحو البادية — انظر مراصد ٤٨٣/١ .

(٢) الميدان : انظر الأعلاق ، قسم دمشق ، تحقيقنا .

(٣) تفصيل الأمر في مفرج الكروب ٩١/٣ .

(٤) في مفرج الكروب ٩٦/٣ : «وتقدم مجد الدين أخو الفقيه عيسى الهكاري في جمع من العسكر قليل ، فهجموا دمشق من باب السلامة» .

(٥) في مفرج الكروب ٩٥/٣ : «ونزل الملك الأفضل على جسر الخشب ثالث عشر شعبان» — وتفصيل الموضوع في المفرج .

وسار الملك الظَّاهر إلى حماة ، فالتقى سيف الدين طغرل[١] الظَّاهري قطعةً من عسكر حماة سائرة الى منبج فظفر بها « طغرل » وأسرَ رجالها ، وأحضرَهم الى الملك الظاهر ، فأطلقهم بعدّتهم ودوابّهم .

ولما وصل الملك الظاهر إلى « حماة » ، منعه عسكرها من العبور على الجسر || فعبر قهرًا ، ونزل عليها ، وقاتلها ، فهادنه الملكُ المنصورُ [٢٢٨ و] صاحبها ، وأخرج اليه تقدمةً سنيةً ، وسيّر عسكره في خدمته ، فأقطعه الملكُ الظاهر « بارين »[٢] وكانت في يد ابن المقدّم[٣] ، فخرج صاحب « حماة » إليها محاصرًا لها .

الظاهر حول دمشق

وسيَّر الملك الظاهرُ إلى « الموصل » رسولًا يأمر صاحبَها بانجاد « ماردين » ، وترحيل الملك الكامل والملك العادل عنها ، ووصل الملكُ الظَّاهرُ الى دمشق ، واجتمع بالملك الأفضل في منزلته[٤] ، وخيموا بأرض « داريّا »[٥] ، ثم إنَّهم زحفوا على المدينة ، وقاتلوها .

وبلغ الملكَ الظاهرَ أنَّ « جهاركس » و « أسامة » و « سراسنقر » وغيرهم ، قد عزموا على الدخول إلى دمشق ، نجدة للملك العادل ، فسيّر الملكُ الظاهرُ عسكرًا مقدّمه « سيف الدّين ابن علم الدّين » ، ليمنعوهم من الدخول ، فاختلفوا في الطريق ، ودخل المذكورون إلى

(١) في مفرج الكروب ٣/٩٧ : « طغرل المهراني » .

(٢) بارين : ذكرنا قبل قليل أنها مدينة بين حلب وحماة ، والعامة تقول بعرين وهي في مفرج الكروب ٣/٩٨ : « واستأذنه في قصد بعرين » .

(٣) هو عز الدين ابن المقدّم .

(٤) في مفرج الكروب ٣/٩٩ : « ثم تقدم الملك الأفضل والملك الظاهر الى دمشق ، ونزلا فوق مسجد القدم » .

(٥) داريا : قرية قرب دمشق — انظر «غوطة دمشق» لمحمد كرد علي ، ط. ١٩٥٣.

الملك العادل ، فاشتدّ بهم أزره ، ولم يكن ينصح في القتال ، وقت الحصار غيرُ العسكر الحلبيّ ، فأما المصري فأكثره منافقٌ .

ووصل المواصلة إلى «ماردين» ؛ ورحَّلوا الملكَ الكامل عنها ، ونهبوا ما كان لعسكره بها ، فضربت البشائر خارجَ دمشق في العسكر[1] .

٥ وسيَّر الملك «الظَّاهر» عسكرًا ، مقدَّمه «سيف الدّين» المذكور إلى الشرق ، ليجتمعوا مع المواصلة ، ويحصروا بلادَ الملك العادل بالشَّرق ، وأقطع سيفَ الدّين «سروج» ، وكان الأمر قد استقرَّ مع المواصلة ، أن يردَّ إليهم سروج والرَّقَّة . فلما علموا بأنَّ السلطان أقطعَ سيفَ الدين ‖ «سروج» انحرفوا عنه ، وعادوا ، وخرج عسكر الرّها ، [٢٢٨ ظ]
١٠ فوقعوا على سيف الدين فانهزم عن سروج .

وفتح الملكُ المنصورُ صاحبُ حماة «بارين» في ذي القعدة من ابن المقدَّم ، وعوّضه عنها بمنبج ، بعد ذلك — على ما سنذكره فيما بعد —

ووصلت رسُل الشَّرق إلى الملك الظَّاهر — وهو على دمشق — واتفقوا
١٥ على أن يكون لصاحب الموصل حرَّان ، والرُّها ، والرَّقة ، وسروج ، وأن يكونوا يدًا واحدة على مَنْ خالفهم ، وتحالفوا على ذلك ، في ذي الحجّة من سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

مضايقة دمشق

ودخلت سنة ستّ وتسعين ، والحصار على دمشق على حاله[2] ، وأكثر الأجناد يحملون الأزواد في اللَّيل ،

---

(١) انظر التفصيل في مفرج الكروب ٣/١٠٢ .

(٢) في مفرج الكروب ٣/١٠٤ : «لما اشتد الحصار على الملك العادل بدمشق وغلت الأقوات ، وقلّ ما بيده فارقه جماعة من أصحابه» — وفي هذا الكتاب طلب الجنود من مليكهم بأن يستدعي ولده الملك الكامل من الشرق بجميع من معــه من العسكر ويستصحب معه من الأموال ما يقوى به .

ويبيعونه على أهلِ البلد ، فأخرج الملكُ العادلُ خزائنه جميعها ، ثم اقترض من التُّجار جملةً كبيرةً ، وأمر بعمل الرّوايا والقرب ، للصعود إلى مصر ، واستدعى ابنَه الملكَ الكاملَ من البلاد الشرقيّة ، فجمع[1] وحشد .

٥ وسيّر الملكُ الظاهرُ إلى سيف الدّين ابن علم الدّين ، وإلى الملك المنصور صاحب حماة ، فاجتمعوا على «سلمية» ليمنعوا الملك الكاملَ من العبور ، فعبر في جيش عظيم ، لم يكن لهما به طاقة ، فانحازوا إلى «حماة» ، وساق سيف الدين ابن علم الدين ، وأعلم السلطان الملك الظّاهر بذلك .

رحيل الظاهر

١٠ ووصل الملكُ الكاملُ الى دمشق ، فرحل الملكُ الظّاهر ، والملكُ الأفضل ، إلى «مرج الصُّفر»[2] ، ثم إلى «رأس المآء» .

ورحل الملكُ الظّاهرُ ، وأخفى نفسه جريدة إلى ناحية «صرخد» ومعه الملك ‖ المجاهد صاحب حمص ، وسار إلى طرف «السّماوة» ، [٢٢٩ و] ١٥ وخرجوا إلى «تدمر» . وسار الملك الظّاهر الى حلب ، ووصل بعده بغال الثقل ، دون الحمال على البريّة ، حتى وصلوا الى «القريتين»[3] ، ولحقهم الملكُ الكاملُ «بالقريتين» ، وهو مسرع الى الشرق ، ووقع عسكرُ حلب على قطعة من أصحابه ، فظفروا بهم .

(١) في مفرج الكروب : «ووصل الملك الكامل بمن معه من العسكر ومن معه من المال سالماً فقويت نفس أبيه به قوة عظيمة ، وأيقن بظهور أمره واستيلائه» .

(٢) مرج الصفر : ذكرنا في الجزء الثاني من الزبدة ٨٢/٢ أنه سهل في شمالي دمشق على بعد ٣٣ كيلومتراً منها — انظر في رحيل الملكين في مفرج الكروب ١٠٧/٣ .

(٣) في مفرج الكروب ١٠٧/٣ : «فسار الملك الظاهر على القريتين» — والقريتان : قرية كبيرة من أعمال حمص ، في طريق البرية ، بعد تدمر إلى جهة دمشق واسمها حوارين — انظر مراصد الاطلاع ١٠٨٦/٣ .

فلما وصل الملك الكامل ، وقد دخل ثقلُ السُّلطان إلى «القريتين» ، سيّر إلى مقدّم عسكر حلب «علمِ الدين قيصر الناصريّ» ، واستدعاه ، وقال له : «ما بيننا وبينكم إلّا الخير ، وما جئنا لنتبعكم ، فردّوا علينا ما أخذتم لنا» . ففعل ذلك ، وسار الملكُ الكاملُ الى الشرق ، ووصلت البغال إلى حلب ، في تاسع عشر شهر ربيع الأوّل . ٥

وأما الملكُ الأفضل[١] ، فانّه توجّه من «رأس المآء» الى مصر ، وتوجّه ثقلُ الملك الظاهر وخزانتُه معه إلى مصر . وخرج الملكُ العادل من دمشق ، وسار خلفه إلى مصر ، فدخلها ، وهربَ الملكُ الأفضل إلى «صرخد»[٢] .

العادل في مصر

١٠ واستولى الملكُ العادلُ على الديار المصرية ، في صورة الكافل[٣] ، والمربّي ، للملك المنصور محمد بن العزيز ، وسيّر خزانةَ «الملك الظّاهر» ، وبقيةَ ثقله جميعه إليه ؛ وخفرَ أصحابَه حتى وصلوا إلى حلب ، في نصف جُمادى الأولى ، والسّلطان «بتلّ السلطان» ، فدخل الى حلب .

١٥ ووصلته رسلُ الملك العادل تطلب منه الموافقةَ ، فلم يجبهم إلى ذلك ، وخرج إلى «بكاس» و «حارم» فمرض . ودخل حلب ، واشتدَّ مرضُه ، وطلب اليه إلى القلعة الزهاد[٤] الّذين كانوا بحلب ،

(١) في مفرج الكروب ١٠٨/٣ : «ولما سافر الملك الأفضل راجعاً إلى مصر ، رحل الملك العادل من دمشق ومعه الأمراء الصلاحية» .

(٢) انظر كلام العادل الذي يوجهه إلى الأفضل ، في مفرج الكروب .

(٣) في مفرج الكروب ١١٠/٣ : «ووافقوا على أن يكون أتابكا للملك المنصور» .

(٤) في الأصل عندنا وفي نسخة لننغراد : «وطلب اليه الى القلعة الزهاد الذين كانوا بحلب» — ولعلّ التصحيف واقع ، فهو يريد أن يقول : «وطلب اليه من في القلعة من الزهاد» فقد أراد الملك أن يدعوا له بالشفاء وقد فعلوا ، أو لعله يريد : «وطلب اليه والى القلعة بالزهاد الذين كانوا بحلب» فأنقص الواو من النسختين ، وفوق كل ذي علم عليم .

[٢٢٩ ظ] مثل أبي الحسن الفاسي ، وعمّي أبي ‖ غانم ، وعبد الرحمن ابن الأستاذ ، وسألهم الدّعاء ، وتبرك بهم ، وأزال مظالم كثيرة . ثم أبلّ من مرضه ذلك ، في ذي الحجة من سنة ستّ وتسعين .

وانفصل عنه صاحب 〈حمص〉[1] وصاحب حماة ، وصارا مع عمّه الملك العادل ، وعوَّض صاحب حماة عزّ الدّين ابن المقدّم بمنبج ٥ عن «بارين» ، باشارة الملك العادل . ومات ابن المقدّم بأفامية ، وصار فيها أخ له صغير[2] .

واستقلّ الملكُ العادل بملك مصر[3] ، وقطع الخطبة والسكَّة للملك المنصور ابن العزيز ، واختلف جندها ، فمنهم من مال إلى تمليك الملك العادل ، وأقام في خدمته ، ومنهم من كان يريد ابن العزيز ، ١٠ فانفصل منهم جهاركس ، والجحاف ، وغيرهما ، فانهم انفصلوا عن مصر ، واتفقوا مع الملك الأفضل .

عودة الافضل

فوصل الملك الأفضل إلى أخيه السلطان الملك الظاهر إلى حلب ، في عاشر جمادى الأولى من سنة سبع وتسعين وخمسمائة . ووصل معه الجحاف ، وأخبراه أن جهاركس «بالغور» ، ١٥ مع العسكر . واتفقوا على محاصرة دمشق .

وسيّر الملك الظاهر الى الموصل بطلب نجدة تصله ، وبرز مع أخيه الأفضل ، وقصدا منبج ، ففتحها الملك الظَّاهر ، وقبض على ابن المقدّم وحبسه ، وأقطعها الجحاف ، بعد أن خرب حصنها .

(١) كلمة مطموسة في نسخة باريس ، أخذناها عن نسخة لننغراد .

(٢) في مفرج الكروب ١٢٠/٣ : «وفي هذه السنة توفي عز الدين ابرهيم بن المقدم، وصارت البلاد بعده ، وهي منبج ، وقلعة نجم ، وكفرطاب وأفامية ، لأخيه شمس الدين عبد الملك بن المقدم» .

(٣) انظر تفصيل ذلك في السلوك للمقريزي ١٥٢/١ .

وكان ابن فاخر سعد الدّين مسعود[١] بقلعة نجم ، نائبًا عن ابن المقدّم ، وأخته معه ، فسلّمها إلى « الملك الظّاهر » ، وعوضه « بمائز » – قرية من بلد عزاز – وسلّمها الملك الظّاهر الى الأفضل .

وسار إلى أفامية ، ومعه ابن المقدم[٢] ، فعاقبه تحتها ليسلّموا اليه ، فلم يسلّموا ، ‖ فسيّره ، وحبسه بحلب ، وأقام بكفرطاب ، واستولى [٢٣٠ و] على بلدها ، ونزل بمعرة النعمان ، ونهب بلدها ، وأخذ ما فيها لبيت المال ، وسار إلى حماة[٣] ، فنزل عليها ، في شعبان ، وقاتلها الى أن صالحه الملك المنصور صاحبها ، ووزن له ثلاثين ألف دينار[٤] ، ووافقه .

حصار دمشق

وسار إلى حمص ، فصالح الملك المجاهد صاحبها ، ووافقه ، وسار إلى دمشق فنازلها ، واستدعى «جهاركس» و «قراجا »[٥] من الغور ، فدافعا عن الوصول ، فسار السلطان الملك الظاهر اليهما بنفسه ، ولاطفهما حتى رحلا معه ، بعد أن أعطى الملك الأفضل قراجا «صرخد» ، وأخرج أمه وعياله منها[٦] ، ونزلوا على دمشق ، وعزموا على قتالها ، ففند جهاركس عن ذلك ، وكان قد

(١) في مفرج الكروب ١٢١/٣ : « ثم سار الملك الظاهر إلى قلعة نجم ، وبها سعد الدين بن فاخر نائباً عن ابن المقدم ، فنازلها وضايقها ثم تسلمها في آخر رجب » .
(٢) في مفرج الكروب ١٢٢/٣ : « ثم توجه الملك الظاهر الى أفامية ، واستحضر شمس الدين ابن المقدم وكان معتقلاً بحلب » .
(٣) في مفرج الكروب ١٢٢/٣ : « ثم توجه الملك الظاهر الى حماة ونازلها محاصراً لها لثلاث بقين من شعبان من هذه السنة » .
(٤) في مفرج الكروب : « ثم وقع الصلح بينه وبين المنصور على ما بذله له الملك المنصور ، قيل إن مبلغه ثلاثون ألف دينار صورية » .
(٥) فخر الدين جهاركس ، وزين الدين قراجا .
(٦) في مفرج الكروب ١٢٤/٣ : « وسلمت صرخد إلى قراجا ، وأنزل الملك الأفضل والدته وأهله منها ، وسيّرهم إلى حمص » .

صار في الباقين مع الملك العادل ، وقال : «المصلحة أننا نلقى الملك العادل ، فاذا كسرناه تمّ لنا ما نريد» .

العادل في نابلس

وكان الملك العادل قد نزل من مصر إلى «الكرك» ، ثم توجّه الى نابلس ، فلما رأى جهاركس جدّ الملك الظّاهر على حصار دمشق ، هرب من العسكر الى الملك العادل الى نابلس ، ٥ وهرب قراجا الى صرخـد ، وعصى بها ، وتركا خيامهما على حالها وبركتهما ، فأنهب السلطان الملك الظاهر ذلك جميعه ، ثم زحف بالعساكر على دمشق ، وقاتلوها قتالاً شديدًا ، وأحرقوا «العقيبة[1]» ، ونهبوا الخانات .

وراسل الملك العادل صاحب الموصل ، فاتفق معه ، ورجع عن ١٠ الملك الظاهر ، بعد أن وصل إلى «رأس عين»[2] .

وسار الملك «الفائز بن العادل»[3] من البلاد الشرقية ، طالبًا تشعيث بلاد السلطان الملك الظاهر ، وشغل خاطره عن حصار دمشق ، فسيّر ‖ الملك الظاهر «المبارز أقجا» – وكان من أكبر أمراء حلب – [٢٣٠ ظ] ومعه بعض العسكر ، فنزل على «بالس» ونهبها ، وسار إلى «منبج» ١٥ فنزلها ، فوصل الملك «الفائز» اليها ، فانهزم بمن كان معه من العسكر إلى «بزاعا» ، ودخلها الفائز ، وبني قلعتها وحصّنها ، وسار منها طالبًا عسكر حلب إلى «بزاعَا» ، فاندفعوا بين يديه إلى حلب ، وأقام على بزاعَا أيامًا ، وجفل بلد حلب خوفًا منه ، وهرب فلّاحوه .

(١) العقيبة : من أحياء دمشق المعروفة اليوم .

(٢) رأس عين : علقنا في الجزء الثاني من الزبدة ٢٧١/٢ وقلنا إنها من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر .

(٣) في مفرج الكروب : «وكان بحرّان الملك الفائز ابراهيم ابن الملك العادل ومعه عسكر» .

ورحل إلى أبيه إلى نابلس ، فسيّر الملك العادل نجدة تدخل إلى دمشق ، فبلغ حديثها الملك الظاهر ، وقد أحدقت العساكر بدمشق ، فكمن لهم كمينًا ، فوقعوا عليهم ، وقتلوا منهم جمعًا كثيرًا ، وانهزم بعضهم ، ولم يدخل إلى المدينة إلّا القليل . ونكث صاحب حماة ، ٥ وخرج إلى ناحية «الروج» ، وأغار عليه ، ونهب رستاق «شيزر» .

وسار عسكر حلب الى منبج ، فلم يجد فيها مطمعًا ، واستدعاهم الملك الظاهر ، فمضوا اليه إلى دمشق ، وطال الحصار ، وضجر العسكر ، وهرب شقير[1] ، والجحاف ، بعد استيلاء الفائز على منبج ، وكانت خير الجحاف .

الافضل والظاهر

١٠ ووقع الخلف[2] بين الملك الأفضل والملك الظاهر على دمشق ، فالملك الظاهر يريدها لنفسه ، لأنه أخرج الخزائن ، وبذل الأموال ، وحصرها بعسكره ، والملك الأفضل يريدها لنفسه لأنها بلده ، وأنه أخرج «صرخد» من يده بسببها . وحصل بينهما منافرة أوجبت رحيل الملك الظاهر[3] ، ومعه ميمون القصري ، ١٥ وسراسنقر ، وأيبك فطيس ، والبكي الفارس ، والقبيسي .

ورحل الملك الأفضل[4] فنزل حمص ، عند صاحبها الملك ‖ المجاهد ، وزوّج ابنه «الملك المنصور ابراهيم» بابنة الملك الأفضل . [٢٣١ و]

(١) علاء الدين شقير .

(٢) السلوك ١٥٥/١ : «فوقع بينهما الاختلاف بمكيدة دبرها العادل ، ففترت الهمة عن القتال . وذلك أن العادل كتب إلى الأفضل والى الظاهر سرًا بأن أخاك لا يريد دمشق إلاّ لنفسه» — وفي تاريخ أبي الفداء ١٠٢/٢ يعزو سبب الخلاف إلى مملوك يحبه الملك الظاهر دخل دمشق ؟! وجاء مثله في تاريخ ابن الوردى ١١٥/٢ .

(٣) في السلوك ١٥٨/١ : «فصار الظاهر إلى حلب ومعه جماعة من الأمراء الصلاحية منهم فارس الدين ميمون القصرى وسراسنقر والفارس البكي» .

(٤) في السلوك ١٥٩/١ : «وتوجه الملك الأفضل الى حمص وبها أمه وأهله عند الملك المجاهد» — انظر مفرج الكروب ١٢٩/٣.

الظاهر في حماة

وسار الملك الظاهر الى حماة ، فأغار عليها ، وشعّث بلدها ، وصانع صاحبها الملك المنصور ، على مالٍ أخذه منه ، وسار إلى منبج ، وعزم على أن يهجمها بالسيف ، ويقتل جميع من بها ، لأنهم قاموا مع الملك « الفائز » ، فشفع اليه الأمراء في أن يسلّموها طائعين ، ويعفو عنهم ، فتسلّمها ، وأقطعها ابن المشطوب ، في المحرّم من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . ٥

ثم دخل الى حلب ، وأقطع ميمون القصري[1] عزاز ، وشيح ، وبلد الحوّار ، وأقطع أيبك فطيس أقطاعًا أرضاه ، وعاد عنه سراسنقر ، وتسلّم السلطان أفاميّة من ابن المقدّم ، وعوضه عنها « بالراوندان » . ١٠

وتوفي وزير السّلطان الملك الظاهر « جمال الدين أبو غالب عبد الواحد ابن الحُصين البغدادي » في شعبان سنة سبع وتسعين ، وكان في خدمة أبيه الملك الناصر ، فانتقل بعد موته الى حلب ، ووزر له ، وصار وزيره بعده نظام الدين أبو المؤيد محمد بن الحسين .

العادل في دمشق

ووصل الملك العادل الى دمشق ، فتوجّه اليه الملك المجاهد صاحب حمص ، ومعه الملك الأفضل ، وترقّق اليه ، فأعطى الملك الأفضل « شيحتان » و « جملين » و « الموزر »[2] و « قلعة السنّ »[3] و « سميساط » . وسار إليها الملك الأفضل ، ونزل الملك العادل إلى حماة ، وراسل الملك الظّاهر ، حتى استقرّ الصلح بينه وبينه ، ١٥

(١) في مفرج الكروب ١٣١/٣ : « فاقطع الملك الظاهر ميمون القصري عزّاز وأماكن أخرى ، وحمل اليه ثمانين ألف درهم ... وحمل إلى ألبكي وأسد الدين سرا سنقر دون ذلك فلم تطب قلوبهما به » .

(٢) ذكرنا في الزبدة ٢٧٧/٢ أن جملين والموزر قلعتان على يوم من حرّان بين ديار بكر وديار مضر .

(٣) قلعة السن ، كذلك بالجزيرة قرب سميساط ، انظر الزبدة ٤٢/٢ .

على أن خطب له الملك الظاهر بحلب ، وضرب السكّة باسمه مع اسمه ، في شهر جمادى الآخرة ، من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

[٢٣١ ظ] وصعد الرسول ‖ شمس الدين بن التنَبي[1] الى المنبر ، وقت اقامة الدعوة له ، يوم الجمعة ، ونثر ذهبًا كثيرًا على الناس . وبلغ الملك

٥ الظاهر ، عن ابن المشطوب[2] ، أنّه كان قد عزم على المخامرة ، فسيّر إلى «منبج» العسكر ، وأخذها منه ، وعفا عنه ، وهدم قلعتها وسورها ، فمضى ابن المشطوب الى الشرق .

وجمع الملك الظّاهر العرب في دابق ، لأخذ العداد منهم ، وخاف ابن المقدّم منه ، فهرب الى «الراوندان» ، ليعصي بها ، فسار الملك

١٠ الظاهر خلفه ، ولم يمهله ، فلم يبت في قلعتها غير ليلة واحدة . ومضى الى «بدر الدين دلدرم» ، بتل باشر ، منهزمًا من السلطان . فوصل السلطان اليها ، ونزل عليها محاصرًا لها ، فسلّمها من كان بها اليه ، وحاز جميع ما كان فيها من الذخائر والأموال ، ورتّب أمورها .

وسار منها إلى منبج ، وسيّر نجدة للملك الكامل ابن عمه العادل ، وكان

١٥ نازلًا على «ماردين» ، لأن صاحبها صار مع ركن الدين ابن قلج رسلان ، ونزل السلطان في «بدّايا» ، واتفق الأمر بينه وبين [صاحب] [3] «ماردين» وابن الملك على الصلح ، فعاد إلى حلب بعد أن توجه الى «البيرة» .

أمام اللاذقية

وخرج من البحر جمع كبير من الفرنج ، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة . ووصلت طائفة منهم إلى جهة

---

(١) في الأصل بالنسختين ، بدت الكلمة غير واضحة ، فأخذنا برواية مفرج الكروب : «شمس الدين بن التنبي» .

(٢) في أبي الفداء ١٠٦/٢ : «خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفاً من انتزاعها منه ، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين أحمد بن سيف الدين عليّ بن أحمد المشطوب» .

(٣) كلمة ناقصة في المخطوطتين فأضفناها للسياق .

«انطاكية» ، مجتازة على اللاذقية في البر ، وكان مقطع اللاذقية إذ ذاك ، سيف الدّين ابن علم الدين . وعبروا في أرض الّلاذقيّة ، على كره من المسلمين ، وفي عزمهم إنْ رأوا لهم طمعًا في الّلاذقية يأخذوها .

[٢٣٢ و] فخرج سيف الدّين بعسكره ، والتقوا ، ونصره || الله عليهم ، وأسر ملوكهم ومقدّميهم — وكان ملكهم أعور — وقتل منهم جمعًا كثيرًا ، ٥ ووصل الأسرى ، والملك ، والرؤوس ، والخيل ، والسلاح ، إلى حلب وكانت غنيمة عظيمة .

عصيان الافضل

وعصى الملك الأفضل على عمّه الملك العادل ، في البلاد التي كان أعطاه إيّاها ، فسيّر ، واستعاد منه شيحتان ، ١٠ وجملين ، والموزر ، وسروج ، والسنّ ، وسار الملك الظاهر إلى «قلعة نجم» ، فأخذها من الملك الأفضل[1] خوفًا أن يستولي عليها عمّه ، وكان «الملك الظّاهر» قد سلّمها إلى الأفضل ، فوصلت أمّ الملك الأفضل إلى حلب ، تسأل الملك الظاهر ، سؤال عمه فيه ، وفي ردّ البلاد عليه ، فسيّر معها إلى دمشق «سيف الدّين ابن علم الدّين» ١٥ في ذلك ، فلم يجب إلى ترك شيء من البلاد عليه ، سوى «سميساط» . وشرط عليه أن لا تكون له حركة بعد ذلك .

(١) في ابن الأثير ٢٦٠/٩ : «وكان هذا من أقبح ما سمع عن ملك يزاحم أخاه في مثل قلعة نجم مع خستها وحقارتها» .

ودخلت سنة ستمائة

خراب جبلة

ووصلت الأخبار بحركة الفرنج إلى «جبلة» و«اللّاذقية»[١]، فسيّر السّلطان إليها العساكر، وأمرهم بخراب «جبلة» و«اللّاذقيّة»، فلم يكن للفرنج حركة. وخربت قلعة «اللاذقية» و«العتيقة» – وكانت من جهة الشمال – وذلك بعد أن أخذت اللاذقية من ابن جند، وسيف الدين ابن علم الدين.

ولادة الصالح

ووُلد للسُّلطان «الملك الظّاهر»[٢] ولده، الملكُ «الصّالح أحمد» في صفر، وسر به سرورًا عظيمًا، وزيّن البلد والقلعة، ولبس العسكر في أجمل هيئة وزيّ. ولبس السلطان، ولعب العسكر معه في ميدان «باب الصغير»[٣].

***

[٢٣٢ ظ]

وفي محرّم سنة إحدى وستّمائة، هجم || ملكُ الأرمن «ابن لاون»[٤] – وهو من ولد «بردس الفقاس»، الذي كان في زمن سيف الدّولة [صاحب][٥] أنطاكية – فسيّر الملكُ الظاهر عسكرًا من حلب، لنجدة البرنس صاحبها[٦].

(١) في مفرج الكروب ١٦٦/٣: «وفي ذي القعدة من هذه السنة أغارت فرنج اطرابلس على جبلة واللاذقية، وكمنوا قطعة وافرة منهم، وسرّحوا جماعة تراءوا لأهل جبلة».

(٢) في مفرج الكروب: «وفي حادي عشر شوال من هذه السنة، ولد الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر صاحب حلب وأمه أم ولد».

(٣) باب الصغير: من أحياء دمشق الآهلة اليوم.

(٤) في مفرج الكروب ١٧٠/٣: «في هذه السنة أغار ابن لاون ملك الأرمن على التركمان وهم نازلون بالنهر الأسود».

(٥) كلمة سها الناسخ في المخطوطتين عن وضعها فاضفناها للسياق – وفي أنطاكية: انظر الزبدة، بتحقيقنا ١٢٣/١.

(٦) في مفرج الكروب: «فبعث الملك الظاهر سيف الدين بن علم الدين بن جندر، وفارس الدين ميمون القصري الى حارم، وسار بعساكره حتى خيم على مرج دابق، وجمع اليه خلقاً من التركمان ... فأرسل ابن لاون الى الملك الظاهر في أن يردّ جميع ما أخذ، وطلب رسولا يتحدث معه».

هجوم الأرمن

فلما وصلوا الى «العاصي»، ضعف أمر ابن «لاون» عندهم، وقاموا عليه، وأخرجوه منها، وقتلوا جماعة كبيرة من أصحابه، فعاد عسكر حلب اليها، ففسخ «ابن لاون» الهدنة، وأغار على بلد العمق[1]، واستاق مواشيها، وشرع في عمارة حصن داثر في الجبل، بالقرب من «دربساك»، ليضيّق به عليها. ٥

هجوم على انطاكيه

وأرسل إلى السلطان، وسأله أن يخلي بينه وبين «أنطاكية». وأن يعيد جميع ما أخذه من «العمق»، فأجابه إلى ذلك، وهادنه على هذا الأمر. ونزل على «أنطاكية»، وخرّب رستاقها، ووقع فيها غلاء عظيم، فكان الملك الظّاهر يمدّ أهل «أنطاكية» بالغلال، حتى قويت. ١٠

(١) في مفرج الكروب: «ولما تحقق ابن لاون طُمأنينة الناس سار الى حارم وضرب على العسكر النازل حولها وقت الصباح».

ودخلت سنة اثنتين وستمائة

فجرّد « ابنُ لاون »[1] في جمادى الأولى ، في اللّيل ، عسكرًا في ليلة الميلاد ، وجاء على غفلة إلى ربض « دربساك » ، فلم ينكروا وقود النار في ليلة الميلاد ، فقاتلهم أهل الربض ومَن به من الأجناد ، في بيوت الربض ، فلم يظفروا منهم بطائل ، وطاع الفجر ، فانتشروا في أرض « العمق » ، ونهبوا من كان فيه من التركمان ، وداموا الى ضحوة ذلك النّهار ، ورجعوا .

في جبل اللكام

وابتدرت عساكر تلك الناحية من المسلمين فلم يدركوهم ، ودخل الأرمن إلى « جبل اللّكام » ، فجاءهم في اللّيل ثلج عظيم ، وهلك معهم من الخيل والمواشي ، فكانوا يسلخون الشاء ويلبسون جلودها ، لشدّة البرد . فسيّر الملك الظاهر[2] عسكرًا من عسكر ‖ حلب يقدمه « ميمون القصري »[3] ، ومعه « أيبك [٢٣٣ و] فطيس » ، فنزلوا على « حارم » ، وقطعة من العسكر مع ابن طمان « بدربساك » ، وسيف الدين ابن علم الدّين نازل بعسكره على « تيزين » – وكانت جارية في أقطاعه – وفي أكثر الأيّام تجري وقعات بين العسكر المقيم « بدربساك » ، وبين عسكر ابن لاون « ببغراس » .

هجوم الظاهر

وخرج السّلطان إلى « مرج دابق » ، في شعبان من هذه السّنة ، للدّخول الى بلد « لاون » ، وجمع العساكر ، وسيّر اليه عمُّه « الملك العادل » ، وغيره من ملوك الاسلام النجد ، فأقام « بدابق » الى ان انسلخ شهر الصّيام .

(١) في ابن الأثير ٢٨٢/٩ : « ابن ليون الأرمني » .

(٢) في ابن الأثير : « فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحاً إلى حصن مجاور لبلاد ابن ليون اسمه دربساك ، وانفذ اليه ميمون » .

(٣) ميمون القصري : ينسب الى قصر الخلفاء العلويّين بمصر لأن أباه أخذه منهم كما في ابن الأثير .

فسار «ابن لاون» من «الثنيات»، وجاء على غير طريق البرك في الليل، فأصبح في «العمق» غـائرًا على غرّة من العسكر، وكبس العسكر الذي كان مع ميمون، حتى حصلوا معهم في الخيام، وقابلوهم على غير أهبة فقاتلهم المسلمون، فقتل منهم جماعة، ولم يلبث إلّا قليلًا، وعاد، وساق سيف الدين من «تيزين»، فوجده قد رجع . ٥

وبلغ الخبر إلى السّلطان، وهو «بدابق»، فسار بالجيوش التي معه فنزل «بالعمق»، واجتمع من العساكر والتركمان ما لا يحدّ كثرة، فسيّر «ابن لاون» يبذل الطاعة، وأن يهدم الحصنَ الذي بناه بقرب «دربساك» . ١٠

انكسار لاون

فأعرض عنه، وردّ فلّاحي «العمق»، وعمرَ ضياعَه، وكمل استغلالَ ذلك البلد، والرُّسل تتردّد في اصلاح الحال، إلى أن استقرَّت القاعدة: على أن يهدم «لاون» الحصنَ الذي بناه، ويردّ جميع ما أخذ في الغارة، ويردّ جميعَ أسارى المسلمين الذين في يده، وأنْ لا يعرضَ «لأنطاكية». وقرِّر الصُّلح الى ثماني سنين، ١٥ وخرب ‖ الحصن، ورد ما استقرَّ الأمر عليه . [٢٣٣ ظ]

***

الفرنج على حماة

ودخل السُّلطانُ حلبَ، في سنة ثلاث وستمائة، وأمَّر جماعة من مماليكه وأصحابه. وعاث الفرنج على بلد «حماة»، في سنة خمس وستمائة، فسيّر الملك الظاهر من حلب، نجدة من عسكره . ٢٠

ونزل الملك العادل على «قدس»[1]، وغارت خيله على طرابلس،

(١) في مفرج الكروب ١٧٥/٣ : «والملك العادل نازل على بحيرة قدس، وقد فتك في الفرنج بالساحل فتكاً عظيماً، وأخاف أهله».

وخربوا حصونها ، وشتّى «بحماة» الى أن انقضى فصل الربيع .

الاشرف في حلب

وعاد إلى دمشق ، وعاد ابنه «الأشرف»[١] ، الى بلاده ، من خدمة أبيه ، فعبر في حلب ، فالتقاه الملك «الظّاهر» ، واحتفل به ، وأنزله في داره بقلعة حلب ، وقدّم له تحفًا[٢] جليلة من السّلاح ، والخيل ، والذّهب ، والجوهر ، والمماليك ، والجواري ، والثياب ، بما قيمته[٣] خمسون ألف دينار ، وودّعه بعد سبعة أيام ، إلى قراحصار ، وعاد إلى حلب .

كيخسرو

وقصد كيخسرو بن قلج أرسلان[٤] بلاد «ابن لاون» ، وطلب نجدة من السّلطان الملك الظّاهر ، فأرسل اليه عسكرًا مقدّمه سيف الدّين ابن علم الدين ، وفي صحبته أيبك فطيس[٥] ، فاجتمعوا بمرعش ، ونزلوا على برنوس[٦] في سنة خمس وستمائة ، فافتتحوها ، وافتتحوا حصونًا عدة من بلد ابن لاون .

---

(١) الملك الأشرف موسى ابن العادل ، وأخوه الملك المعظم .

(٢) في مفرج الكروب ١٨٣/٣ : «ولما وصل الى حلب تلقاه الملك الظاهر ، وأنزله بقلعة حلب ، وبالغ في اكرامه واتحافه» — انظر تتمة التحف في هذا المصدر وبهذه الصفحة .

(٣) في مفرج الكروب ١٨٤/٣ : «وقدم له تقدمة اشتملت على مائة الـف درهم» .

(٤) في مفرج الكروب ١٨٧/٣ : «وفي هذه السنة ، وصل غياث الدين كيخسرو ابن قلج أرسلان السلجوقي ، صاحب بلاد الروم ، إلى مرعش لقصد ابن لاون ملك الأرمن» .

(٥) في مفرج الكروب : «فأنفذ اليه الملك الظاهر جماعة من عسكره يكونون في خدمته مع سيف الدين ابن علم الدين بن جندر وعز الدين أيبك فطيس» .

(٦) في النسختين الخطيتين ، باريس ولننغراد : «برنوس» — وفي مفرج الكروب «غرقوس» ، والجملة التي وردت فيه كما يلي : «فدخل غياث الدين بلادَ ابن لاون ، وعاث فيها ، ونازل حصناً يعرف بغرقوس ، وافتتحه بالأمان ، وأبقاه ، وشيّد عمارته ، وفتح قلاعاً أخرى وخرّبها» ؛ ولم يرد اسم غرقوس وموقعها في المصادر بين أيدينا .

فراسل «لاون» الملك العادل ، والتجأ اليه ، فأرسل الملك العادل إلى كيخسرو وإلى الملك الظاهر ، فابتدر كيخسرو ، وصالح «ابن لاون» على أن يردّ حصن «بغراس» الى «الداويّة» ، وأن لا يعرض لأنطاكية ، وأن يردّ ماله الذي تركه عنده ، في حياة أخيه ركن الدّين.

لجوء كيخسرو

[٢٣٤ و] وكان ‖ قد خاف من أخيه ، فقدم حلب ، وأقام عند الملك الظَّاهر مدّة ، وخاف الملك الظَّاهر من أخيه ركن الدّين ، أن يتغيَّر قلبه عليه بسببه ، وأنَّه ربّما يطلبه منه ، فلا يمكنه تسليمه إليه ، فأعرض عنه . فدخل إلى «ابن لاون» ، ثم خاف منه ، فانهزم ، وترك عنده مالًا وافرًا ، فاحتوى عليه فردَّه عليه ، عند هذه الهدنة . ودفع إليه جميع الأسرى من المسلمين ، الذين كانوا في بلاده ، وأن لا يعرض لبلاد السّلطان الملك الظاهر . ووصلت نجدة حلب إلى حلب .

العادل في الشرق

وخرج العادل من دمشق ، في سنة ستّ وستّمائة ، وطلب من الملك الظَّاهر نجدة ، تكون معه إلى الشرق ، ليمضي الى خلاط ، لدفع «الكرج» عنها ، فسيّر إليه نجدةً ، وعبر «الفرات»[1] . فلما وصل إلى «رأس عين» ، رحل «الكُرج» عن خلاط ، ووصل اليه صاحب «آمد»[2] ، فسار في العسكر الى «سنجار» ، وأقطع بلد الخابور ، ونصيبين .

ونزل على «سنجار» محاصرًا لها ، وشفع إليه مظفَّر الدّين ابن

(١) تفصيل الأمر في مفرج الكروب ١٩٠/٣ : «وقصد الفرات فقطعها ، وكتب الى البلاد يطلب العساكر ، وأظهر أنه يريد قصد الكُرج» .

(٢) في مفرج الكروب : «ووصل اليه ولده الملك الأوحد صاحب خلاط وميافارقين ؛ والملك الأشرف ، والملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب آمد وحصن كيفا» .

زين الدّين ، في صاحب سنجار ، فلم يقبل شفاعته . وقال : «لا يجوز لي في الشّرع ، تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد ، وترك خدمة الأجناد ، في مصلحة الجهاد » ، وضايق سنجار ، وقاتلها في شهر جمادى الآخرة .

٥ وقام نور الدّين ابن عزّ الدّين[1] — صاحب الموصل — في نصرة ابن عمّه صاحبها ، واتّفق مع « مظفّر الدّين »[2] ، وتحالفا ، وأفسدا جماعةً من عسكر « الملك العادل » ، وراسلا « الملك الظاهر » ، على أن يجعلاه السّلطان ، ويخطبوا له ، ويضربوا السكّة باسمه .

دهاء الظاهر

وجعل « الملك الظّاهر » يداري الجهتين ، والرسل تتواتر ١٠ إليه من البلدان ، || وهو في الظاهر في طاعة عمّه ، [٢٣٤ ظ] وعسكره معه ، وفي الباطن في النّظر في حفظ سنجار ، ومداخلة المواصلة ، وهو يظهر لعمّه أنه متمسّك بيمينه له ، إلى أن أرسل أخاه « الملك المؤيّد »[3] ، ووزيره « نظام الدّين الكاتب » إلى عمّه ، معلمًا له أن رسول الموصل ، ومظفّر الدّين ، وصلا يطلبان منه الشفاعة اليه ، في ١٥ اطلاق سنجار ، وتقرير الأمر على حالة يراها .

وتوسّط الحال عند قدومه ، على أن شفع فيهم الملك الظّاهر ، وأطلق لهم « سنجار » ، واستنزلهم عن « الخابور » و « نصيبين » .

(١) نور الدين ارسلان شاه ، صاحب الموصل .

(٢) مظفر الدين كوكبوري ، صاحب اربل — وفي مفرج الكروب ١٩٤/٣ «فسار مظفر الدين من اربل ، واجتمع هو ونور الدين وعسكرا بظاهر الموصل، وراسلا الملك الظاهر صاحب حلب يدعوانه إلى الاتفاق على الملك العادل » .

(٣) الملك المؤيد نجم الدين مسعود ، أخو الملك الظاهر وهما ابنا السلطان الناصر صلاح الدين — وفي مفرج الكروب ١٩٦/٣ : « برز الملك الظاهر من حلب ونزل على جبل بانقوسا ، وأرسل نظام الدين محمد بن الحسين وأخاه الملك المؤيد نجم الدين مسعود إلى الملك العادل وأنفذ معها تحفاً كثيرة وهدايا سنيّة ، وكان مضمون الرسالة الشفاعة في صاحب سنجار» — « فأجاب إلى الصلح على أن يكون له نصيبين وخابور» .

موت المؤيد

وعاد «الملك المؤيّد»، مِنْ حضرة عمّه بالبرّ الوافر. فلما وصل «رأس عين»، دخل إليها في ليلة باردة كثيرة الثلج، فنزل في دار فيها منزل مجصّص[1]، فستر بابه، وسدّ ما فيه من المنافس، وأوقد فيه نار في منقل، وعنده ثلاثة من أصحابه، فاختنق، وواحد من أصحابه، وحُمل الى «حلب» ميتًا في شعبان، ٥ من سنة ست وستمائة.

وجرى على الملك الظّاهر منه مـا لا يوصف من الحزن والأسف[2].

العادل في حران

ووصل الملك العادل إلى «حرّان»، وخافه صاحب الموصل والجزيرة، فراسل الملك الظّاهر، وطلب منه أن يخلي بينه ١٠ وبين ملوك الشرق، وأن يحتكم في ما يطلبه منه، وراسله صاحب الموصل، وصاحب إربل، وصاحب الجزيرة، يعتضدون به وهو لا يؤيسهم.

فخرج السلطان الى «حَيلان»[3] بعسكره، ثم رحل إلى «السمّوقة» وراسل عمّه في مهادنتهم، وتطييب قلوبهم، وهو مخيم على «السموقة» ١٥ – على نهر قُوَيقْ – وطلب منه أن تكون كلمةُ المسلمين كلِّهم متفقة.

****

(١) في مفرج الكروب ١٩٨/٣ : «ثم دخل بيتاً مجصصاً وكان يوماً شديد البرد فأشعل فيه النار، وسدّوا كوى البيت، فاختنق الملك المؤيد ومن كان معه، ولم يسلم إلاّ اثنان وجد فيهما حياة ضعيفة.»

(٢) في المفرج : «وحزن عليه أخوه الملك الظاهر حزناً شديدًا، وغلقت أسواق حلب سبعة أيام».

(٣) حيلان : قرية مشهورة قرب حلب، وقد جرّت منها المياه إلى مدينة حلب ترتوي بها.

صلح الفرنج

وكذلك تدخّل في الصُّلح ملك الرُّوم ، وأن يقصدوا الفرنج بجملتهم ، فانَّ الفرنج ‖ في نية التحرك[١] ، [٢٣٥ و] وخامر جماعة من عسكر الملك العادل . ووصل ابن كهدان[٢] الى السّلطان الملك الظَّاهر ، فأكرمه ، فتخاذل عسكر الملك العادل ، فاتفق الحال بينهم على الصلح ، ودخول ملوك الاسلام فيه . ٥

زواج ضيفة خاتون

وتمّت المصاهرة بين « الملك العادل » و « الملك الظَّاهر » ، على ابنته الخاتون الجليلة[٣] « ضَيْفَة خاتون » — بنت الملك العادل — وشرع السّلطان في عمل « قناة حلب »[٤] وفرَّقها على الأمرآء ، والخواص . وحرّر عيونَها ، وكلّس طريقها جميعَه ، حتى كثر المآء بحلب . وقسم الماء في جميع محال حلب . وابتنى القساطل ١٠ في المحالّ . ووقف عليها وقفًا لاصلاحها ، وذلك في سنة سبع وستمائة .

وتوفّي وزير السّلطان الملك الظاهر « نظام الدّين محمد بن الحُسين » بحلب ، بعلة الدوسنطاريا ، في صفر سنة سبع وستمائة . وكان — رحمه الله — وزيرًا صالحًا ، مشفقًا ، ناصحًا ، واسطة خيرٍ عند السّلطان ، لا يشير عليه إلَّا بما فيه مصلحة رعيته ، والاحسان ١٥ اليهم . وقام بعده بكتابة الانشاء والأسرار « شرف الدين أبو منصور ابن الحصين » ، و « شمس الدين بن أبي يعلى » كان مستوفي

(١) في مفرج الكروب ٢٠١/٣ : « وفي هذه السنة — ٦٠٧ هـ — تحركت الفرنج إلى جهة الساحل » .

(٢) في مخطوطة باريس : « ابن كندان » — وفي مخطوطة لننغراد : « ابن كهدان » .

(٣) في مفرج الكروب ٢١٢/٣ : « وخطب ابنته ضيفة خاتون — شقيقة الملك الكامل — وكانت أعز بنات الملك العادل عليه ، وخطبها منه جماعة من الملوك فلم ينعم عليهم بتزويجها » — وقد سميت ضيفة لأن أباها حين ولدت كان عنده ضيف ، وولدت سنة ٥٨١ هـ ، أنظر تاريخ أبي الفداء لحوادث سنة ٦٠٩ هـ.

(٤) ذكرنا قبل قليل أن المياه جرّت من حيلان الى حلب ، وقد فعل ذلك الملك الظاهر سنة ٦٠٥ ، كما في أبي الفداء والدر المنتخب ص ١٣٤—١٤٦ .

الدواوين . فلما مات أبو منصور ابن الحصين استقلّ بالوزارة ، وأضيف إليه ديوان الانشاء مع الاستيفآء .

وعمر السلطان باب قلعة حلب ، والدركاه[1] ، وأوسع خندقها وعمل <البغلة>[2] من الحجارة الهرقليّة ، وعمق الخندق ، إلى أن نبع الماء في سنة ثمان وستمائة .

وخرجت من مصر ، في هذه السنة ، الملكة الخاتون ، « ضيفة خاتون » بنت الملك العادل إلى حلب ، مع « شمس الدّين بن التنبي » . والتقاها الملك الظاهر بالقاضي بهاء الدين من دمشق ، ثم بالعساكر الحلبية بعد ذلك « بتلّ السّلطان » ، واحتفل في اللقآء ، وبالغ في العطآء ، ووصلت إلى حلب في النصف من المحرّم ، من سنة تسع وستمائة .

وملّك ابن التنبي قرية من قرى حلب ، من ضياع <الأرتيق>[3] يقال لها تلع ، وأعطاه عطاء وافرًا ، وحظيت عنده حظوة ، لم يسمع بمثلها .

ووقعت النّار في مقام ابرهيم — عليه السّلام — وهو الذي فيه المنبر ، ليلة الميلاد ، وكان فيه من الخيم والآلات والسلاح ما لا يوصف ، فاحترق الجميع ، ولم يسلم غير الجرن الذي فيه رأس يحيي

(١) في الدر المنتخب لابن الشحنة ٥١ : « الدركاه : الموضع الذي يكون تلو الباب يرتفق به ثم يدخل منه إلى الدار ونحوها » .

(٢) وقع طمس هنا في نسخة باريس فغابت الكلمة وتعثرنا في قراءة ما يليها ، فأخذناها عن نسخة لننغراد ، بالورقة ٩٩ ظ .

(٣) وقع كذلك طمس هنا في مخطوطة باريس ، فأخذنا الكلمة عن مخطوطة لننغراد ، وقد شرحنا من قبل كلمة « الأرتيق » وقلنا إنه كورة من أعمال حلب ، والمشهور فيها فتح الهمزة — كما في الدر المنتخب ٩٤ .

ابن زكريا — عليه السلام — واحترقت السقوف والأبواب ، فجدّده السلطان الملك الظّاهر ، في أقرب مدة أحسن مما كان .

تعمير حلب

وتوفي شرف الدين عبدالله بن الحصين كاتب السلطان ، واستقلّ شمس الدين عبد الباقي بن أبي يعلى بالوزارة ، ٥ في سنة تسع وستمائة .

وشرع الملك الظاهر في هدم «باب اليهود»[1] وحفر خندقه وتوسعته . وبناه بناء حسنًا ، وغيّره عن صورته التي كان عليها ، وبنى عليه برجيْن عظيميْن ، وسمّاه «باب النصر» . وأتم بنآءه ، [٢٣٥ ظ] ‖ في سنة عشر وستمائة .

ولادة العزيز

١٠ ووُلد للسُّلطان الملك الظّاهر ولدُه الملك العزيز[2] ، من ابنة عمه الخاتون «ضيفة خاتون» ، في يوم الخميس خامس ذي الحجة من سنة عشر وستمائة ، فضربت البشائر ، وزيّنت مدينة حلب ، وعقدت القباب[3] .

وفي اليوم السابع عشر ، من ميلاده ، خَتَن السُّلطانُ أخاه الملك ١٥ الصالح ، واحتفل بختانه ، ونصب الزُّورق ، من قلعة حلب الى المدينة ، ونزل فيه الرجال ، وعملوا من الآلات والتماثيل التي ركبوها ، حالة النزول أنواعًا ، وطَهَّر أولادَ الأكابر من أهل المدينة ، وشرَّفهم ، وخلع عليهم .

---

(١) في الزبد والضرب ، مخطوطة : «وفي سنة عشر وستمائة : أتم الملك الظاهر بناء باب اليهود بحلب ، وكان قد شرع في هدمه ، وحفر خندقه وتوسعته ، وبناه بناء حسناً وغيّره عن صورته التي كان عليها» — في الدر المنتخب ص ٤٤ : «فاستقبح الملك الظاهر وقوع هذا الاسم عليه فسماه باب النصر» .

(٢) الملك العزيز غياث الدين محمد .

(٣) اقرأ تفصيل الأعياد في مفرج الكروب ٣/٢٢٠ ، وأما أمر ختن الصالح فقد قال فيه : «وفي هذه الأيام ختن الملك الظاهر ولده الملك الصالح صلاح الدين أحمد ، وعمره يومئذ تسع سنين» .

ودخلت سنة احدى عشرة وستمائة

فجدَّد السلطان الملك الظّاهر «باشورة»[١] حلب، من «باب الجنان»[٢] الى «برج الثعابين»، وبنى لها سورًا قويًّا ظاهرًا عن السّور العتيق، وجدَّد فيه أبرجة كالقلاع، وعزم على أن يفتتح بالقرب من «برج الثعابين» بابًا للمدينة، ويسميه «باب الفراديس»[٣]، وكان يباشر الاشراف على العمارة بنفسه. ٥

وأمر في هذه السنة بتجديد ربض الظاهرية، خارج «باب قنّسرين»[٤]، فيما بينه وبين النهر، فنسب إليه، لذلك، وخربت «الياروقية»[٥]، وانتقل معظم أهلها إليه.

هروب الفرنجة

ووثب الاسماعيلية على ابن الابرنس، «بكنيسة انطرسوس»، فقتلوه، فجمع البرنس جموع الفرنج، ونزل على حصونهم، وقتل وسبى، وحصر[٦] «حصن الخوابي» فكتبوا إلى السّلطان، يستغيثون به، ويستنجدونه، فاستخدم السلطان مائتي راجل. وسيّر جماعة من عسكر حلب، يحفظونه، || ليدخلوا إلى «حصن الخوابي»، ويمنعوا الفرنج من الاستيلاء عليه. ١٠ [٢٣٦ و] ١٥

(١) شرحنا كلمة الباشورة فيما سبق وقلنا، نقلاً عن أبي الشحنة، في الدر المنتخب ٤٥: «إنها قطعة أرض ظاهر سور البلد، يجعل عليها سور خاص، يحول بينها وبين الخندق، يخرج منها الى ظاهر البلد».

(٢) باب الجنان: من أبواب حلب — انظر الدر المنتخب ٤٦.

(٣) في الدر المنتخب ٤٥: «باب الفراديس: وهو من غربي البلد، أنشأه الملك الظاهر غياث الدين غازي، وبنى عليه أبرجة عالية ثم سدّ بعد وفاته».

(٤) باب قنسرين: انظر الدر المنتخب لابن الشحنة ٣٦.

(٥) الياروقية: حيّ من أحياء حلب القديمة — انظر ابن الشحنة ١٣٣.

(٦) في مفرج الكروب ٢٢٤/٣: «وقصدت الفرنج في هذه السنة بلاد الباطنية، ونازلوا من قلاعهم الخوابي، وحاصروها حصارًا شديدًا، وكانوا حانقين عليهم بسبب قتلهم ابن الابرنس صاحب أنطاكية».

وجرَّد عسكرًا من حلب ، مـع سيف الدّين ابن علم الدّين ، ليشتغل الفرنج من جهة «اللّاذقيه» ليتمكن الرجالة من الدخول إلى الحصن . فلما سمع الفرنج[1] بذلك ، كمنوا كمينًا للرجالة والخيالة ، الذين يحفظونهم ، فأسروا الرجالة ، وقتلوهم ، وقبضوا ثلاثين مـن ٥ الخيالة ، وذلك في حادي عشر شهر رجب .

خروج المعظم

فعند ذلك خرج الملك المعظَّم ابن العادل ، من دمشق ، بعسكره ، ودخل غائرًا في بلد «طرابلس» ، فلم يترك في بلدها قرية إلّا نهبها ، وخربها ، واستاق الغنائم والأسرى ، فرحلوا عن «الخوابي» ، وأطلقوا الأسرى الذين أسروهم من أصحاب السلطان ١٠ الملك الظاهر ، وراسلوه ، معتذرين ، متلطِّفين ، وافترقوا عن غير زبدة حصلت لهم .

وتمت الباشورة ، والباب ، والأبرجة ، في سنة اثنتي عشر وستّمائة . ولم يتم فتح الباب ، وسدّه طغرل الأتابك ، لما مات الملك الظّاهر ، الى أن فتحه السلطان الملك النّاصر[2] – أعزَّ الله نصره – على مـا ١٥ نذكره ، في سنة اثنتين وأربعين وستّمائة .

---

(١) يختصر ابن واصل أحداث هذه الحرب ضد الفرنج – انظر مفرج الكروب ٣/٢٢٤ .

(٢) انظر الدر المنتخب لابن الشحنة ٤٥ ، حيث تجد خلاصة هذا القول .

ودخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

كيكاوس

وقعت المراسلة بين السلطان الملك الظاهر ، وبين السلطان «كيكاوس[1] بن كيخسرو» ؛ واتفقا على أن يَمضي السّلطان[2] إلى خدمته ، ويتفق معه خوفًا من عمّه ، فأجابه «كيكاوس» إلى ذلك ، وخرج بنفسه إلى أطراف البلاد . ٥

وندم السلطان على ما كان منه ، ورأى أنّ حفظ بيته أولى ، وأنّ اتفاقه مع عمّه أجمل ، فسيّر القاضيَ[3] بهاء الدّين – قاضي حلب – إلى عمّه ‖ الى مصر برسالة ، تتضمن الموافقة : أنّه قد جعل[4] ابنه [٢٣٦ ظ] الملك العزيز محمدًا ، ابن ابنة الملك العادل ، وليَّ عهده . وطلب من الملك العادل أن يحلف له على ذلك . ١٠

اتفاق العادل والظاهر

فسار إلى مصر ، فرتّب السُّلطان خيلَ البريد ، تطالعه بما يتجدّد من أخبار عمّه ، لينظر في أمره ، فانْ وقع منه ما يستشعر منه ، خرج بنفسه إلى «كيكاوس» ، وهو مع هذا كلّه ‹في همّه›[5] تجهيز الجيوش ، والاستعداد للخروج إلى «كيكاوس» ، والاجتماع معه على قصد بلد ابن «لاون» أولًا . وكان «ابن لاون» ١٥ قد ملك أنطاكية ، وضاق ذرعُ السُّلطان بمجاورته ، لعلمه بانتمائه إلى عمّه .

---

(١) في مفرج الكروب ٢٢٥/٣ : «عز الدين كيكاوس صاحب بلاد الروم» .

(٢) في مفرج الكروب ٢٣٤/٣ : «وفي المحرم من هذه السنة وردت رسالة عزالدين كيكاوس إلى الملك الظاهر يطلب منه الاجتماع معه على مرعش بجيشه ليتفقا على قصد ابن لاون ملك الأرمن ، ويستخلصا منه أنطاكية» – وتفصيل الأمر في هذه الصفحة نفسها .

(٣) انظر مفرج الكروب ٢٣٦/٣ .

(٤) في مفرج الكروب ٢٣٧/٣ : «فأنفذ الملك الظاهر بهاء الدين شاكرًا لانعامه ، وطلب أمورًا ثلاثة ، أحدها أن يكون الملك العزيز محمد ولده وليّ عهد أبيه ، وقائمًا بملك حلب وبلاده بعده ، وأن يزوج العزيز ابنة الملك الكامل ، وثالثها أن يكون صلح الملك الظّاهر وصلح الملك العادل مع الفرنج واحدًا» .

(٥) كلمة مطموسة أخذناها عن لنغراد .

فوصلت الأخبار من «القاضي» من مصر ، أنَّ الملك العادل أجاب الملك الظاهر إلى كل ما اقترحه ، وسارع إلى تحصيل أغراضه ، ولم يتوقَّفْ في أمرٍ من الأمور[1] .

وجعل كيكاوس يحث السّلطان على الخروج ، ويذكر أنه ينتظره ، ونشب السلطان به ، وضاق صدره ، وبقي مفكرًا في أنَّ عمه قد وافقه ، ولا يرى الرّجوع عنه إلى ملك الروم ، فيفسد ما بينه وبين عمّه ، ويغضّ من قدره بالخروج إليه ، ويفكِّر في حاله مع ملك الروم ، وفي كونه وعده بالخروج اليه والاجتماع به اذا خرج ، وأنه إن رجع عن ذلك فسد ما بينه وبين ملك الروم ، والعسكر قد برز ، وهو مهتمّ في ذلك الأمر . وطلب الاعتذار إلى ملك الروم بوجهٍ يجمل .

مرض الظاهر

فلشدّة فكره ، وضيق صدره ، هجم عليه مرض حادّ في جُمادى الآخرة في سنة ثلاث عشرة وستمائة . واعترته أمراض شتّى وماشرا[2] . واشتدّ به الحال .

ولاية العزيز

وجمع مقدّمي البلد وأمرآءه ، واستحلفهم || لابنه الملك العزيز [٢٣٧ و] محمد ، ثم من بعده لابنه الملك الصالح أحمد[3] ، ثم من بعده لابن أخيه ، وزوج ابنته : الملك المنصور محمّد ابن الملك العزيز . وجعل الأمير سيف الدّين ابن علم الدّين مقدّم العسكر ؛

(١) وافق الملك العادل على الشرطين الأولين ، وبقي الشرط الثالث ، فقال صاحب مفرج الكروب ٢٣٧/٣ : «وأما فصل التزويج فقال العادل هذا لا يتعلّق بي ، فاجتمع بالملك الكامل ، وتحدّث معه فيه» .

(٢) كلمة لم أستطع فهمها في المخطوطتين .

(٣) في مفرّج الكروب ٢٣٨/٣ : «أن الملك يكون بعد الملك الظاهر لولده الملك العزيز محمد ، وبعده للملك الصالح صلاح الدين أحمد ابن الملك الظاهر ، وبعدهما لابن عمّها الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان» .

وشهاب الدين طغرل[١] الخادم والي القلعة ، ومتولّي الخزانة ، وتربية أولاده ، والنظر في مصالح الدّار والنساء .

وأنزل «بدر الدين ايدمر» والي قلعة حلب منها ، وأقطعه زيادة على ما كان في يده من الأقطاع «قلعة نجم» ، بذخائرها وعددها ، و«زردنا»[٢] ، مع تسع ضياع أخر من أمّهات الضياع . وحلف إخوة السلطان على ذلك . ٥

واستشعر السلطان من أخيه الملك الظافر «خضر»[٣] – وكان مقيمًا «بالياروقية» – فأقطعه «كفرسوذ»[٤] ، وتقدّم اليه بالتوجّه اليها ، فسار إليها ، فسبقه الملك «الزّاهر» ، فاستولى عليها ، وعلى «البيرة» و«حروص» و«المرزبان» و«نهر الجوز» و«الكرزين» و«العمق»[٥] . ١٠

موت الظاهر

ومات السّلطان الملك الظاهر – رحمه الله – بقلعة حلب ، في الخامس والعشرين[٦] ، من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة وستّمائة . وكتم خبر موته ذلك اليوم ، حتّى دفن في الحجرة ، إلى جنب الدّار الكبيرة ، التي أنشأها بقلعة حلب . ١٥

(١) في ابن الأثير ٣١٢/٩ : «وجعل أتابكه ومربيه خادماً رومياً اسمه طغريل ولقبه شهاب الدين ، وهو من خير عباد الله» .

(٢) زردنا : علقنا عليها من قبل في زبدة الحلب ١٤٤/٢ ، وقلنا انها بليدة من نواحي حلب الغربية .

(٣) في مفرج الكروب ٢٣٩/٣ : «وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظافر خضر المعروف بالشمر كفرسوذ ، وحمل اليه ثلاثون ألف درهم» .

(٤) كفرسوذ : علقنا عليها في زبدة الحلب ٣٠٣/٢ ، وقلنا انها تكتب بالتاء : «كفرسوت» وانها من أعمال حلب قرب بهسنا .

(٥) وهذه المواقع كلها في شمالي حلب ، مشهورة علقنا على أكثرها .

(٦) في مفرج الكروب ٢٤١/٣ : «ثم كانت وفاته ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة» .

ثم أركب في اليوم الثاني من موته ولداه : الملك العزيز ، والملك الصالح ، وأنزلا بالثياب السّود[1] إلى أسفل جسر القلعة ، وصعد أكابر البلد إليهما .

وأصيب أهل حلب بمصيبة فتّت في أعضادهم . وكان له – رحمه ٥ الله – في كل دار بها مأتم وعزاء ، وفي كل قلية[2] نكبة وبلاء :

والنّاس مأتمهم[3] عليه واحدٌ في كلِّ دارٍ <أنّة وزفيرُ>[4]

---

(١) في مفرج الكروب : « وخرج الملك العزيز وأخوه الملك الصالح وعليهما السواد ».
(٢) هكذا في الأصل « قلية » بالنسختين المخطوطتين .
(٣) في مخطوطتي باريس ولننغراد : « مأتهم » ولا معنى لها فرأينا هذا الوجه أقرب للسياق – وفي أعلام النبلاء ٢١٩/٢ يأخذ عن الزبد والضرب : « مأتمهم عليه ... »
(٤) جملة مطموسة في نسخة باريس ، أخذناها عن مخطوطة لننغراد ، وان كانت المخطوطة تورد هذا البيت كأنه نثر ، ولم نتثبت من قائله ، فلم ننسبه هنا ، فلعلّه أحد معاصري الظاهر رحمه الله – انظر اعلام النبلاء ، حيث نقل جملة الزبد والضرب الذي اختصر زبدة الحلب في الزمن الماضي ، ويقول : « في كل دار أنة وزفير » .

القسم الثلاثون

ذكر
حلب في أيام الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي

تدبير حلب بيد أتابك - خروج الفرنج - موت العادل

الأشرف في تدبير حلب - موت الأفضل

٦١٣ هـ - ٦٢٤ هـ

تدبير حلب بيد أتابك

[٢٣٧ ظ] ‖ ووصل «القاضي بهاء الدّين» <من الرّسالة>[١] ، في اليوم الثالث ، والوزير ابن أبي يعلى ، قد استولى على التّدبير ، وحكم على الصغير والكبير ، فصعد إلى القلعة ، واجتمع «بشهاب الدّين طغرل»[٢] ، وصرفه عن اضافة الأمور إلى الوزير .

اجتماع الامراء

وقرّر أن الأمراء يجتمعون[٣] ، ويتشاورون فيما يدبّرونه ، وأن لا يخرج الأمر عن رأي «شهاب الدّين» أيضًا ، فاجتمعوا «بدار العدل» ، واتّفقت آراؤهم على أن يكون «الملكُ المنصور ابن العزيز» أتابك العسكر ، وأمرُ الاقطاع إليه ، وأمرُ المناصب الدينيّة يكون راجعًا إلى «شهاب الدين طغرل» ؛ وحلّفوه على ذلك ، وركب[٤] ، والأمراء كلّهم في خدمته .

ونزل الملك العزيز ، والملك الصالح ، وجلسا في دار العدل ، والملك العزيز في منصب أبيه ، وأخوه الى جانبه[٥] ، والملك المنصور ، إلى

(١) كلمة مطموسة في مخطوطة باريس ، أخذناها عن مخطوطة لننغراد ، بالورقة ١٠١ و.

(٢) في مفرج الكروب ٢٤٩/٣ : «وكان الوزير ابن أبي يعلى — وزير الملك الظاهر — مستولياً على الأمور كلها في الأيام الظاهرية ، إلى أن وصل القاضي بهاء الدين ، فاجتمع القاضي بهاء الدين بالأتابك شهاب الدين ، وقرّر معه صرف الوزير عن النظر في الأمور» .

(٣) في مفرج الكروب : «واتفق معه أن الجماعة يجتمعون ويتشاورون فيما يقررونه من قواعد المملكة ، وأن الأمر كله يكون معذوقاً بشهاب الدين» . وبقية الجملة مشابهة لما في ابن العديم .

(٤) في مفرج الكروب : «وركب الملك المنصور ، والأمراء كلهم في خدمته» .

(٥) كل ما جاء في ابن العديم مطابق تماماً لما جاء في ابن واصل — وهنا يقول : «وإلى جانبه الملك الصالح ، وابن عمها الملك المنصور ... ولم يرض أولاد الملك الناصر صلاح الدين بولاية ابن أخيهم الملك المنصور» .

جانبهما ثم اضطَّربت الحال ، ولم يرض إخوة « الملك الظَّاهر » ، بولاية المنصور .

ووصل في أثناء ذلك رسول الملك الرومي كيكاوس[1] – وكان مخيّمًا بالقرب من البلاد ينتظر وصول السّلطان « الملك الظَّاهر » إليه – فسيَّر رسولًا معزِّيًا ، ومشيرًا بالموافقة معــه ، وأن يكون « الملك الأفضل »[2] أتابك العسكر ، فانَّه عمّ الملك العزيز ، وهو أولى بتربيته وحفظ ملكه .   ٥

ومال الأُمراءُ المصريون مثل : « مبارز الدّين يوسف بن خُطْلُخ » ، و « مبارز الدين سُنْقُر الحلبي » ، و « ابن أبي ذكرى الكردي »[3] ، وغيرهم ، إلى هذا الرأي ، وقالوا : « إنَّ هذا ملك كبير[4] ، ولا ينتظم حفظ الملك إلَّا به ، واذا صار أمر حلب راجعًا إليه كان قادرًا على أخذ ثـأره من عمِّه[5] ، وأخذ الملك به » .   ١٠

ورأى القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدّين ابن علم الدّين ، [٢٣٨ و] ‖ وسيف الدين بن قلج ، وغيرهما ، غير ذلك ، وقالوا : « إنَّ هذا اذا فُعِل ، كان الملك العزيز على خطر من الجانبين ، لأنَّ الملك العادل ملك عظيم ، وصاحب الديار المصرية[6] ، فاذا قبلنا ذلك   ١٥

(١) في مفرج الكروب : « عز الدين كيكاوس صاحب بلاد الروم » .

(٢) كل الجملة السابقة مطابقة لما جاء في مفرج الكروب ٣/٢٥٠ – « وأن يرتب الملك الأفضل ابن الملك الناصر صاحب سميساط أتابك العسكر فانه أكبر أولاد صلاح الدين ، وعم الملك العزيز ، وأولى الناس بتربيته وحفظ ملكه » .

(٣) الأسماء الماضية هي عين ما جاء في مفرج الكروب ولكنه يقول : « وجمال الدين أحمد بن أبي ذكرى وغيرهم » .

(٤) في مفرج الكروب : « كبير القدر » .

(٥) في مفرج الكروب : « من عمه الملك العادل ، وأخذ دمشق والديار المصرية منه » .

(٦) يورد ابن واصل هذا الكلام عينه ثم يضيف ٣/١٥١ : « وصاحب الديار المصرية والشرق ، ومعظم الشام واليمن » .

خرج من أيدينا ، فانْ كانت الغلبة له[1] انتزع الملك من أيدينا .

« وإنْ كانت عليه فلا نأمنُ أنَّ الملك الأفضل ، يتغلَّب على ابن أخيه وينتزع الملك منه ، ويستقلّ به ، كما فعل الملك العادل بابن العزيز[2] ، والملك العادل قد حلف للملك الظاهر ، ولابنه الملك العزيز من بعده ، وهو ابن ابنته ، وابنته بقلعة حلب ، ونحن نطالبه بالوفاء بالعهد ، وهو يذبّ عن حلب كما يذبّ عن غيرها من ممالكه ، وأمور الخزائن هي راجعة إلى شهاب الدّين طغرل ، وهو متولّي القلعة . والرأي أن يقع الاتّفاق عليه ، فانّ المال عنده بالقلعة ، وهو فيها ينتصف ممّن خالفه ، وقد وقع اعتماد الملك الظّاهر عليه » .

اتفاق الامراء

فاتفق رأيهم كلهم عليه .

وعملت نسخة يمين ، حلف بها[3] جماعة الأمراء والمقدّمين من أهل البلد ، على الموالاة ، والطاعة للملك العزيز ، ثم من بعده لأخيه الملك الصّالح ، وعلى الموالاة لأتابكه « شهاب الدّين طغرل » ، وانقاد الجميع له طائعين ومكرهين .

وأبعد الوزير ابن أبي يعلى ، وصرف ، واستقرّ الأمر على ذلك ، في أواخر شعبان ، من السّنة .

***

(١) أي الملك الأفضل – وابن أخيه هو الملك العزيز .

(٢) ابن العزيز : هو الملك المنصور – والنصّ كله مشابه لما جاء في مفرج الكروب .

(٣) في مفرج الكروب ٢٥١/٣ : « حلف عليها جماعة الأمراء » .

طغرل

وسار ابن أبي يعلى عن حلب ، في شهر رمضان من السّنة ، واستقلّ طغرل[١] بترتيب البلاد والقلاع وتفريق الأموال والأقطاع ، ولا يخرج في ذلك كلّه ، عن رأي القاضي بهاء الدين ، وسيف الدّين ابن علم الدّين ، وسيف الدّين ابن قلج .

٥ وأقطع علم الدين قيصر « دربساك » ، وابن أمير التركمان «اللّاذقية » ، وسيّر علم الدّين إلى الملك الزّاهر ، أولًا ، <يعاتبه>[٢] [٢٣٨ ظ] على استيلائه على البلاد ، فاعتقله ، وقال : « أنا أحقّ بذلك ، فإنّني كنتُ وليَّ العهد لأخي[٣] ، وقد حلف لي الناس» . وطمع بملك حلب ، ثم انقاد إلى الطّاعة والخطبة ، وشرط أن تبقى البلاد ، التي استولى ١٠ عليها بيده ، فأجيب إلى ذلك .

الخلف بين الامراء

ولما استقرَّ أمر الأتابكية لشهاب الدّين طغرل ، كره ذلك جماعةٌ من المماليك الظّاهرية ، فعمد «عزّ الدّين أيبك الجمدار » الظاهري ، واستضاف اليه جماعة من المماليك الظّاهرية ، والأجناد . وكاتب « الأسد أقطغان »[٤] ، – وكان والي حارم– ١٥ واتفق معه على أن يأتي إليه ، إلى «حارم» بالجماعة الذين وافقهم ، ويفتح له القلعة ، فاذا حصلوا بها انضم اليهم جماعةٌ غيرهم ، وكان لهم شأن حينئذ .

---

(١) في مفرج الكروب : « واستقل الأتابك شهاب الدين في جميع الأمور ، وانتظمت به أحسن انتظام ، وقام بترتيب البلاد والقلاع » .

(٢) في نسخة باريس كلمة مطموسة ، فاستوضحناها في لننغراد ، وفي مفرج الكروب ٢٥٢/٣ : «قد سير علم الدين قيصر الى الملك الزاهر ليعاتبه» – وفي النسختين تكرار كلمة الملك الزاهر كما يلي : « الى الملك الزاهر أولا إلى الملك الزاهر» .

(٣) في المفرج : « لأخي الملك الظاهر» – وبقية النص جاء في مفرج الكروب.

(٤) في حاشية المفرج أن نسخ المخطوطات تصحفه إلى اقطعان وأقطوان أحيانا – وبقية النصّ في ابن العديم يشبه ما جاء في مفرج الكروب تماماً ، كأنما ينقلان عن نصّ مشترك أو واحد ، وقد صرّح مرة أنه ينقل عن ابن العديم فيما يأتي انظر الصفحة ١٨١ الآتية بالحاشية .

قلعة حارم

وكان العسكر المقيم «بحارم» قد أُصعد إلى القلعة، ورُتِّب بها، وفيهم «المبارز أيوب ابن المبارز أقجا»، فأحسّوا باختلال أمر «الأسد» الوالي، وأنكروا عليه أشياء،فاستيقظوا لأنفسهم، واتّفقوا على حفظ القلعة، والاحتياط عليها.

٥ وسار أيبك الجمدار إلى حارم، ووقف تحت القلعة، ورام الصُّعود إليها، فمنعه الأجناد والأمراء، الذين في القلعة من ذلك، ولم يمكِّنوا الوالي من التحرّك فيها بحركة، واحتاطوا عليه.

فسار أيبك إلى «دربساك»، وطمع أن يتمّ له فيها حيلة أيضًا، فلم يستتبّ له ذلك، وعصى «ألطنبغا» بقلعة بهسنى[١]، وانضاف

١٠ الى ملك الرّوم «كيكاوس»[٢]. وانتظم الأمر بعد ذلك، وسكنت الفتنة، في أواخر شوّال من السَّنة.

[٢٣٩ و] || ونزل «الملك العادل» من مصر إلى الشّام، وأرسل إلى «أتابك» بما يطيّب نفسه، وسيَّر خلعة للملك العزيز، وسنجقًا، وحلف له على ما أوجب السكون والثقة.

(١) علقنا على موقع بهسنى في زبدة الحلب ٣٣٨/٢ وقلنا إنها قلعة حصينة بقرب مرعش أو سميساط.

(٢) في مفرج الكروب ٢٥٣/٣ : «وانضاف الى عز الدين سلطان الروم، وكان عمر الملك العزيز لما ولي الملك بحلب سنتين وأشهرًا، وعمر أخيه الملك الصالح ولي عهده، نحو اثنتي عشرة سنة».

خروج الفرنج

الفرنج على الطور

واتّفق خروج الفرنج من البحر، وتجمّعوا في أرض عكّا[١]، وأغاروا على «الغَوْر»، واندفع «الملك العادل» بين أيديهم، إلى «عجلون»، ثم إلى «حوران»، ثم نازل الفرنج «الطُّور»[٢]، وزحفوا عليه، فكانت النّصرة للمسلمين، وقتل منهم جمع كثير، وانهزموا عنها، وهدمها الملك العادل.

وسار الفرنج إلى «دمياط»، ونزلوا عليها[٣]، وبينها وبينهم «النّيل»، والملك «الكامل» في مقابلتهم[٤]، واستدعى الملك «العادل» ابنه «الملك الأشرف»، فسار في عسكره إلى «حمص»، ودخل بلاد الفرنج، ليشغلهم[٥] عن محاصرة «دمياط».

قدوم الاشرف حلب

فدخل إلى «صافيتا»، فخربوا ربضها، ونهبوا رستاقها، وهدموا ما حولها من الحصون، ودخلوا إلى رَبَض «حصن الأكراد»، فنهبوه، وحاصروا القلعة، حتّى أشرفت على الأخذ، والملك العادل مقيم في «عالقين».

(١) في مفرج الكروب ٢٥٤/٣ : «وفي هذه السنة تتابعت أمداد الفرنج من رومية الكبرى ... واجتمعوا كلهم بعكا، عازمين على قصد القدس الشريف، وانتزاعه من أيدي المسلمين» — انظر ابن الأثير ٣١٤/٩.

(٢) في مفرج الكروب ٢٥٧/٣ : «ثم قصدت الفرنج الطور ... وحصروها وزحفوا اليها، وصعدوا إلى جبلها حتى وصلوا إلى سور القلعة ... فاتفق أن بعض ملوكهم قتل، فعادوا عن القلعة وتركوها» — انظر ابن الأثير ٣١٥/٩.

(٣) في مفرج الكروب ٢٥٨/٣ : «ونزلوا على بر الجيزة وبينهم وبين ثغر دمياط بحر النيل ... وكان على النّيل برج منيع».

(٤) في مفرج الكروب ٢٦٠/٣ : «ولما نزل الفرنج برّ الجيزة نزل الملك الكامل بعساكره، ونزل منزلة في بر دمياط تسمى العادلية».

(٥) في مفرج الكروب ٢٦٥/٣ : «تقدم الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف

ودخلت سنة خمس عشرة وستمائة

وتحرّك ملك الرّوم «كيكاوس»، ومعه «الملك الأفضل»، طالبًا أن يملك حلب[١]، ويطمع «الأفضل» أن يأخذها له، ليرغب الأمراء في تمليكه عليهم؛ وكاتب جماعة من الأمراء، وكتب لهم التواقيع، ومِنْ جملة مَنْ كاتَبه «عَلَم الدّين قيصر». وكتب له ٥ توقيعًا «بأبلستان».

طمع الافضل في حلب

واغتنما شغل قلب «الملك العادل» بالفرنج، ووافقهما الملك الصّالح[٢] — صاحب آمد —

وكان «كيكاوس»، يريد الملك لنفسه، ويجعل «الأفضل» ١٠ ذريعة للتوصّل إليه، وكاتبه ‖ أمراء حلب الّذين كانوا يميلون[٣] إلى [٢٣٩ ظ] «الأفضل». فجمع العساكر، واحتشد، واستصحب المناجيق، وسار في شهر ربيع الأوّل، فنزل رعبان وحصرها، وفتحها.

الاشرف في حلب

فسيّر «الأتابك شهاب الدّين» «زين الدّين ابن الأستاذ» رسولًا إلى «الملك العادل»، يستصرخه على «الرّومي»، ١٥ و«الأفضل». فكتب إلى ولده «الملك الأشرف»، يأمره بالرّحيل إلى إنجاد حلب بالعساكر، وسيَّر اليه خزانةً، وجعل «الملكَ

أن يدخل الى بلاد الفرنج ويغار إليها ... ودخل الى بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط» — انظر ابن الأثير ٩/٣١٧.

(١) في مفرج الكروب ٣/٢٦٥: «وحكى الصاحب كمال الدين ابن العديم: أن عز الدين لما قصد البلاد، أطمع الملك الأفضل أنه يملكه حلب طمعاً أن يميل الأمراء بحلب اليه، لميلهم الى الملك الأفضل، وكانت جماعة من أمراء حلب، وكتب لهم التواقيع...» — والتتمة كما عندنا.

(٢) الملك الصالح الأرتقي.

(٣) في مفرج الكروب ٣/٢٦٦: «وكاتب عز الدين الأمراء الحلبيون الذين كانوا يؤثرون الملك الأفضل».

المجاهدَ »[١] — صاحب حمص — في مقابلة الفرنج .

وسار « الملكُ الأشرف » ، حتى نزل حلبَ « بالميدان الأخضر » . وخرج الأمراء إلى خدمته ، واستحلفهم ، وخلع عليهم ، وأتاه « مانع » أميرُ العرب[٢] بجموعه المتوافرة ، وعاث العرب في بـلد حلب ، و « الملك الأشرف » يداريهم لحاجته اليهم . ٥

وسار علمُ الدّين قيصر إلى ملك الرّوم من « دربساك » ،وجاهر[٣] بالعصيان ، ونزل « نجم الدين ألطنبغا » اليه من « بهسنى » . وتسلّم الروميّ « المرزبان »[٤] ، وسار إلى « تلّ باشر » وهي في يد ولـد « بدر الدين دلدرم » ، فنازلها ، وحصرها ، وفتحها . ولم يعط الملك الأفضلَ شيئًا من البلاد التي افتتحها . ١٠

الافضل في منبج

فتحقّق « الملكُ الأفضلُ » فسادَ نيته ، وسار إلى منبج ، ففتحها بتسليم أهلها ، وكان قد صار في جملته رجل يقال له « الصّارم المنبجي » ، وله اتباع بمنبج فتولّى له أمر « منبج » ، وشرع في ترميم سورها ، واصلاحه .

وسار « الملك الأشرف » نحوه من حلب إلى « وادي بزاعًا » على عزم لقائه ، وجماعة من الأمراء المخامرين في صحبته ، فنزل في وادي بزاعًا . وسيّر « الرُّومي » ألفَ فارس[٥] ، هم نخبة عسكره ، ١٥

(١) الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص .

(٢) في مفرج الكروب ٢٦٦/٣ : « ووصل اليه الأمير مانع بن حديثة — أمير العرب — في جمع عظيم من العرب » .

(٣) في مفرج الكروب : « وسار علم الدين قيصر الظاهري إلى السلطان عز الدين من دربساك وجاهر بالعصيان » .

(٤) في المفرج : « وتسلم عز الدين المرزبان » .

(٥) في مفرج الكروب ٢٦٧/٣ : « ولما سمع عز الدين بتقدم الملك الأشرف اليه ، سيّر ألف فارس ، وهم خيار عسكره وأبطالهم وقدّم عليهم سوباش سيواس » .

ومقدّمهم «سوباشي سيواس» ، فوصلوا إلى «تلّ قبّاسين»[١] فوقع [٢٤٠ و] ‖ عليهم العرب ، واحتووا عليهم ، وعلى سوادهم .

وركب «الملكُ الأشرف[٢]» ، فوصل إليهم ، وقد استباحوهم قتلًا وأسرًا ، وسيّروا الأسرى إلى حلب ، ودخلوا بهم والبشائر تضرب بين ٥ أيديهم ، وأودعوا السّجن .

الاشرف في تل باشر

ولما سمع «كيكاوس» ذلك ، سار عن منبج هاربًا ، ورحل «الملكُ الأشرف» من منزلته ، واتبعه يتخطّف أطراف عسكره ، حتى وصل إلى «تل باشر» ، فنزل عليها ، وحاصرها حتى افتتحها ، وسلّمها إلى نُوّاب الملك العزيز ، ١٠ وقال : «هذه كانت ، أولًا ، للملك الظّاهر – رحمه الله – وكان يؤثر ارتجاعها إليه ، وأنا أردّها إلى ولده» .

وذلك في جُمادى الأولى ، من سنة خمس عشرة وستمائة .

ثم انه ملّكها للأتابك شهاب الدين طغرل ، في سنة ثمان عشرة وستمائة ، بجميع قراها .

١٥ ثم سار «الملك الأشرف» إلى «رعبان» و «تلّ خالد» فافتتحهما وافتتح «برج الرّصاص»[٣] ، وأعطى الجميع «الملك العزيز» . وأقطعت «رعبان» لسيف الدين بن قلج .

وعاد منكفئًا إلى حلب ، ونزل على «بانقوسا»[٤] .

---

(١) تلّ قباسين : علقنا عليها في زبدة الحلب ١٣٢/٢ وقلنا إنها قرية من قرى العواصم من أعمال حلب .

(٢) انظر خبر ذلك في مفرج الكروب ٢٦٧/٣ .

(٣) ما جاء في ابن العديم يرد تماماً في مفرج الكروب على تفصيل أو ايجاز فهما متشابهان في الرواية والأسماء .

(٤) بانقوسا : ذكرنا موقع هذا الحيّ من حلب ، في الصفحات السابقة – انظر مفرج الكروب ٢٦٩/٢ .

موت العادل

وكان الخبرُ قد ورد بموْت «الملك العادل[١]» — رحمه الله —

وكان مرض على «عالقين»[٢] ، فرحل الى دمشق ، فمات في الطريق ، في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة .

فلبيفه العادل

فكتب الأتابك شهاب الدّين بذلك إلى الأمراء ، و «الملك الأشرف» قد قارب «مدينة حلب» ، فأعلموه بذلك ، فجلس في خيمته للعزاء ، وخرج أكابر البلد والأمراء إلى خدمته ، وأنشده الشعراء مراثِيَ الملك العادل[٣] ، وتكلَّم الوعَّاظ بين يديه . ٥

ولما انفصل العزاءُ ، سيَّر «الأتابك شهاب الدّين» إلى «الملك الأشرف»[٤] ، ‖ وتحدّث معه في أن يكون هو السّلطان موضع أبيه ، ١٠ وان يخطب له في البلاد ، وتضرب السكَّة باسمه ، وأن تكون العساكر الحلبيّة في خدمته[٥] . فقال : [٢٤٠ ظ]

(١) في ابن الأثير ٣٢٦/٩ «توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب سابع جُمادى الآخرة ، من سنة خمس عشرة وستمائة» .

(٢) في مفرج الكروب ٢٧٠/٣ : «وكان نازلاً بمرج الصفر ، ثم رحل منها إلى عالقين ، فنزل بها ، واشتد مرضه ، ثم توفي إلى رحمة الله سابع جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعني سنة خمس عشرة وستمائة ، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة ، فكان عمره خمساً وسبعين سنة» ومدة ملكه لدمشق كانت ٢٣ سنة ، ومدة ملكه لمصر ١٩ سنة ، وله ستة عشر ولداً — انظر ابن الأثير ٢٢٦/٩ .

(٣) جاء مثل هذا في مفرج الكروب ٢٦٩/٣ .

(٤) من المعلوم أن الملك الأشرف مظفر الدين موسى هو صاحب البلاد الشرقية وخلاط ، بعد أخيه الملك الأوحد ابن الملك العادل .

(٥) كل ما جاء في ابن العديم صورة لما ورد في مفرج الكروب ٢٦٩/٣ .

تدبير حلب وأعمالها

الملك الكامل

«لا والله لا أُغيِّر قاعدة قرَّرها أبي، بل يكون السُّلطان أخي «الملك الكامل»، ويكون قائمًا مقام أبي».

فاتَّفق الحال بين «أتابك» وبينه، برأي القاضي «بهاء الدّين»، وسيف الدّين ابن علم الدّين، وسيف الدّين بن قلج، على أن خُطب بحلب وأعمالها[1] «للملك الكامل»، وبعده للملك الأشرف، ثم للملك العزيز.

وضُرب اسم «الملك الكامل»، والملك العزيز، على السكَّة. وجُعل أمرُ الأجناد والأقطاع في عسكر حلب إلى «الملك الأشرف»، وأخليت له دار «الملك الظافر»[2] «بالياروقية»، فنزل فيها، ورُتب له برسم المعونة، من أعمال حلب «سرمين» و«بزاعا» و«الجبّول»[3].

ووصلت إليه رسل البلاد، من جميع الجهات، ومالوا اليه، وصاروا أتباعًا له، وأمر ونهى ببلد حلب، في الأجناد والأقطاع لا غير. وتردّد أكابر الحلبيّين إلى خدمته، وخلع عليهم، وانقضى فصل الشتاء.

---

(١) في مفرج الكروب ٣/٢٦٩: «وأعمالها للسلطان الملك الكامل ناصر الدين أبي المعالي محمد ابن الملك العادل ...»

(٢) في مفرج الكروب: «الملك الظافر خضر ابن الملك الناصر».

(٣) علقنا على موقع «الجبّول» في الصفحات السابقة من زبدة الحلب.

وهنا يقف كتاب مفرج الكروب، عند نهاية الجزء الثالث، ونحرم من مقابلة نص غني يشبه ما جاء في كتاب ابن العديم من أحداث.

ودخلت سنة ست عشرة وستمائة

تحرك المصريين

فأقطع الأقطاع لأجناد حلب ، ورتَّب أمور أمرائها ، ولا يفعل شيئًا من ذلك إلّا بمراجعة «الأتابك شهاب الدّين» ، وبدا من الأمراء المصريين تحرّك في أمره ، وكرهوا أمره ونهيَه في حلب ، وخافوا من استيلائه عليها ، وانتقامه منهم لميلهم إلى «الملك الأفضل» . وبلغه عنهم أشياء عزموا عليها ، وهو ثابت لذلك كله .

ووصلته رسل أخيه «الملك الكامل» ، يطلب منه النجدة إلى «دمياط» . وكان «ابن المشطوب»[1] قد أراد الوثوب عليه[2] وتمليك «الفائز» أخيه ، فأخرجه من الديار المصريّة ، بعد ‖ أن رحل من [٢٤١ و] منزلته ، التي كان بها في قبالة الفرنج ، وعبور الفرنج اليها ، ونهب الخيم ومنازلة «دمياط» ، وقطعهم المادة عنها .

نجدة لدمياط

فاتفق رأيُ «الملك الأشرف» على تسيير الأمراء ، الذين كانوا يضمرون له الغدر ، فسيّرهم نجدة إلى أخيه ، وهم المبارزان : «ابن خطلخ» و «سنقر» الحلبيّان ، وابن كهدان ، وغيرهم .

وخاف ابن خطلخ منه ، فاستحلفه على أن لا يؤذيه ، فحلف له ، وسيَّرهم إلى أخيه «الملك الكامل» ، فأقاموا عنده بالكلية .

---

(١) في ابن الأثير ٣١٦/٩ : «وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن عليّ ويعرف بابن المشطوب ، وهو من الأكراد الهكارية ، وهو أكبر أمير بمصر» .

(٢) في ابن الأثير ٣٢٧/٩ : «بلغه أن جماعة من الأمراء قد اجتمعوا على تمليك أخيه الفائز عوضه ، فخافهم ، ففارق منزلته» .

وتوفّي نورُ الدّين[١] – صاحب الموصل – في هذه السنة . وترك ابنًا صغيرًا قام «بدر الدين لؤلؤ» ، مملوك جدّه بتربيته . وخطب للكامل والأشرف .

وقام زنكي ابن عز الدين ، فأخذ «العمادية» – وهي قلعة حصينة فيها أموال الموصل – بمواطأة من أجنادها ، وعزم على أخذ الموصل ، وقال : «أنا أولى بكفالة ابن أخي» . وساعده[٢] «مظفّر الدّين» صاحب «إربل» على ذلك ، فسيّر لؤلؤ رسولًا إلى «الملك الأشرف» إلى حلب ، يطلبُ إنجاده ، فسيّر اليه عزّ الدّين أيبك الأشرفي .

ابن المشطوب في حماة

وكان عمادُ الدّين ابن سيف الدّين علي المشطوب ، لما نُفي من الديار المصريّة ، قد وصل إلى «حماة» ، وأقام عند صاحبها ، وكاتب «الملك الأفضل» ، وجمع جموعًا كثيرة من الأكراد ، وأرباب الفساد ، وساعده الملك المنصور – صاحب حماة – بالمال والرجال على ذلك وعزم على أن يمضي ، بمن جمعه من العساكر إلى الأفضل ، وأن يقوم معه ، ويساعده صاحب حماة ، وسلطان الرّوم .

ثم سار ابن المشطوب ، بغتة ، وخاض بلد حلب ، وكان الزمنُ زمن الربيع ، وخيول الأجناد متفرّقة في الربيع ، فوصل إلى «قنّسرين» || ونفذ منها إلى «تلّ أعون» ، وبلغ «الساجور» ، واستاق في طريقه ما وجد من الخيل ، وغيره . [٢٤١ ظ]

(١) في ابن الأثير ٣٢١/٩ : «توفي نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر صاحب الموصل ، وكان لا يزال مريضاً بعدة أمراض ، فرتب بدر الدين في الملك بعده أخاه ناصر الدين ، وله من العمر نحو ثلاث سنين ، ولم يكن للقاهر ولد غيره» .

(٢) في ابن الأثير ٣٢٢/٩ : «فنزل بظاهر الموصل أياماً ، وأصرّ على عبور دجلة ، فعبرها بدر الدين موافقة له ، ونزلوا على فرسخين من الموصل ، شرقي دجلة ، فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره ، ومعه زنكي» .

القبض على ابن المشطوب

وبلغ خبره إلى الملك الأشرف، فأركب مَن كان بحضرته من العساكر، خلفه، وكان فيهم ابن عماد الدّين صاحب «قرقيسيا»، فلحقوه على «السّاجور»، وفي صحبته «نجم الدّين بن أبي عصرون»، فقبضوا عليه وأتوا به إلى «الملك الأشرف»، فعفا عنه، و«عن ابن أبي عصرون»، وأقطع ابن المشطوب «رأس عين» ٥ وأقام عنده مخيّمًا «بالياروقيّة»، إلى أن دخل شعبان، من السنة المذكورة.

وسار «الملك الأشرف»، إلى بلاده الشرقيّة، لاصلاح أمر الموصل، وكان صاحب إربل[1] وزنكي، قد كسرا «لؤلؤ» و«أيبك الأشرفي»، على الموصل. فنزل الملك الأشرف على حرّان، وفي صحبته عسكر حلب.

١٠ ومات «كيكاوس»[2]، ملك الروم، وملك بعده أخوه كيقباذ، فراسل الملك[3] الأشرف، واتفق معه.

وخربت القدس في أوائل هذه السنة.

هجوم الفرنج

وخرج إلى الفرنج المنازلين «دمياط» نجدةٌ من[4] البحر، ووقع الوباء في أهل «دمياط»، وضعفوا عن حفظها، فهجمها ١٥ الفرنج على غفلة من أهلها، في عاشر شهر رمضان، والملك الكامل، مرابط حولها بالعساكر، وابتنى مدينة سماها «المنصورة»، أقام فيها في مقابلة الفرنج.

(١) مظفر الدين صاحب اربل.

(٢) في ابن الأثير ٣٢٣/٩: «فاتفق أن كيكاوس مات في ذلك الوقت وكفى الأشرف وبدر الدين شرّه» – وهو عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ملك الروم، كما مر معنا من قبل، وبدر الدين هو دلدرم الياروقي. وفي ابن الأثير ٣٢٧/٩: «في هذه السنة – ٦١٦ هـ – توفي الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ابن قلج أرسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وما بينهما من بلاد الروم».

(٣) في ابن الأثير ٣٢٨/٩: «فأرسل إلى الملك الأشرف، وصالحه، وتعاهدا على المصافاة والتعاضد، وتصاهرا».

(٤) في ابن الأثير ٣١٨/٩: «واتفق في تلك الحال أنه وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة، وحوله عدة حراقات تحميه، والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه».

ودخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والملك الأشرف في «حرّان» ، و «ابن المشطوب» في اقطاعه «رأس عين» ، وقد داخل صاحب «ماردين» ؛ وقرّر الأمر معه على العصيان على «الملك الأشرف» ، وجمع جماعة من الأكراد ، فنمي الخبر إلى الملك الأشرف . ٥

عصيان ابن المشطوب

[٢٤٢ و] ‖ وخاف ابن المشطوب» « ، فسار إلى سنجار ، فاعترضه والي «نصيبين» ، من جهة الملك الأشرف ، وقاتله فهزمه ، واستباح عسكره ، وسار الى سنجار ، فأجاره قطب الدّين صاحبها . وأرسل «الملك الأشرف» اليه ، في طلبه ، فلم يجبه الى ذلك ، فسار الملك الأشرف نحوه ، فترك «سنجار» ، ومضى إلى «تلعفر»[1] ، فعصى بها ، فوصل اليه «ابن صبره» وعسكر الموصل. ١٠

ووصل «الملك الأشرف» إلى «سنجار» ، وفتحها ، وعوّض صاحبها «بالرّقة» عنها ، وفتح لؤلؤ «تلعفر» ، وسلّمها إلى «الملك الأشرف» ، واستجار «ابن المشطوب» بلؤلؤ ، فأجاره على حكم الملك الأشرف ، فيه ، وسلّمه الى الملك الأشرف ، فقيّده ، وسجنه بسنجار. ١٥

الاشرف في الموصل

وسار الملك الأشرف إلى الموصل[2] ، ومعه عسكر حلب ، فأقام مخيّمًا على ظاهرها ، حتى أصلح أمرها مع صاحب «إربل» ، وهادنه .

---

(١) في ابن الأثير ٣٤٥/٩ : «في هذه السنة ، في ربيع الآخر ، ملك بدر الدين قلعة تل اعفر . وفيها في جمادى الأولى ، ملك الأشرف مدينة سنجار» — وفي مكان آخر ٣٢٤/٩ : «تل يعفر» .

(٢) في ابن الأثير ٣٤٥/٩ : «وصل الموصل ، وأقام بظاهرها ، ثم سار يريد اربل لقصد صاحبها ، فترددت الرسل بينهم في الصلح ، فاصطلحوا في شعبان» — وصاحب اربل هو «مظفر الدين كوكبري بن زين الدين عليّ» .

ووصل الملك «الفائز»، من الديار المصريّة، مستصرخًا، وطالبًا للنُجَد، ووصل الى حلب، وأنزل «بالميدان الأخضر»، وسار إلى الموصل، إلى أخيه «الملك الأشرف»، فأقام عنده، بظاهر الموصل، شهرًا ومات.

موت الفائز

وانفصل الملك الأشرف عن الموصل، بعد إصلاح أمورها، وشتّى «بسنجار»، وقبض على «حسام الدين بنخشترين» – وكان أميرًا من أمراء حلب – لغَدْرٍ بلغه عنه، وقيّده، وسيّره، وابن المشطوب[1] إلى قلعة «حرّان»، فحبسهما فيها إلى أن ماتا.

وصول المعظم

وقبض على ابن عماد الدّين – صاحب «قرقيسيا» –، وأخذها، «وعانة» والبلاد التي كانت معه من يده، وقدم حرّان، فوصل إليه أخوه «الملك المعظّم»[2] في ‖ محرّم سنة ثمان عشرة [٢٤٢ ظ] ١٠ من دمشق، فوافقه على الصعود الى الديار المصريّة، لازاحة الفرنج عنها، فجهّز العساكر، واستدعى عسكر حلب، وعبر الفرات، والتقى بعسكر حلب.

الاشرف في مصر

وسار إلى دمياط، مع أخيه «الملك المعظّم»، وخرج الفرنج عن «دمياط»[3]، ونزلوا في مقابلة المسلمين، فأرسلوا ١٥ الماء عليهم[4]، فمنعهم من العود الى «دمياط»، ولم يبق

(١) في ابن الأثير ٣٢٢/٩ : «وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف واستمالهم، فأجابوه، منهم أحمد بن علي بن المشطوب» – «وأخذ ابن المشطوب معه إلى الموصل فسجنه بها، ثم أخذه منه الأشرف فسجن بحرّان إلى أن توفي في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة، ولقاه الله عقوبة ما صنع بالمسلمين في دمياط».

(٢) في ابن الأثير ٣٣٧/٩ : «فاتفق ان الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف وهو بحران يستنجده على الفرنج الذين بمصر».

(٣) في ابن الأثير ٣١٧/٩ : «وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل، وقصدوا الملك الكامل، ونزلوا مقابله بينهما خليج النيل يسمى بحر أشمون».

(٤) في ابن الأثير ٣١٨/٩ : «فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنج، ففجروا النيل، فركب الماء أكثر تلك الأرض، ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق».

لهم طريق اليها ؛ وزحف المسلمون عليهم ، واستداروا حولهم ، فطلبوا الأمان[1] وتسليم « دمياط » ، فتسلَّمها المسلمون في العشرين من شهر رجب سنة ثمان عشرة وستّمائة .

موت صاحب حماة

وكان الملك المنصور – صاحب حماة – قد توفّي في ذي القعدة ، سنة سبع عشرة وستّمائة . وكان ابنه الكبير « الملك المطهّر » ، في نجدة خاله بدمياط ، فاستولى ابنه الملك الناصر ، على حماة ، وسيّر إلى الأتابك شهاب الدين ، يطلب الاعتضاد به ، والسفارة بينه وبين خاله « الملك الأشرف » ، على أن ينتمي إليه ، ويخطب له ، على أن يمنع عنه من يقصده ، وروسل في ذلك ، فأجاب ، وحلف له على ذلك .

١٠

ونزل « الملك الأشرف » من الدّيار المصرية ، ووصل إلى بلاده ، وسيّر كتابًا إلى الأتابك شهاب الدّين ، يتضمّن أنّه :

البلاد في يد الاشرف

« لما وقع الاتفاق في الابتداء ، وعرض عليّ « الجبول » و « بزاعا » و « سرمين » ، أجبتُ إلى ذلك ، ليعلم المخالفُ والعدوُّ ، أن البلاد قد صارت واحدةً ، والكلمة متّفقة ، والآن فقد تحقّق الناسُ كلّهم ذلك ، وأوثر الآن التقدّم إلى نوّاب المولى « الملك العزيز » في قبضها ، واجرائها على العادة ، || وصرفها في مصالح بلاده فأجبت الى ذلك » .

١٥

[٢٤٣ و]

ورفع « الملك الأشرف » أيدي نوابه عنها .

(١) يوجز هنا ابن العديم ما يفصّله ابن الأثير ، اذ يقول في الكامل ٣١٨/٩ : « فراسلوا الملك الكامل والأشرف يطلبون الأمان ليسلّموا دمياط بغير عوض ... وسلّموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور ، وكان يوماً مشهوداً » .

وفي سنة تسع عشرة وستمائة

توجَّه « الملك الصّالح »[1] ابن « الملك الظّاهر » إلى « الشّغر » و « بكاس » ، وأضيف اليه « الروج » و « معرة مصرين » . ورتّب جماعة من الحجّاب والمماليك في خدمته ، وذلك في جمادى الأولى .

وفي ذي الحجة — من سنة تسع عشرة وستمائة — خرج الملك صاحب حماة إلى الصَّيد ، فبلغ ذلك « الملكَ المعظَّم عيسى » ، صاحبَ دمشق ، فخرج مجدًّا من دمشق ، ليسبق صاحبها إليها فيملكها ، فانتهى الخبر إلى « الناصر » ، فسبق اليها .

المعظم في حماة

ووصل الملك المعظَّم إلى حماة ، فوجد الملكَ الناصرَ قد وصلها ، وفاتَه ما أراد ، فسار إلى « معرَّة النُّعمان » ، واحتوى على مغلّاتها ، وسيّر أتابك شهاب الدّين إليه ، تقدمةً مع مظفَّر الدين بن جرديك ، إلى المعرّة ، فقبلها ، واعتذر بأنَّه إنما جاء لكتابٍ ، وصله من « الملك الكامل » ، يأمرُه أن يقبض على خادم هرب منه ، وأنَّه خرج خلفَه ليدركه ، فلما قرب من « حماة » ، بدا من صاحبها من الامتهان ، وعدم النزل والاقامة ما لا يليق . وتَجنّى عليه ذنوبًا لا أصل لها ، والملك الكامل ، والملك الأشرف ، حينئذ بمصر .

(١) في أبي الفداء ، تحت سنة ٦١٩ ه : « فوض الأتابك طغريل مدبّر مملكة حلب إلى الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر أمر الشغر وبكاس ، فسار الملك الصالح من حلب ، واستولى عليها وأضاف اليها سروج ومعرة مصرين » .

ودخلت سنة عشرين وستمائة

المعظم في سلمية

فرحل «الملك المعظم» إلى «سلمية»، بعد أن رتّب «بالمعرّة» واليًا، ورتّب «لسلمية» واليًا من قبله، وعزم على حصار «حماة»، واستعدّ صاحبها للحصار، ووكّل الملك المعظّم ٥ العرب، لقطع الميرة عن حماة، ومنع مَن يقصدها من الأجناد للانجاد، وحوّل ‖ طريق القافلة على سلمية. [٢٤٣ ظ]

وأرجف الناس بأن حسام الدين ابن أمير تركمان، قد وافق الملك المعظّم، وأنه قد صاهر صاحب «صهيون»[١]، وكان سيف الدين ابن قلج، هو الذي أشار بترتيبه في اللاذقية وضمنه، فسار إليه، ١٠ فلم يمتنع من تسليمها ولم يكن لما ذكر عنه صحّة؛ فترك سيف الدين ابن قلج بها أخاه عماد الدين، واستصحب حسام الدين، معه الى حلب، فأقام إلى أن زال الاستشعار من جهة «الملك المعظم»، وردّت إليه.

رسول الاشرف في حلب

ووصل حسام الدّين الحاجب علي – نائب الملك الأشرف ١٥ في بلاده إلى حلب – واجتمع بأتابك شهاب الدّين، وأعلمه أنّ الملك الأشرف، كتب إليه أن يرحل إلى «الملك المعظّم»، ويرحّله عن بلاد «الناصر»، ويعلم «أتابك» أن هذا الّذي وقع، لم يكن بعلم «الملك الكامل»، ولا «الملك الأشرف»، وانّهما لا يوافقانه على ذلك، وسار الحاجب إليه في هذا المعنى.

٢٠ ووصل «الناصح أبو المعالي الفارسي» – أحد أمراء حلب – برسالة «الملك الكامل» من مصر، وكان قد صعد إليها إلى خدمته «الملك الأشرف»، وكان هو الحاجب بين يديه إذ ذاك، والأمور

(١) صهيون: حصن من أعمال حمص، قرب ساحل البحر.

كلّها راجعة اليه ، فقال له الناصح : «الملكُ الكامل يأمر المولى بالرَّحيل ، وترك الخلاف» ، فأجاب إلى ذلك ، وقرَّر الصلح بين صاحب حماة وبينه ، ورحل إلى دمشق ، وعاد الناصح الى مصر .

ونقل السلطان الملك الظَّاهر ، من الحجرة التي دفن بها بالقلعة ، الى القبة ، بالمدرسة[1] التي ابتناها له أتابك ، ودفنه بها في اول ٥ [٢٤٤ و] ‖ شعبان من سنة عشرين وستمائة .

في حلب

ونزل الملك الأشرف من مصر ، ووصل الى حلب في شوال من سنة عشرين ، والتقاه «الملك العزيز» ، ونزل في خيمته ، قبليّ «المقام» وشرقيّه ، بالقرب من «قَرَنْبيا»[2] ، وكان قد صحبه خلعة للملك العزيز من «الملك الكامل» ، وسنجق . ١٠

وخرج «الملك العزيز» ، وأهل البلد ، في خدمته ، بعد ذلك ، ودخل الناس إلى الخيمة ، في خدمة السلطان الملك العزيز .

الخلع الكاملية

ومدَّ «الملك الأشرف» السّماط ، في ذلك اليوم للناس ، فلما أكلوا ، وخرج الناس من الخيمة ، أحضر «الخلع الكاملية» ، وأفاضها على الملك العزيز . ووقف قائمًا في خدمته . ١٥ ثم أحضر المركوب فأركبه . وحمل الغاشية بين يديه ، حتى خرج من الخيمة ، وركب إلى القلعة .

وأقام «الملك الأشرف» ، مقدار عشرة أيام ، واتفق رأيه مع الأمراء على اخراب قلعة «اللّاذقية» ، فسار العسكر اليها ، وخرّبوها في هذه السَّنة .

---

(١) في الدر المنتخب لابن الشحنة ١١٣ : «المدارس الشافعية التي بظاهر حلب – أولها الظاهرية : أنشأها السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب» – وهذه المدرسة خربة الآن .

(٢) قَرَنْبيا : مشهد نزه بين قرية النيرب وحلب قيل انه محرّف عن مقر الأنبياء وبه دفن أقسنقر .

وتوجَّه الملكُ الأشرفُ إلى حرّان ، وعصى الملك المظفَّر «شهاب[1] الدين غازي» أخوه ، عليه «باخلاط»[2] ، وكان أخوه «الملك[3] المعظَّم» ، هو الذي حمله على ذلك ، وحسّنه له ، لأجل ما سبق من «الملك الأشرف» ، في نصرة صاحب حماة .

عصيان المظفر

٥ فاستدعى «الملكُ الأشرفُ» عسكرًا من حلب ، فسار إليه عسكرٌ قويٌّ فيهم : سيف الدّين بن قلج ، وعلم الدين قيصر ، وحسام الدين بُلدق ، في سنة إحدى وعشرين وستمائة .

وسار إلى «اخلاط» ، واتَّفق «مظفَّر الدين» – صاحب اربل – والملك المعظَّم || صاحب دمشق ، على أن يخرج هذا إلى جهة «الموصل» ، [٢٤٤ ظ]
١٠ وهذا إلى جهة «حمص» ، ليشغلا «الملك الأشرف» عن اخلاط ، فسيّر «الملك الأشرف» ، وطلب طائفة من عسكر حلب ليقيم بسنجار ، خوفًا من أن يغتالها صاحب «إربل» .

عسكر الاشرف

وخرج «الملك المعظَّم» ، وأغار على بلد حمص ، وبارين ، ووصل إلى «بحيرة قدس» ، وعاد .

١٥ ووصل الملك الأشرف[4] إلى «اخلاط» ، فخرج أخوه ، وقاتله ، فهزمه إلى «اخلاط» ، وفتحها أهلها للملك الأشرف .

---

(١) في ابن الأثير ٣٥٣/٩ ، ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك الأشرف ، وأخذ خلاط منه .

(٢) ذكرنا «خلاط» في الصفحات السابقة وعلقنا عليها .

(٣) في ابن الأثير : «واتفق هو وأخوه المعظّم عيسى صاحب دمشق ، ومظفر الدين ابن زين الدين صاحب إربل على الخلاف للاشرف والاجتماع على محاربته» .

(٤) في ابن الأثير ٣٥٤/٩ : «فسار الأشرف اليه ، وقصد خلاط ، وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته ، لحسن سيرته كانت فيهم وسوء سيرة غازي ، فلما حصرها سلّمها أهلها اليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة» .

واحتمى الملك «المظفّر» بالقلعة، حتى عفا[1] عنه أخوه الملك الأشرف، وخرج إليه، وأبقى عليه «ميّافارقين».

وعاد عسكر حلب والملك الأشرف، في رمضان، وشتّى الملك الأشرف بسنجار.

تهدم في القلعة

وانهدم في هذه السّنة من سور قلعة حلب الأبراج التي تلي «باب الجبل»[2]، من حدّ المركز، وهي عشرة أبراج[3]، وتساقطت مع أبدانها، في سلخ ذي القعدة. ووافق ذلك شدّة البرد في الأربعينيات، فاهتم «أتابك شهاب الدّين» بعمارتها، وتحصيل آلاتها، من غير أن يستعين فيها بمعاونة أحد، ولازمها بنفسه، حتى أتمّها في سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وفاة الافضل

ومات الملكُ الأفضل، «بسميساط»، في هذه السنه[4] في صفر، وحُمل الى حلب، فدفن في التربة[5]، التي دَفن فيها أمّه قبليّ «المقام».

(١) في ابن الأثير ٩/٣٥٤: «وبقي غازي في القلعة ممتنعاً، فلما جنه الليل نزل إلى أخيه معتذرًا ومتنصلاً، فعاتبه الأشرف، وأبقى عليه، ولم يعاقبه على فعله، لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين».

(٢) باب الجبل: في الدر المنتخب ٥٠، أن الملك الظـاهر فتح في سور القلعة باباً يسمّى باب الجبل شرقي باب القلعة.

(٣) في الدر المنتخب: «وفي أيام الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي وقعت من القلعة عشرة أبرجة مع بدناتها، وذلك في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، ووافق ذلك زمان البرد... فاهتم الأتابك شهاب الدين طغرلبك بعمارتها، وجمع الصناع واستشارهم فأشاروا أن .....»

(٤) في ابن الأثير ٩/٣٥٦: «في هذه السنة في صفر توفي الملك الأفضل عليّ ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب فجأة بقلعة سميساط وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة» – انظر ترجمته مفصلة في وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٥) باب المقام: فصّل الأمر الأستاذ محمد راغب الطباخ في أعلام النبلاء ٢/٢٣٤ فذكر التربة وموقعها بظاهر حلب بالقرب من مشهد الهروي.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

خلع الخليفة

ووصل «محيي الدّين أبو المظفر ابن الجوزي» ، إلى حلب بخلعة من «الامام الظّاهر» ، الى «الملك العزيز» ، وكان قد تولّى الخلافة ، في || سنة اثنتين وعشرين ، بعد موت أبيه «الإمام [٢٤٥ و] ٥ النّاصر» ، فألبسها السلطان «الملك العزيز» ، وركب بها ، وكانت خلعةً سنيّة ، واسعة الكمّ ، سوداء ، بعمامة سوداء ، وهي مذهّبة ، والثوب بالزركش . وكان قد أحضر إلى «الملك الأشرف» خلعة ، ألبسه أياها ، وسار بخلعة أخرى إلى «الملك المعظّم» ، وخلعة أخرى ، إلى «الملك الكامل» .

المعظم في حمص

١٠ وكاتب «الملك المعظّم» خوارزمشاه[1] ، وأطمعه في بلاد أخيه «الملك الأشرف» ، ونزل الملكُ المعظّم من دمشق ، ونازل حمص ، وكان سيّر جماعة من الأعراب ، فنهبوا قراها ؛ ووصل «مانع» ، في جموع العرب لانجاد حمص ، من جهة الملك الأشرف ، فانتهبوا قرى «المعرّة» و «حماة» ، وقسموا البيادر ، ولم ١٥ يؤدوا عدادًا ، في هذه السنة ، لأحد .

ولما وصل «الملك المعظّم» إلى حمص ، اندفع «مانع» وعرب حلب ، والجزيرة ، إلى قنّسرين ، ثم نزلوا قراحصار ، ثم تركوا أظعانهم ، بمرج دابق ، وساروا جريدة إلى نحو حمص ، فتواقع «مانع» وعرب دمشق ، وقعات ، وجرّد عسكر من حلب إلى حمص ، فوصلوا اليها[2] ،

(١) في ابن الأثير ٣٦٧/٩ : «استقرت القاعدة بينه – مظفر الدين بن زين الدين – وبين جلال الدين بن خوارزمشاه وبين الملك المعظم صاحب دمشق وبين صاحب آمد ... ليقصدوا البلاد التي بيد الأشرف ، ويتغلبوا عليها ، ويكون لكل منهم نصيب ذكره» .

(٢) انظر ما ذكر ابن الأثير عن ذلك ٣٦٧/٩–٣٦٨ .

قبل أن ينازلها الملك المعظَّم ، فحين وصلوها اتّفق وصولُ عسكر دمشق ، فاقتتلوا ، ثم دخلوا إلى مدينة حمص.

الاشرف في الرقة

وكان «الملك الأشرف» ، على «الرَّقة» ، فجاءه الخبر بحركة «كيقباذ» ، وخروجه إلى بلاد صاحب «آمد» ، وأخذه «حصن منصور» ، و «الكختا»[1] ، فسيّر «الملكُ الأشرفُ» نجدة إلى آمد ، فالتقاهم جيش «الرّومي» ، وهزمهم ، فعاد الملك الأشرف إلى «حرّان» ، وخرج من بقي من عسكر حلب إلى حاضر «قنسرين» لانجاد صاحب حمص.

[٢٤٥ ظ] ووقع ‖ الفناء في عسكر «الملك المعظَّم»[2] ، وماتت دوابّهم ، وكثر المرض في رجالهم ، فرحل عن حمص ، في شهر رمضان من السَّنة .

الاشرف في دمشق

وسار «الملك الأشرف» ، عند ذلك بنفسه إلى دمشق ، واجتمع بأخيه «الملك المعظَّم» قطعًا لمادّة شرّه ، وزيّنت دمشق لقدوم الملك الأشرف ، وعقدت بها القباب .

وأظهر الملك المعظَّم السُّرور بقدومه ، وحكَّمه في ماله ؛ وباطنه[3]

(١) في الأصل بالمخطوطتين : «الكحتين» – وفي ابن الأثير ٣٦٩/٩ : «ففتحوا حصن منصور وحصن شمكازاد وغيرها» – وكيقباذ هو علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو ابن قلج أرسلان ملك بلاد الروم، ولعل القلعة هنا كما قال ابن الأثير بعد هذا : «وهم يحاصرون قلعة الكختا» ويصفها بأنها من أمنع الحصون والمعاقل كما نرى – و «كختا» تقع على أربعين ميلاً من الجنوب الشرقي لملطية .

(٢) في ابن الأثير ٣٦٩/٩ : «فانهزم صاحب آمد ومن معه من العساكر هزيمة عظيمة ، وجرح كثير ، وأسر كثير ، وملك عسكر كيقباذ قلعة الكختا بعد الهزيمة ، وهي من أمنع الحصون والمعاقل» .

(٣) يعلّل ابن الأثير في تفصيل سبب هذا الفتور بين الأخوين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس وما يجاورها ، والملك الأشرف موسى صاحب ديار الجزيرة وخلاط ، ويحسن الرجوع اليه في الكامل ٣٧١/٩ .

ليس كظاهره ، ورسله تتردّد إلى «خوارزمشاه» في الباطن ، وجاءته خلعة من «خوارزمشاه» فلبسها .

وكانا لما انقضى شهر رمضان ، قد خرجا عن دمشق ، إلى «المرج» ، وورد عليهما رسولا حلب : القاضي زين الدّين ابن الاستاذ نائب القاضي بهاء الدّين ، ومظفَّر الدّين بن جورديك ، يطلبان تجديد الأيمان «للملك العزيز» ، و «أتابك» .

فوجد «الملك الأشرف» ، وقد أصبح مع «الملك المعظَّم» ، بمنزلة التبّع له ، ويطلب مداراته بكلّ طريق ، وهو لا يتجاسر أن ينفرد بهما في حديث ، دون الملك المعظَّم . و «الملك المعظَّم» يشترط شروطًا كثيرة ، والمراجعات بينهما وبين أتابك إلى حلب مستمرة مدة شهرين .

اتفاق الاخوين

الى أن وردت الأخبار بنزول «خوارزمشاه» على «اخلاط» ، ومحاصرتها ، وفيها «الحاجب عليّ»[1] – نائب الملك الأشرف – فهجم بعض عسكره اخلاط ، وقام مَنْ بها مِنْ أهلها وجندها ، وأخرجوهم منها ، كرهًا .

فوافق الملك الأشرف[2] أخاه ، على ما طلبه منه ، واستدعى رسولَي حلب ، وحلفا لهما ، ورحل خوارزمشاه عن «خلاط» .

وشتّى الملك[3] || المعظَّم ، والملك الأشرف «بالغور» . واضحى «الملكُ الأشرفُ» كالأسير في يديْ أخيه «الملك المعظَّم» ، لا يتجاسر على [٢٤٦ و]

(١) الحاجب عليّ حسام الدين ، وهو النائب عن الملك الأشرف بخلاط ، والمقدّم على عساكرها .

(٢) في ابن الأثير : «فلما سمع الملك الكامل بذلك عظم عليه ، وظن أن اتفاقهما عليه ، ثم إنهما راسلاه وأعلماه بنزول جلال الدين على خلاط ، وعظّما الأمر عليه ، وأعلماه أن هذه الحال تقتضي الاتفاق لعمارة البيت العادلي» .

(٣) في ابن الأثير : «وانقضت السنة ، والأشرف بدمشق ، والناس على موضعهم ينتظرون خروج الشتاء ما يكون من الخوارزميين» .

أن يخالفه في أمرٍ من الأمور ، وهو يتلوَّن معه ، وكلّما أجابه «الملك الأشرف» إلى قضية ، رجع عنها إلى غيرها ، وأقام عنده ، إلى أن دخلت سنة أربع وعشرين وستّمائة .

وانقطعت مراسلة الملك الأشرف إلى حلب ، لكثرة عيون أخيه عليه ، وكونه لا يأمن من جهة أمر يكرهه ، لانه أصبح في قبضته . ٥

رسالة المؤلف

واتّفق وصولي[1] من الحجّ ، في صفر من هذه السنة ، فاستدعاني «الملكُ الأشرف» ، وحمّلني رسالة إلى أتابك شهاب الدّين ، مضمونها ما قد وقع فيه مع أخيه .

«وأنه يتلوَّن معه ، تلوّن الحرباء ، ولا يثبت على أمر من الأمور ، وإنَّ آخر ما قد وقع بيني وبينه ، أنه التمس مني أن يحلف له ١٠ أتابك على مساعدته ومعاضدته ، وأن لا يوافق الملك الكامل عليه ، وأنَّه متى قصده الملك الكامل ، كان عونًا له على الملك الكامل » .

فلما أبلغتُ «أتابك» ما قال ، امتنع من الموافقة على ذلك ، وقال : «أنا حلَّفني الملك الأشرف للملك الكامل ، وفي جملة يمينه : أنني لا أهادن أحدًا من الملوك على قضيّة إلّا بأمره ، فاذا أراد هذا ١٥ مني فليأتني بأمر من الملك الكامل ، حتى أساعده على ذلك » .

رحيل الاشرف

وحين رأى «الملك الأشرف» وقوعه في أنشوطة أخيه ، وأن لا مخاصَ له إلّا بما يريده ، ساعده على كلّ

(١) أول عبارة لابن العديم في كتابه هذا ، يتحدث فيها بتاء المتكلم عما قام به من أعمال في خدمة بلاده ومليكه ، وقد سفر بين الملوك ، وطاف ، وتنقل (كما ذكرنا في مقدّمة الجزء الأول) ، وبذلك يصبح المصدر الرئيسي للاحداث التي يرويها ، لأنه غدا شاهد عيان ، ومؤرخاً يعاصر الذي يكتبه ويرويه ، فيذكر تفاصيل ما وقع ، ممَّا غاب أكثره عن معاصري هذه الفترة ، ومن الطبيعي بعد هذا أن نعتمده غالباً وحده ، إلاّ حين الحاجة والشرح ، والطمس ، أو تعمية العبارة . ولن ننسى أنه بلغ السادسة والثلاثين من العمر ، (فقد ولد سنة ٥٨٨ هـ) ، وكان حجة وثقة .

ما طلبه منه ، واستحلفه على الملك الكامل ، وصاحبيْ حماة وحمص ،
فاطمأن الملك المعظَّم إلى ذلك ، ومكّن ‖ الملك الأشرف من الرحيل ، [٢٤٦ ظ]
فسار إلى «الرّقة» ، في جُمادى الآخرة من السنة .

فرجع «الملكُ الأشرف» عن جميع ما قرّره مع أخيه ، وتأوَّل في
٥ أيمانه التي حلفها ، بأنه كان مكرهًا عليها ، وأنه علم أنه لا ينجيه من يديْ
أخيه إلّا موافقته فيما طلب . وندم «الملك المعظَّم» على تمكينه من الانفصال
عنه ، وسيَّر العربان إلى بلد حمص وحماة ، فعاثوا فيهما ، ونهبوا .

وخرج عسكر الأنبرور[1] – ملك الفرنج – الى عكا[2] ، في
جموع عظيمة ، فطمع صاحب حماة ، وصاحب حمص في «الملك
١٠ المعظَّم» حينئذ ، وأرسلا إليه يطلبان العوض عما أخذه من بلادهما ،
فلاطف حينئذ أخاه «الملك الأشرف» ، وأرسل إليه يطلب موافقته ،
فعنَّفه على أفعاله التي عامله بها ، وقرّعه على ماا عتمد في حقّه وحقّ أهله .

موت المعظم ومرض «الملك المعظَّم» بدمشق ومات[3] سلخ ذي القعدة .

وملك دمشق بعده «الملك الناصر»[4] ولده .

١٥ وفي هذه السَّنة ، سلّمت عين تاب ، والراوندان ، والزّوب[5] ،

---

(١) في ابن الأثير ٣٧٦/٩ : «ان ملكهم الذي هو المقدم عليهم ، هو ملك الألمان ، ولقبه انبرور ، قيل معناه ملك الأمراء» .

(٢) في ابن الأثير ٣٧٨/٩ : «ولما وصل الانبرور إلى الساحل نزل بمدينة عكا ، وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام» .

(٣) في ابن الأثير ٣٧٤/٩ : «توفي الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق ، يوم الجمعة سلخ ذي القعدة ، وكان مرضه دوسنطاريا ، وكان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده العادل عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً» – وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان أنه زار حلب سنة ٦٢٥ هـ فيحسن أن يرجع الى وصفه الباحثون ، ليتموا ما جاء عند ابن العديم وابن الأثير ، فهو قد شاهد وعاين ، وبصره بمثل هذه الأمور مشهور .

(٤) الملك الناصر داود ، وعمره حين توفي والده عشرون سنة تقريباً .

(٥) الزوب : لم نقع على هذا المكان في معاجم البلدان والمواضع بين أيدينا .

الى « الملك الصالح » ابن الملك الظاهر ، وأخــذ منه « الشغر » و « بكاس » ، وما كان في يده معها .

ودخل الحاجب[1] ، في هذه السنة ، وجمع مَنْ قدر عليه من العساكر ، إلى بلد أذربيجان ، وافتتح « خوى » ، و « سلماس »[2] ، وأخذ زوجة أزبك[3] – وكانت في خوى – وهي التي سلَّمت خوى ٥ اليه ، وكانت قد تزوجت بخوارزمشاه .

خروج الكامل من مصر

وخرج الملك الكامل من مصر حين سمع بموت أخيه . وسيَّر الملك الناصر ، إلى عمِّه الملك الأشرف ، يعتضد[4] به ، ويستمسك بذيله ، مع ابن موسك .

[٢٤٧ و] فوصل إليه إلى سنجار ، وطلبه ‖ ليأتي الى دمشق ، فسار إليه إلى دمشق . ١٠

ونزل « الملك الكامل » ، فخيَّم بتلّ العجول[5] في مقابلة الفرنج ، وسيّر الملك الأشرفُ إليه ، « سيفَ الدّين بن قلج » يطلب منه ابقاء دمشق على ابن أخيه ، ويقول له : « إننا كلنا في طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك » . فخاطبه بما أطمع الملك الأشرف في دمشق .

(١) في ابن الأثير ٣٧٤/٩ : « في هذه السنة ، في شعبان سار الحاجب علي حسام الدين ، وهو النائب عن الملك الأشرف بخلاط والمقدم على عساكرها إلى بلاد أذربيجان فيمن عنده » .

(٢) خُوى : بلد من أذربيجان كثير الخير حصين – مراصد الاطلاع ٤٩٣/١ – وأما سَلَماس : مدينة مشهورة كذلك بأذربيجان ، بينها وبين تبريز ثلاثة أيام ، أنظر مراصد الاطلاع ٧٢٩/٢ .

(٣) ابن الأثير ٣٧٤/٩ : « زوجة أوزبك بن البهلون صاحب أذربيجان » – انظر تفصيل زواجها الأول والثاني في هذا المصدر .

(٤) في ابن الأثير ٣٧٨/٩ : « قد أرسل إلى عمه الملك الأشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه » .

(٥) في النسخة : « تل الفحول » – وفي ابن الأثير ٣٧٨/٩ : « وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظم ، وهو نازل بتل العجول ، يريد أن يملك دمشق من صلاح الدين داود بن المعظم ، وهو صاحبها يومئذ » – وتل العجول بين عكا والعائدية .

القسم الحادي والثلاثون

ذكر
حلب في بقية أيام الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي

جلوس العزيز - استقلال العزيز بملكه - حروب الروم - موت العزيز

٦٢٥هـ - ٦٣٤هـ

جلوس العزيز

عبد العزيز

وأما الملك العزيز ، فانَّه في هذه السنة ، جلس في «دار العدل» في منصب أبيه ، ورفعت اليه الشكاوى ، فأجاب عنها ، وأمرَ ونَهَى ، وكان يحضر عنده الفقهاء ، في ليالي الجُمع ليلًا ، ويتكلمون في المسألة بين يديه . ٥

وحضر عيد الفطر ، فخلع على كافة الأمراء ، ومقدّمي البلد ، وأرْباب المناصب ، وعمل عيدًا عظيمًا ، احتفل فيه ، ولم يُعمل بحلب عيدٌ ، منذ مات «الملك الظّاهر» ، قبل هذه السّنة .

ووصل «الأنبرور» إلى عكا ، وخيّم الملك الكامل «بالعوجا» . ١٠ وتوجّه الملك الأشرف ، إليه من دمشق[1] ، فجدّد الأيمان فيما بينهما ، وسارت النجدة من حلب ، في آخر المحرم سنة ستّ وعشرين وستمائة ، فنزلت في «الغَور» .

تسليم القدس

وصالح «الملك الكامل» الفرنجَ على أن أعطاهم[2] مدينة «القدس» – سوى الصخرة والمسجد الأقصى – ١٥ وليس لهم في ظاهرها حكم ، وأعطاهم «بيت لحم» ، وضياعًا في طريقهم إلى القدس ، من عكا .

---

(١) في ابن الأثير : «فاصطلحا ، واتفقا ، وسار الملك الأشرف إلى الملك الكامل، واجتمع به» – انظر كذلك ابن الأثير ٩/٣٧٩ .

(٢) في ابن الأثير ٩/٣٧٨ : «فاستقرت القاعدة على أن يسلّموا اليه البيت المقدّس ومعه مواضع يسيرة من بلاده .... وتسلّم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه» .

وعاد الملك الأشرف ، واجتمع بعسكر حلب ، وبالملك الناصر ابن الملك المعظم ، فقال له : «إنّي قد اجتهدتُ في أمرك بالملك الكامل ، فلم يرجع عن قصد دمشق ، ‖ وكان آخر ما انتهى اليه أن قال : «يُعطى الملك الناصر البلاد الشرقية ، وتأخُذ أنتَ دمشق» . [٢٤٧ ظ]

فعلم الملك الناصر ، أنّهما قد توافقا على أخذ دمشق ، وكان أيبك المعظّمي[١] معه ، فأشار عليه بالرحيل الى دمشق ، فقوّض خيامه ، وسار ، ولم يمكن الملك الأشرف منعه ، ومضى الى دمشق ، وشرع في تحصينها . ٥

الاشرف في دمشق

فسار الملك الأشرف بجيوش حلب ، ونزل على دمشق ، وقطع عنها الماء ، فخرج عسكر دمشق ، وقاتلوا أشدّ القتال ، حتّى أعادوا[٢] الماء اليها ، ووصل الملك الكامل ، في جُمادى الأولى ، بالعساكر المصريّة ، وخيّموا جميعًا على دمشق . ١٠

زواج العزيز

وسار القاضي بهاء الدين ، وفي صحبته أكابر حلب وعدولها إلى دمشق ، لعقد المصاهرة بين «الملك العزيز» و «الملك الكامل» . ووصل الى ظاهر دمشق من ناحية «ضمير»[٣] . ١٥

وخرج الملك الكامل من المخيّم ، والتقاه ، وأنزله في المخيم ،

(١) في ابن الأثير ٣٧٩/٩ : « فبينما هما جالسان في خيمة لها واذ قد دخل عزالدين أيبك مملوك المعظم الذي كان صاحب دمشق وهو أكبر أمير ، مع ولده ، فقال لصاحبه داود قم اخرج وإلاّ قبضت الساعة ، فأخرجه ، ولم يمكن الأشرف منعه ، لأن أيبك كان قد أركب العسكر الذي له جميعه » .

(٢) في ابن الأثير : « فنازل دمشق وحصرها ، وأقام محاصرًا لها إلى أن وصل اليه الملك الكامل ، فحينئذ اشتد الحصار وعظم الخطب على أهل البلد » .

(٣) ضمير : قرية مشهورة قرب دمشق من قرى الغوطة وقد ذكرها المتنبي في شعره – ومشهد القدم ، كذلك : قرب دمشق مشهور معروف – والمزة : أصبحت بفضل التوسع والعمران من أحياء دمشق الخارجية .

بالقرب من «مشهد القَدَم» . وأحضره إلى خيمته ، وقدَّم ما كان وصل على يده ، للملك الكامل . ثم نقله بعد ذلك الى جوسق الملك العزيز «بالمزَّة» .

وكان يتردّد إليه «الملك الكامل» ، في بعض الأوقات ، إلى أن اتَّفق الأمر ، على أن حمل الذَّهب الواصل ، لتقدمة المَهر ، والجَواري ، والخدم ، والدراهم ، والمتاع . وعُقــد العقد بحضور الملك الأشرف ، في «مسجد خاتون» . ٥ مهر الزواج

وتولّى عقد النكاح «عماد الدّين ابن شيخ الشيوخ» عن الملك الكامل ، لابنته «فاطمة خاتون» ، على صداق ، مبلغه خمسون ألف دينار . وقَبِل القاضي «بهاءُ الدّين» العقدَ || عن الملك العزيز ، وذلك في سحرة يوم الأحد سادس عشر شهر رجب . ١٠ [٢٤٨ و]

وخلع «الملك الكامل» على القاضي ، وعلى جميع أصحابه ، وعلى الحاجي بشر أمير لالا الملك العزيز ، بعد أن فتحت دمشق . وعاد القاضي ومن كان في صحبته إلى حلب .

واستقرّ أن يأخذَ الملكُ الكامل[1] مِن الملك الأشرف ، عوضًا عن دمشق : حرّان ، والرّها ، والرّقة ، وسروج ، ورأس عين . وسار الملك الأشرف إلى بعلبك ، فحصرها إلى أن أخذها من صاحبها . ١٥ الكامل في الجزيرة

وسار العسكر الى حماة ، بأمر الملك الكامل ، فَحَصرَها ليسلِّمها صاحبُها إلى الملك «المظفَّر ابن الملك المنصور»[2] ، فنزل إليه ٢٠

(١) في ابن الأثير ٣٧٩/٩ : «وتسلم الكامل دمشق ، وجعل نائبه بالقلعة ، إلى أن سلّم اليه أخوه الأشرف حرّان والرها والرقة وسروج ورأس العين من الجزيرة .»

(٢) الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر ، وهو صاحب حماة ، وولده الأكبر هو الملك المظفر ، «وكان لمحمد ولد آخر اسمه قلج أرسلان ولقبه صلاح الدين وهو

صاحبُها الملك الناصر – وكان نازلًا بمجمع المروج – فحبسه[1] عنده الى أن سلَّمها إلى أخيه، وأعطاه «بارين». وسار الملك الكامل إلى الرقة.

خوارزمشاه في خلاط

ونزل خوارزمشاه على «أخلاط»، ووافقه ابن زين الدين، في الباطن، وصاحب آمد في الظاهر، وخطب له، وضاق الأمر بأهل «أخلاط»، فطلبوا الأمان فلم يجبهم إلى ذلك. وافتتحها[2] في ثامن وعشرين من جمادى الأولى، من سنة سبع وعشرين وستمائة. ووضع السيف في أهلها، وسبى النّساء والصبيان.

ولد العزيز

وفي ثامن جمادى الأولى، وُلد للسلطان «الملك العزيز»، مولود من جارية. وسمّاه باسم أبيه، ولقَّبه بلقبه «الملك الظاهر غازي». وزيّن المدينة، وعقد القباب، ولبس العسكر في أتمّ زينة وهيئة، وعمل الزَّورق من القلعة الى المدينة؛ ونزل الناس فيه، وانقطعت بكرةٌ برجل منهم، فوقع في سفح القلعة، || [٢٤٨ ظ] فمات، فبطل الملك العزيز الزورق.

وولد له أيضًا في هذه السنة، ولدٌ آخر لقَّبه «بالملك العادل». وولد له أيضًا في هذه السنة، «السلطان الملك الناصر» وهو الذي أوصى له بالملك، بعد أن مات الولدان المتقدمان.

بدمشق، فحضر الى مدينة حماة فسلّمت اليه واستولى على المدينة» – كما في ابن الأثير ٩/٣٨٠، وفيه تفصيل تسليم حماة.

(١) في ابن الأثير: «فاعتقله إلى أن سلم مدينة حماة وقلعتها إلى أخيه الأكبر المظفر، وبقي بيده قلعة بارين».

(٢) في ابن الأثير تفصيل الحصار على خلاط، وفي ٩/٣٨٠: «فزحف اليها زحفاً متتابعاً، وملكها عنوة وقهرًا، يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الأولى، سلّمها اليه بعض الأمراء غدرًا ... ووضع السيف في أهل البلد، وقتل من وجد به منهم».

انهزام جلال الدين

واتفق الملك الكامل ، والملك الأشرف ، وملك الرُّوم كيقباذ[١] ، على خوارزمشاه . وطلب الملك الأشرف نجدةً من حلب ، فسيّر الملك العزيز وأتابك ، عسكرًا يقدمه «عزّ الدين بن مجلي»[٢] .

حركة الفرنج

٥ فدخل الملك الأشرف[٣] ، واجتمع بملك الروم ؛ وسار إلى ناحية «أرزنكان»[٤] ، واصطفّت العساكر للقتال ، فكسر الخوارزمي[٥] في التاسع والعشرين من شهر رمضان ، وهبّت ريح عاصفة في وجه عساكره ، وانهزموا ، وصادفوا شقيفًا ، في طريقهم ، فوقع فيه أكثر الخوارزمية فهلكوا . وصار «الملك الأشرف» إلى ١٠ «اخلاط»[٦] ، فاستعادها ، وهادن الخوارزمي .

***

ودخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة وكان للفرنج حركة ، وخرج عسكر حلب مع بدر الدين بن الوالي ، وأغاروا على ناحية «المرقب» ،

(١) علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان ، صاحب بلاد الروم — وأما خوارزمشاه فهو جلال الدين .

(٢) في نسختي باريس ولننغراد : «عز الدين بن مجلّي» — وفي ابن الأثير ٣٨١/٩ : «وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن عليّ — وهو من الأكراد الهكارية — ومن الشجاعة في الدرجة العليا» — وفي أبي الفداء : «عز الدين عمر بن مجلي» .

(٣) في ابن الأثير ٣٨١/٩ : «وكان مع علاء الدين — كيقباذ — خلق كثير قيل كانوا عشرين الف فارس ، وكان مع الأشرف نحو خمسة آلاف ، إلاّ أنهم من العساكر الجيّدة الشجعان» .

(٤) في نسختينا : «أرزنكان» — وفي ابن الأثير : «بمكان يعرف بياسي حمار وهو من أعمال أرزنجان» وهي من بلاد أرمينية بين خلاط وأرزن الروم .

(٥) في ابن الأثير : «فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر ، ومضى منهزماً هو وعسكره لا يلوي الأخ على أخيه ، وتفرقت أصحابه وتمزقوا كل ممزق» .

(٦) في ابن الأثير : «ووصل الملك الأشرف إلى خلاط فرآها خاوية على عروشها خالية من الأهل والسكان» .

ونهبوا حصن بانياس[1] ، وخربوه ، وسيّروا أسرى إلى حلب ، ثم تواقع المسلمون والفرنج وقعة أخرى ، قُتل من الفريقين فيها جماعة ، وكان الربح فيها للمسلمين . وسيّرت العساكر من حلب في النصف من شهر ربيع الآخر .

الضيق في حلب

واحتبس الغيث[2] في حلب ، وارتفعت الأسعار فيها ، وخرج الناس ، واستسقوا على «بانقوسا» ، فجاء مطر يسير ، بعد ذلك ، [٢٤٩ و] ‖ وانحطّت الأسعار قليلاً[3] .

واستقرّت المدنة بين عسكر حلب والداويّة ، والاسبتار ، في العشرين من شعبان من السنة .

---

(١) في نسختي الأصل بباريس ولننغراد : «حصن بلنياس» ولعلّ صوابها «حصن بانياس» .

(٢) في ابن الأثير ٣٨٧/٩ : «في هذه السنة قلّت الأمطار بديار الجزيرة والشام ولا سيما حلب وأعمالها ، فانها كانت قليلة بالمرة ، وغلت الأسعار ... فأخرج أتابك شهاب الدين ... من المال والغلات كثيراً ... وساس سياسة حسنة ، بحيث لم يظهر للغلاء أثر ، فجزاه الله خيراً .»

(٣) هنا ينتهي ابن الأثير ، فيقف عن امدادنا بالروايات الغنيّة ، والشروح العاقلة لتاريخ هذه المنطقة ، مما كان يعيننا في الموازنة ، ويحلّ لنا غوامض الرموز ، ويوضح الروايات المقتضبة ، ويزيدنا فهماً بالنص ، ذلك لأن ابن الأثير في الكامل يقف عند قوله : «ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة» ؛ فهو لم يؤرخ بعد هذه السنة ، لأنه توفي سنة ٦٣٠ ﻫ .

وهكذا فقدنا ابن الأثير ، بعد أن حرمنا من «ابن واصل» في «مفرّج الكروب» ، ونضطرّ لهذا أن نسير مع الأصل وحده ، معتمدين على ما بقي من «تواريخ» تواكب السنين التي يكتب فيها ابن العديم ، حتى سنة ٦٤٠ ﻫ ، أي ستبقى سنوات عشر كتبها ابن العديم يتيمة بعض الشيء .

استقلال العزيز بملكه

واستقلّ السلطان الملك العزيز[١] بملكه ، في هذه السنة ، وتسلّم خزائنه من «أتابك شهاب الدّين» ، ورتّب الولاة في القلاع ، واستحلف الأجناد لنفسه ؛ وخرج بنفسه ، ودار القلاع والحصون.

٥ وركب أتابك شهاب الدّين ، في نصف شهر رمضان ، من هذه السنة ، ونزل من القلعة ، وركب النّاس في خدمته ، ولم ينزل منها ، منذ توفي الملك الظّاهر ، إلّا هذه المرة .

نزول اتابك

ثم عاد إلى القلعة ، وكان يركب منها في الأحايين ، إلى أن دخل السّلطان «الملك العزيز» بابنة الملك الكامل ، ١٠ وبقي «أتابك» مدّة في القلعة ، ثم نزل منها ، وسكن في داره ، التي كانت تعرف بصاحب عين تاب ، تجاه باب القلعة .

واستوزر الملك العزيز ، في هذه السّنة ، خطيبَ القلعة وابن خطيبها «زين الدين عبد المحسن ابن محمد بن حرب» ، ومال اليه بجملته .

وسيّر الملكُ العزيز القاضيَ بهاء الدّين ، في هذه السّنة في شوّال ، ١٥ إلى مصر ، لاحضار زوجته بنت الملك الكامل ، فأقام بمصر مدة ، إلى أن قدم في صحبتها والدها «الملك الكامل» ، الى دمشق ، وسيّرها من دمشق صحبته ، وأصحبها من جماعته : فخر الدين البانياسي ، والشريف قاضي العسكر .

---

(١) في وفيات الأعيان لابن خلكان ، بترجمة القاضي ابن شداد : «استقل الملك العزيز بنفسه ، ورفعوا عنه الحجر ، ونزل الأتابك طغرل من القلعة إلى داره تحت القلعة ، واستولى على العزيز جماعة من الشبان الذين كانوا يعاشرونه ويجالسونه ، فاشتغل بهم ، ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهاً يرتضيه ، فلازم داره إلى حين وفاته» .

زوجة العزيز

وخرج وزيرُه ، وأعيانُ دولته ، فالتقوها من حماة ، وأكابرُ أهل حلب أيضًا ، والتقتها والدة السلطان عمّتها ‖ من «جباب التركمان»[1] ، والتقاها بقية العساكر ، «بتلّ السلطان» ، والتقاها أخو السّلطان «الملك الصالح» ، في عسكره ، وتجمّله .

[٢٤٩ ظ]

٥ وعادت العساكر في تجمّلها ، واصطفت أطلابًا طُلبًا بعد طُلب ، في «الوضيحي»[2] . وخرج السّلطان الى «الوضيحي» ، ودخل مع زوجته ، ليلًا ، الى القلعة المنصورة ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

ارتفاع الاسعار

١٠ وكانت العامة بحلب ، قد ثاروا على محتسبها «مجدالدّين ابن العجمي» ، لأن السعر كان مرتفعًا ، وقد بلغ الرّطل من الخبز إلى عشرة قراطيس ، ثم انحطّ السعر كان في تقاديم الغلّة ، الى أن بيع الرطل بخمسة ونصف . فركب نائب المحتسب وسعّره في البلد بستة قراطيس ، فهاجت العامّة عليه ، وقصدوا دكّة المحتسب ، وهمّوا بقتل نائبه ، وخربوا الدكّة ، ومضوا إلى دار المحتسب ، لينهبوها .

١٥ فنزل والي البلد ، والأمير «علم الدّين قيصر» ، وسكنوا الفتنة ، بعد أن صعد جماعة إلى السلطان ، واستغاثوا على المحتسب ، فظفروا بأخيه نائب الحشر «الكمال بن العجمي» ، فرجموه بالحجارة ، فانهزم ، واختفى في بعض دروب حلب ، ثم هرب إلى المسجد الجامع ، فهمّوا به مرّة ثانية ، في الجامع ، فحماه مقدّم الأحداث ، ٢٠ وكان ذلك ، في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

(١) لسنا ندري اين جباب التركمان التي يذكرها المؤلف .
(٢) الوضيحي : قرية قرب حلب يصلها بالمدينة قطار .

العزيز في تل باشر

وداوم «الملك العزيز» الخروج إلى الصَّيد، ورمي البندق بنواحي «العمق» وغيرها، وحسّن له جماعةٌ من أصحابه، أن يسير إلى قلعة «تلّ باشر»، ويستولي عليها، وينزعها من نواب أتابكه «شهاب الدين طغرل»، وأن يبقي عليه رستاقها، ٥ وأن لا يكون شيء من القلاع إلّا بيده، فنمى الخبر إلى ‖ «أتابك»، [٢٥٠ و] فسيَّر إلى الوالي، وأمره أن لا يعارضه في القلعة، وأن يسلِّمها اليه، وكان له بها خزانة، فاستدعاها.

في عزاز

وخرج السّلطان إلى «عزاز»، وكانت في يد والدة أخت «الملك الصَّالح»، وأولادها بني «ألطنبغا»، عوّضهم بها ١٠ «أتابك» عن «بهسنى»[1]، بعد قتل الرّومي كيكاوس[2] الطنبغا[3]، فصعد إلى قلعتها، وولّى بها واليًا من قِبله، وأبقى عليهم ما كان في أيديهم من بلدها.

ثم سار السّلطان من «عزاز»، إلى «تلّ باشر»، وصعد إلى القلعة، وولّى فيها واليًا من جهته، وانتزعها من أيدي نوب أتابكه. ١٥ وبلغه أخذ الخزانة، من «تلّ باشر»، فسيّر من اعترض أصحاب «أتابك» في الطَّريق، فأخذ الخزانة منهم، وكان يظنّ أنَّ بها مالًا طائلًا، فلم يجد الأمر كما ذكر، فأعادها على أتابك، فامتنع من أخذها، وقال: «أنا ما ادَّخرت المال إلّا لك».

ثم دخل السّلطان إلى حلب، وكان ذلك كلّه، في شهر رمضان، ٢٠ من سنة تسع وعشرين وستّمائة.

***

(١) بهسنا أو بهسنى: علقنا عليها في زبدة الحلب ٢/٣٣٨.
(٢) عرفنا من قبل أنه السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقي، صاحب بلاد الروم – انظر السلوك ١/١٧٩.
(٣) في حلب، محلّة تسمى الطنبغا إلى اليوم، انظر نهر الذهب ٢/٣٧٥.

ثم إن السّلطان «الملك العزيز»، خرج في خرجاته، لرمي البندق[1] الى «حارم»، وتوجّه منها الى «دركوش»[2] ثم إلى «أفامية»، في سنة ثلاثين وستّمائة، فلم يحتفل به صاحب «شيزر» «شهاب الدّين يوسف بن مسعود بن سابق الدّين»، وأنفذ إليه إقامة[3] يسيرة — وهي شيء من الشَّعير على حمير، سخَّرها من بلد شيزر — فشقَّ عليه ذلك. ٥

حصار شيزر

فلما دخل حلب استدعى «سيف الدّين عليّ بن قلج الظّاهري»، وسيَّره إلى الملك الكامل، ليستأذنه في حصار «شيزر»، وأخذها، وكانت مضافةً ‖ إلى حلب، وإنَّما خاف أن [٢٥٠ ظ] يُلقي صاحبها نفسَه على «الملك الكامل»، فيشفع إليه في أمره، فلا يتمّ له ما يريد. ١٠

في شيزر

فصعد «سيف الدّين» إلى دمشق، وقرّر مع الملك الكامل، الأمرَ على ما يختاره «الملك العزيز»؛ وسيّر إلى السّلطان الملك العزيز، وأعلمه بذلك، فأخرج العسكر، «والزّردخاناه»[4]، ونزل العسكر على «شيزر»، واحتاط الديوان، على ما في رستاق[5] «شيزر» من المغلّات. ١٥

(١) ذكر جرجي زيدان في كتابه التمدن الاسلامي ١٥٣/٥ ألعاب الخلفاء، وقال ان لعبة البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص، وهي فارسية، اقتبسها العرب منذ عهد عثمان بن عفان، وأطال في وصف ذلك واستوفى، انظر اختصار السلوك ١٧٢/١ بالحاشية لوصف اللعبة.

(٢) دركوش: أو ديركوش انظر مراصد الاطلاع ٥٢٤/٢.

(٣) اقامة جمعها اقامات: وهي ما يلزم العساكر من المؤونة والعلف — انظر دوزي، تكملة معاجم العرب.

(٤) زردخانه: ذكرنا من قبل أنها دار السلاح — انظر السلوك ٣٠٦/١، وتكملة معاجم العرب.

(٥) رستاق: لفظ فارسي كذلك، معناه القرية أو محلة العسكر، أو البلد التجاري — انظر السلوك ٣١٠/١.

ووصل «سيف الدّين بن قلج» من دمشق، وخرج السّلطان بنفسه، فنصب عليها المناجيق، من جهة الجبل، وترك المنجنيق المغربي، قبالة بابها، وسيّر إلى صاحبها، وقال له: «والله لئن قتل واحدٌ من أصحابي، لأشنقنّك بدله». فتقدّم الى الجرخيّة[1] بالقلعة، أن ٥ لا يرمي أحدٌ بسهم، وتبلّد، وأسقط في يده.

وأرسل «الملك الكامل» إلى السلطان نجابَيْن[2]، ومعهما خمسة آلاف دينار مصريّة، ليستخدم بها رجالة، يستعين بهم على حصار «شيزر».

وقدم اليه الى شيزر «الملك المظفر محمود» – صاحب حماة – ١٠ وأرسل اليه صاحب شيزر، يبذل له تسليمها، على أن يبقي عليه أمواله، التي بها، ويحلف له على أملاكه، بحلب. فأجابه إلى ذلك.

ونزل من شيزر إلى خدمة السّلطان، وسلّمها اليه، ووفى له السلطان بما اشترطه، وصعد السُّلطان الى القلعة، وأقام أيامًا بشيزر، ١٥ ثم دخل إلى مدينة حلب.

موت أتابك

ومرض أتابك «شهاب الدّين طغرل بن عبدالله» في أواخر هذه السنة، ودام مرضه، إلى أن مات، ليلة الاثنين ‖ الحادية عشرة، من محرّم سنة إحدى وثلاثين وستمائة. [٢٥١ و]

وحضر السّلطان الملك العزيز، ومحمد ابن الملك الظّاهر، جنازته، ٢٠ صبيحة الليلة المذكورة. ومشى خلف جنازته، من داره إلى أن صلّى

---

(١) الجرخية: جمع جرخي أي رامي الجرخ، وهي البندق، وهي كما يشرحها دوزي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفوط والحجارة – انظر السلوك ١٠٠٣/٢.

(٢) لعله يريد «رسولين»

عليه خارج « باب الأربعين »[١] . ودفن بتربته ، التي أنشأها « بتلّ قيقان »[٢] ، ووقفها مدرسة على أصحاب الامام أبي حنيفة — رضي الله عنه — وبكى السُّلطان عليه بكاءً عظيمًا ، وحضر عزاءه ، يوميْن بعد موته ، بالمدرسة التي أنشأها « أتابك » ، وجعل فيها تربة للسُّلطان الملك الظَّاهر — رحمهم الله — ٥

***

حُروبُ الرُّوم

وفي هذه السّنة :

وهي سنة احدى وثلاثين

محاربة كيقباذ نزل الملك الكامل ، من مصر ، واتَّفق مع أخيه الملك الأشرف ، على قصد بلاد السلطان « كيقباذ بن كيخسرو »[٣] ، للوحشة التي تجدَّدت بينهم ، بسبب استيلاء كيقباذ على بلاد « اخلاط » ، وانتزاعها من أيدي نواب « الملك الأشرف » . ١٠

وسارا من دمشق ، وخرج معهما الملك المجاهد ، صاحب حمص ، والملك المظفَّر ، صاحب حماة ، ووصل معهم الملك الناصر ، صاحب الكرك ، ووصلوا إلى « منبج » باذن السلطان « الملك العزيز » . ١٥

---

(١) باب الأربعين : علقنا في زبدة الحلب ٣٤١/٢ أنه من أبواب حلب القديمة — انظر ابن الشحنة في الدر المنتخب ٤٢ .

(٢) تل قيقان : « بظاهر حلب معروف » كما في مراصد الاطلاع ١١٤٠/٣ .

(٣) ذكر ذلك السلوك ٢٤٧/١ : « فيها قصد السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو السلجوقي ، صاحب بلاد الروم مدينة خلاط ، خرج الملك الكامل من القاهرة بعسكره ليلة السبت ، خامس شعبان ..... وكتب إلى ملوك بني أيوب يأمرهم بالتجهيز للمسير بعساكرهم الى بلاد الروم » .

وسيَّر الملكُ العزيزُ ، إليه إلى «منبج » ، الإقـامة العظيمة ، والزردخاناه ، وعسكره ، ومقدّمه عمّه «الملك المعظَّم » ، وساروا من ناحية «تل باشر » ، فنزل إليه «الملك الزَّاهر داود ابن الملك النَّاصر » .

وقدم إليه صاحب «سميساط » «الملك المفضل موسى » ، وصاحب

٥ «عين تاب » «الملك الصالح ابن الملك الظَّاهر » ، والملك المظفَّر شهاب الدّين ابن الملك العادل ، || والملك الحافظ أخوه ، وغيرهم ، [٢٥١ ظ] من الملوك ، حتى اجتمع في عسكره ستة عشر[١] أميرًا .

وسيّر ملك الروم إلى «الملك العزيز » ، وقال له : «أنا راضٍ منك بأن تمدّه بالأجناد والأموال ، على أن لا تنزل إليه أبدًا . وأعفاه

١٠ الملك الكامل ، من مثل ذلك ، ورضي كلّ واحدٍ من الملكَيْن بفعله .

الكامل في بلاد الروم

وسار الملك الكامل في جيوشه ، في أوائل سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، إلى أن نزل على «نهر الأزرق »[٢] ، في طرف بلاد الروم ، وجآء عسكر الروم حتَّى نزل قبليّ زلّى – بينها وبين[٣] الدَّرْبند – والسّلطان معهم ، وصعد الرجالة الى فم «الدَّرْبند » ،

١٥ بالقرب من نور كغال[٤] ، وبنوا عليه سورًا ، وقاتلوا منه ، ومنعوا من يطلع إليه ، وقلَّت الأقوات على العسكر الشَّامي .

(١) في السلوك ٢٤٨/١ : «فسار وقد صار معه ستة عشر دهليزًا لستة عشر ملكاً ، وقيل بل كانوا ثمانية عشر ملكاً » – والدهليز هنا : هي الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب كما في دوزي ، تكملة معاجم العرب – انظر تاريخ ابن الوردي ١٥٩/٢ .

(٢) السلوك ٢٤٨/١ : «ونزل الكامل على النهر الأزرق » – والنهر الأزرق : أحد نهيرات الفرات الأعلى ، ويجري بين بهسنا وحصن منصور .

(٣) السلوك : «ونزل عساكر الروم فيما بينه وبين الدربند » – والدربند : باب الأبواب ، على شاطئ بحر قزوين قرب تفليس ويرى الدكتور مصطفى زيادة انه هنا ليس المراد البلدة ، وانما المراد المضيق . – انظر السلوك ٢٤٨/١ ، وفي تاريخ ابن الوردي يجمعها الدربندات .

(٤) نور : قرية من قرى بخارى ، كما في مراصد الاطلاع ١٣٩٥/٣ ولكننا لم نقع على الاسمين معاً «نور كغال » ، والسلوك لا يفصّل في اسماء المواقع .

فرجع «الملك الكامل» ، وخرج إلى طرف بلد «بهسنى» ، ونزل على بحيرة ابرنيت[١] ، ووصل إليه صاحب خرتبرت[٢] ، ودخل في طاعته ، وأشار عليه بالدّخول من جهته ، فسار إلى ناحية «خرتبرت» .

٥ ووقعت طائفة من عسكر الروم ، على طائفة من عسكر الملك الكامل ، وفيهم الملك المظفّر – صاحب حماة – وشمس الدين صواب[٣] ، فكُسر العسكر الكامليّ ، واعتصم مَنْ نجا منهم «بخرتبرت» ، فحاصرهم ملك الرُّوم إلى أن نزلوا بالأمان ، وأطلقهم ، واستولى «كيقباذ» على «خرتبرت»[٤] ، وعفا عن صاحبها ، وعوّضه عنها بأقطاع في بلاده . ١٠

موت الزاهر ومرض «الملك الزَّاهر» في العسكر ، فحمل مريضًا إلى «البيرة» ، وقوي مرضه ، وطمع بعض أولاده بمُلكها ، وشرع في تحصينها وتقويتها ، وبلغ «الملك الزَّاهر» ذلك ، فسيّر إلى السّلطان «الملك العزيز» ، واستدعاه إليه ، ‖ وأصعده إلى القلعة ، [٢٥٢ و]
١٥ وأوصى اليه بالقلاع التي في يده ، والخزائن و <عيَّن>[٥] لأولاده شيئًا

(١) بحيرة ابرس : ولم يقع فيها نقط بالأصل في النسختين ، فلم نهتد إلى موقعها كذلك .

(٢) علقنا في زبدة الحلب ٢١١/٢ انها خربوط ، وهي حصن زياد في أقصى ديار بكر من بلاد الروم .

(٣) شمس الدين صواب ، الطواشي الكاملي ، مات سنة ٦٣٢ بحران .

(٤) في السلوك ٢٤٩/١ : يختصر الوصف لما وقع فيقول : «فاتفقوا على الملك الكامل ، وكتبوا إلى السلطان علاء الدين بالميل معه وخذلان الكامل ... فأخذ السلطان علاء الدين ملك الروم قلعة خرتبرت وست قلاع أخر كانت مع الملوك الأرتقية» .
– وتفصيل الأسماء في تاريخ ابن الوردي ١٥٩/٢ ، وفي مرآة الزمان ٦٨٤ .

(٥) طمس في نسخة باريس ، أخذناه عن نسخة لننغراد .

من ماله ، وتوفّي[1] «بالبيرة» ، والسّلطان بها عنده ، في أوائل صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستّمائة .

وأقام السّلطان بها يرتّب أحوالها ، وأقام فيها واليًا من قبله ، فاتّفق وفاة القاضي بهاء الدّين بحلب[2] ، في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستّمائة . ٥

حكاية ابن العجمي

وطلب «الكمال ابن العجمي» قضاء حلب ،وكاتب السّلطان في ذلك ، فلم يجبه إلى ذلك . وسار السلطان من «البيرة» إلى «حارم» ، فخرج ابن العجمي إليه ، إلى «حارم» ، فمنعه الدّخول اليه ، وبذل له في قضاء حلب ستّين ألف درهم ، وأن يحمل في كل سنة ، للسّلطان ، من فواضل أوقاف الصدقة ، ١٠ ومن كتابة الشروط ، خمسين ألف درهم ، فلم يصغ السّلطان إلى شيء من ذلك .

وكتب إلى القاضي زين الدّين ، كتابًا يأمره بأن يحكم بين النّاس ، على جاري عادته ، إلى أن يدخل الى المدينة .

١٥ فلما دخل السلطان اجتهد «ابن العجمي» في قبول ما بذله ، وبذل شيئًا كثيرًا غير ذلك ، لخواصّ السّلطان ، وحسنوا للسّلطان

---

(١) وفاة الزاهر ، ذكرها ابن الوردي ١٦٠/٢ : «وفي سنة ٦٣٢ ه : توفي الملك الزاهر داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين مرض في العسكر ، وحمل الى البيرة وتوفي بها وملكها بعده ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب ، والزاهر شقيق الظاهر صاحب حلب» — وفي السلوك ٢٥٠/١ : «مات الملك الزاهر أبو سليمان مجير الدين داود بن صلاح الدين يوسف ابن ايوب صاحب البيرة في سابع صفر» .

(٢) في ذيل الروضتين ١٦٣ ، ذكر وفاة ابن شداد ، القاضي بهاء الدين يوسف ابن رافع بن تميم ، وكان من رؤساء حلب ، وذكر ابن أبي شامة أنه عرفه واجتمع به في دمشق — انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٤٣/١٣ ذكر عنه اشياء كثيرة ، وأنه مات بدمشق ودفن بقاسيون .

قبول ما بذله ، وإجابته الى ما سأله ، فجرى على مذهب أبيه وجدّه في الاحسان ، ولم يبــع منصب النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – بالأثمان .

ونظر في مصلحة الرعيّة ، وأرضى الله ونبيّه ، وقلّد القضاء بمدينة حلب وأعمالها ، في يوم الجمعة ، الرابع عشر ، من شهر ربيع الأول ٥ من سنة اثنتيْن وثلاثين وستمائة ، القاضي زين الدّين ‖ أبا محمد [٢٥٢ ظ] عبدالله بن عبد الرحمن[1] بن علوان – المعروف بابن الأستاذ – وكان نائب القاضي بهاء الدّين في الحكم .

خروج كيقباذ

وأما الملك الكامل ، فانه عاد في تلك الجيوش العظيمة ، ولم يحظ بطائل ، ودخل فصل الشتاء ، ١٠ وحال بين الفريقيْن ، وعاد كلّ إلى بلاده .

ولما خرج فصل الشتاء ، خرج «علاء الدين كيقباذ» الى الجزيرة ، والرّها ، والرقة ، وسبى عسكره أهلَ البلاد كما يسبى الكفّار ، وذلك في ذي الحجة ، من سنة اثنتين وثلاثين وستّمائة .

١٥ وسار «الملك الكامل» نحوها ، فاندفع ملك الرّوم ، فعاد «الملك الكامل» ، واستولى على البلاد ، وخرّب قلعة الرّها[2] وبلدها ، وسيّر إليه السلطان العسكر إلى الشّرق ، والزّردخاناه ، وذلك في الجماديين ، سنة ثلاث وثلاثين وستّمائة .

ودام «الملك العزيز» ، في ملكه بحلب ، وسمت همّته إلى معالي الأمور ، ومال إلى رعيته ، وأحسن إليهم الى أن دخلت سنة أربع وثلاثين ٢٠ وستّمائة .

(١) قاضي القضاة أبو محمد عبدالله ابن الشيخ الحافظ عبد الرحمن الأسدي ، انظر الأعلاق قسم حلب ٢٠/١ .

(٢) في السلوك ٢٥١/١ : «ثم نزل الكامل على دنيسر وخرّبها» .

عزل الوزير

فغضب على وزيره «زين الدّين بن حرب»، وألزمه داره بقلعة حلب، وولّى الديوان مكانه، الوزيرَ «جمالَ الدّين الأكرمَ أبا الحسن عليّ بنَ يوسف القِفطيّ الشيباني»[1].

موت العزيز

مرض العزيز

٥ وخرج في أواخر شهر صفر إلى «النقرة»، ثم توجّه منها إلى «حارم»، وحضر في الملقة[2]، لرمي البندق، واحتاج الى أن اغتسل بماء باردٍ، فحمّ، ودخل إلى حلب، فالتقاه النّاس، وهو موعوك، ودامت به الحمّى، الى أن قوي مرضه[3]، واستحلف الناس لولده الملك «النّاصر صلاح الدّين ‖ يوسف ابن [٢٥٣ و]

١٠ الملك العزيز».

وسيّرني إلى أخيه «الملك الصالح» إلى عين تاب، يستحلفه له، ولابنه «الملك الناصر»، وعُدتُ، وقد مات[4]، في شهر ربيع الأوّل، من سنة أربع وثلاثين وستّمائة.

---

(١) هو أحد الكتاب المشهورين، ولد بقفط من الصعيد الأعلى بالديار المصرية وأقام بحلب، ولد سنة ٥٦٠ هـ. وتوفي سنة ٦٤٦ هـ، وله كتب كثيرة، منها تاريخ الحكماء — انظر ترجمته في فوات الوفيات ٩٦/٢.

(٢) لم نتبيّن قراءة الكلمة، فلعلها «الحلقة».

(٣) يورد أبو الفداء ١٦٦/٣ مشابهاً لما جاء في ابن العديم عندنا.

(٤) في تاريخ ابن الوردي ١٦٤/٢: «توفي الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب، بحلب، وعمره ثلاث وعشرون سنة وشهور. وملك بعده ابنه الناصر يوسف، وعمره نحو سبع سنين، ودبره شمس الدين لؤلؤ، وعز الدين عمر بن مجلى وجمال الدولة اقبال الخاتوني والمرجع الى أم العزيز ضيفة خاتون بنت العادل» — انظر السلوك ٢٥٣/١، ومرآة الزمان ٧٠٣.



القسم الثاني والثلاثون

ذكر

حلب في أيام الملك الناصر صلاح الدين ابن الملك العزيز

تدبير حلب عن الناصر - حركة الفرنج - حلب في يد خاتون

خروج الخوارزمية - إنكسار الخوارزمية - خروج التتار - ملك الناصر

٦٣٤هـ - ٦٤١هـ

تدبير حلب عن الناصر

وتولّى تدبير دولته الأميران : شمس الدين لؤلؤ الأمينى ، وعزّ الدين عمر بن[1] محلّى ووزير الدولة القاضي «جمال الدين الأكرم» و «جمال الدَّولة اقبال الخاتوني» ، يحضر بينهم في المشورة .

٥ واذا اتّفق رأيُهم على شيء ، دخل جمال الدَّولة إقبال الخاتوني ، إلى جدَّة السُّلطان «الملك النَّاصر» ، والدة «الملك العزيز» ، وعرّفها ما اتّفق رأي الجماعة عليه ، فتأذن لهم في فعله ، والعلامات على التواقيع ، والمكاتبات الى الستر العالي الخاتوني ، والدة الملك العزيز .

وحشة بين الناصر والصالح

فاتّفق رأيهم ، على أن سيّروا القاضي زين الدّين – قاضي حلب – والأمير بدر الدّين بدر بن أبي الهيجاء ، ١٠ إلى مصر ، رسولَيْن إلى «الملك الكامل» ، ليحلّفاه «للملك النّاصر» ، ويتوثّقا من جهته ، واستصحبا معهما كُزَاغَند[2] السّلطان الملك العزيز ، وزرديته ، وخوذته ، ومركوبه[3] .

رأي الكامل

فلما وصلا إليه ، أظهر الألم والحزن لموته ، وقصّر[4] ١٥ في إكرامهما وعطائهما ، وحلف للملك الناصر ، على

(١) في نسخة باريس طمس : «عز الدين عمر بن عليّ» فهي غير واضحة – وفي نسخة لننغراد : «عز الدين عمر بن محلى» – وفي السلوك : «وقام بتدبير أمره الأميران لؤلؤ الأميني وعز الدين عمر بن محلّى ، وبينهما وزير الدولة جمال الدين الأكرم» فأخذنا بالرواية الصحيحة لوضوحها في لننغراد وفي السلوك كما فعلنا من قبل .

(٢) الكزُاغند : قلنا قبل إنه المعطف القصير ، يلبس فوق الزردية ، – انظر السلوك ٢٥٣/١ .

(٣) العبارة في السلوك ٢٥٣/١ مشابهة لما جاء في ابن العديم .

(٤) في السلوك : «فأظهر الألم لموته ، وقصّر في اكرامها ، وحلف للناصر ، وشرط أشياء ، وأعاد الرسولين» .

الوجه الذي اقتُرح عليه ، خاطبَ الرسولَيْن بما يشيران به ، عنه ، من تقدمة « الملك الصالح ابن الملك الظَّاهر » ، على العسكر ، وأن تكون تربية « الملك الناصر » إليه ، فلم ير الجماعة ذلك .

واتَّفق بعد ذلك بمدّة ، أن سيّر الملك الكامل خلعة للملك الناصر ، بغير[1] مركوب ، وسيّر عدّة خلع لأمراء ‖ الدّولة ، وسيّر مع رسول [٢٥٣ ظ] مفرد خلعة « للملك الصالح » ، على أن يجيء اليه إلى « عين تاب »[2] ، فاستشعر أرباب الدَّولة التّدبير من ذلك ، وحصل عند جدّة السّلطان[3] وحشة من ذلك .

خلاف الكامل والاشرف

واتفق رأيهم ، على أن لبس السّلطان خلعته ، ولم يُخْلَع على أحدٍ من الأمراء شيء ، مما سيّره لهم ، وردّوا الرسولَ الوارد إلى الملك الصالح بخلعته[4] ، ولم يمكنوه من الوصول إليه ، واستوحشوا من جهة « الملك الكامل » .

وكان « الملك الأشرف » ، قد تتابعت من أخيه ، « الملك الكامل » أفعال أوجبت ضيقَ صدره[5] ، وكان يغضّ على نفسه ، ويحتملها ، فمنها أنه أخذ بلاده الشرقيّة ، حين أعطاه دمشق ، وأخذ من مضافات دمشق ، مواضع متعدّدة .

(١) في السلوك ٢٥٤/١ : « ثم أرسل خلعة للناصر بغير مركوب ، ومعها عدة خلع للامراء الحلبيّين ، وخلعة للصالح صلاح الدين أحمد بن الظاهر غازي ، صاحب عينتاب » .

(٢) عينتاب : قلنا في الصفحات السابقة إنها قلعة بين حلب وأنطاكية ، وكانت تعرف بدلوك .

(٣) في السلوك ٢٥٤/١ : « فاستوحشت أم الظاهر من أخيها الكامل ، ولم توافق على لبس أحد من الأمراء الخلع ، فلبس الناصر وحده خلعة الكامل » .

(٤) في السلوك : « وردّ الرسول الوارد إلى الصالح صلاح الدين بخلعته » .

(٥) في السلوك : « وفيها تنكر الأشرف صاحب دمشق على الملك الكامل وراسل أهل حلب فوافقوه على منع الكامل من بلاد الشام ، ومكاتبة السلطان علاء الدين صاحب الروم ليكون معهم » .

واتفق أن «كيقباذ» ملك الرّوم، أخذ «خلاط»، فضاق ما في يد «الملك الأشرف» جدًّا، وكان ينزل إليه في كلّ سنة إلى دمشق، في عبوره إلى الشَّرق، فيقيم بدمشق مدّة، فيحتاج «الملك الأشرف»، في ضيافته إلى جملة.

٥ وقبض على أملاكه الّتي كانت له بحرّان، والرّقّة، وسروج، والرّها، ورأس عين، وعلى جميع تمليكاته الّتي ملكها بتلك الناحية، وفتح آمد، وهو في صحبته، فلم يطلق له من بلادها شيئًا، وخذله في انتزاع «خلاط» من يد «الرّوميّ».

حلف ضد الكامل

فاتفق هو، والملك المجاهد – صاحب حمص – والملك ١٠ المظفَّر – صاحب حماة – وعزموا على الخروج عليه، وعُيِّن لكلّ واحدٍ منهم شيء من بلاده، وأرسل[1] إلى الملكة «الخاتون» والأمراء بحلب، وطلبوا موافقتهم على ذلك، وخوّفوهم من جهته، وذكروا ما تمتدّ أطماعه إليه فوافقوهم.

موت كيقباذ

وتحالفوا ‖ عليه، وسيّروا رسلًا من جهتهم إلى ملك [٢٥٤ و] ١٥ الروم «كيقباذ»؛ يطلبون منه مثل ذلك. فوصلوا إليه ومات[2] «كيقباذ»، قبل اجتماعهم به فذكروا رسالتهم لابنه «كيخسرو»، فحلف لهم على ذلك.

---

(١) في تاريخ ابي الفداء ١٦٦/٣ «فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل ومع باقي الملوك على خلاف الملك الكامل، خلا الملك المظفر، صاحب حماة».

(٢) في السلوك ٢٥٤/١ : «فاتفق موت السلطان علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان ملك الروم وقيام ولده غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد من بعده، في سابع شوال ... فبعث ملوك الشام رسلهم الى السلطان غياث الدين .... يعزونه في أبيه ويحلفونه على ما اتفقوا عليه من مخالفة الكامل» – – انظر في صفاته مرآة الزمان ٧٠٣.

جواب الكامل

واتفقوا كلّهم على أن أرسلوا رسلًا من جهتهم ، إلى «الملك الكامل» ، الى مصر ، ومعهم رسول من حلب ، وقالوا له : «إنّا قد اتفقنا كلنا[1] ، ونطلب منك أنّك لا تعود تخرج من مصر ، ولا تنزل الى الشام» .

فقال لهم : «مبارك ، أنتم قد اتفقتم ، فما تطلبون من يميني ، احلفوا أنتم أيضًا لي : أن لا تقصدوا بلادي ، ولا تتعرّضوا لشيء مما في يدي وأنا أوافقكم على ما تطلبون» .

ونزل رسوله ، ومرض «الملك الأشرف» ، واشتغل بمرضه ، وطال الى أن مات – على ما نذكره – .

ومما تجدّد في حلب ، في سنة أربع وثلاثين وستمائة : أنّ «شهاب الدّين» «صاحب شيزر» ، و «كمال الدين عمر ابن العجمي» ، اتفقا ، على أن سيّرا من جهتهما رجلًا ، يقال له «العزّ ابن الأطفاني» إلى دمشق إلى «الملك الأشرف» ، وحدّثاه في أن يقصد حلب ، وأنهما يساعدانه بأموالهما .

الاشرف ضد الكامل

وأوهمه صاحب «شيزر» أنّ معظم الأمراء بحلب ، يوافقونه على ذلك ، وأوهمه ابن العجمي أنّ أقاربه ، وجماعة كبيرة من الحلبيّين ، يتابعونه ، ويشايعونه ، ويوافقونه ، على ذلك ، واشترط على «الملك الأشرف» ، أن يولّيه قضاء حلب .

فمضى رسولهما إلى «الملك الأشرف» ، واجتمع ببعض خواصّه ، وذكر له الأمر الذي جاء فيه ، فلم يحضره اليه ، وأجابهما بأنّه :

(١) في السلوك ١/٢٥٥ : «وفيها قدم من جهة ملوك الشام الى الملك الكامل رسول ، فبلغه عنهم أنهم قالوا : اتفقت كلمتنا عليك ، فلا تخرج من مصر الى الشام ، واحلف لنا على ذلك» ولكن السلوك يكتفي بهذا ، ولا يورد جواب الكامل عليهم ، فابن العديم وحده هو الذي يورد هذه التفاصيل وما بعدها من أحداث القضاة .

«لا تتصوّر أن يبدر مني غَدر ، ولا قَبيحٌ في حقّ أحد من ذريّة الملك الظاهر» .

[٢٥٤ ظ] ‖ وأخبرني «فلك الدّين ابن المسيري»[1] أنّه هو الّذي كان المتكلّم بين «الملك الأشرف» ، وبين رسولهما .

٥ ونُمي هذا الخبر إلى الملكة ، والأُمراء ، فسيَّروا من يُوقف الرسولَ واتّفق وصولُه إلى حلب» فقُبض في «باب العراق»[2] ، وأُصعد إلى القلعة ، وسُئل عن ذلك ، فأخبرهم بالحديث على فصّه ، فحبس الرّسول ، وحلقت لحيته ، وسيّر الى «دربساك»[3] ، وحُبس بها .

وأُصعد «ابن العجمي» ، وصاحب شيزر ، واعتقلا بالقلعة ،

١٠ وأُخذت أموال صاحب شيزر جميعها ، ولم يُتعرّض لأموال ابن العجمي ، تطييبًا لقلوب أهله . وداما في الاعتقال ، من جمادى ، من سنة أربع وثلاثين الى أن مات الملك الكامل ، في سنة خمس وثلاثين وستّمائة ، وأطلقا .

ملك الروم ومما حدث أيضًا ، في سنة أربع وثلاثين ، أنَّ أميرًا

١٥ من التركمان ، يقال له «قنغر»[4] جمع إليه جمعًا من التركمان ، بعد موت «الملك العزيز» ، وعاث في أطراف بلاد حلب ، من ناحية «قورس»[5] ، وغيرها . ونهب ضياعًا متعدّدة ، وكان

---

(١) فلك الدين عبد الرحمن المسيري ، وزير الملك العادل ، كما جاء في الاعتبار للمقريزي ، ورأيناه في حاشية السلوك ٢٧٤/١ .

(٢) باب العراق : سمي بذلك لأنه يخرج منه إلى ناحية العراق ، وهو باب قديم – أنظر الأعلاق الخطيرة ، قسم حلب ٢٠/١ .

(٣) دربساك : قلنا من قبل ان موقعه قرب أنطاكية .

(٤) لم نقع على الحادثة في غير ابن العديم ، ولكن السلوك يورد بعد هذا الزمان رجلاً اسمه «سيف الدين قنغر التتري» فعرفنا أن التتار يسمون كذلك .

(٥) قورس : علقنا عليها في زبدة الحلب ٢٤٢/١ وقلنا إنها كورة من حلب ، وهي الآن خراب .

يغار[1] ، ويدخل الى بلد الروم ، فخرج اليه عسكر من حلب ، فكسر ذلك العسكر ، ونهبه .

وتخوف أمراء حلب ، أن يكون ذلك بأمر «ملك الرّوم» ، فسيَّروا رسولاً إلى ملك الروم ، في معناه ، فأنكر ذلك ، وأمر بردِّ ما أخذه ، من بلد حلب ، فردّ بعضه ، وانكف عن العَيث والفساد . ٥

وبذل «ملكُ الروم» من نفسه الموافقة ، والنصرة «للملك النّاصر» ، وكفّ من يقصد بلاده بأذىً ، فسيَّر له تقدمة سنيّة ، من حلب ، على يد «شرف الدين بن أمير جاندار»[2] ، فأكرم الرَّسول إكرامًا كثيرًا .

[٢٥٥ و] ‖ وسُيِّر اليه رسول في الباطن ، وهو أوحد الدّين — قاضي خلاط — ١٠ فاستحلفه على الموالاة «للملك الناصر» ، والذبّ عن بلاده ، ودفع مَنْ يقصدها .

حركة الفرنج

واتفق أيضًا ، في هذه السنة ، تحرّك الداويّة ، مِنْ «بغراس» ، وأغاروا في بلد «العمق» ، واستاقوا أغنامًا للتركمان ، ومواشي لغيرهم كثيرة . ١٥

حصار بغراس

فخرج «الملك المعظم[3]» ابن الملك الناصر» يقدم عسكر حلب ، ونزلوا على «بغراس» وحصروها مدّة ، حتى ثغروا

(١) لعله يريد أن يقول : «وكان يغير» .

(٢) شرحنا كلمة : «جمدار ، جامدار ، جاندار» في الصفحات السابقة .

(٣) في تاريخ أبي الفداء ١٦٦/٣ : «توجه عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه عم الملك العزيز فحاصروا بغراس ، وكان قد عمرها الداوية بعدما فتحها السلطان صلاح الدين وخربها . وأشرف عسكر حلب على أخذها» — انظر ابن الوردي ١٦٥/٢ .

مواضع من سورها ، ونفد ما فيها من الذخائر ، وأشرفت على الأخذ ، فسيّر البرنس[1] – صاحب أنطاكية – وشفع فيهم ، بعد أن كان مغاضبًا لهم .

فرأوا المصلحة ، في إجابته إلى ذلك ، وعقدوا الهدنة مع الداويّة ، على « بغراس » ، ورحلوا عنها ، ولو أقاموا عليها يومين آخرين ، لما استطاع مَنْ فيها الصبر على المدافعة .

خراب بغراس

وسار العسكر عن « بغراس » ، بعد أن أخربوها ، وبلدها ، خرابًا شنيعًا . ونزل العسكر الاسلامي بالقرب من « دربساك » ، فجمع « الداويّة » جموعهم ، واستنجدوا بصاحب « جُبَيْل »[2] وغيره ، من الفرنج ، وجمعوا راجلًا كثيرًا ، وساروا من جهة حجر « شغلان »[3] إلى « دربساك » ، ظنًّا منهم أن يكبسوا الربض ، على غرَّة من أهله ، وأن ينالوا منه غرضًا ، فاستعدّ لهم مَنْ بالربض من الأجناد .

هزيمة الفرنج

ونزل جماعةٌ من أجناد القلعة ، وقاتلوهم في الربض ، قتالًا شديدًا ، وحموه منهم ، واشتغلوا بقتالهم ، إلى أن وصل الخبر إلى عسكر حلب ، فركبوا ، ووصلوا إليهم ، وقد تعب الفرنج[4] ، وكلَّت خيولهم ، ‖ فوقعوا عليهم ، فانهزم الفرنج هزيمة [٢٥٥ ظ] شنيعة[5] ، وقتل منهم خلق عظيم .

---

(١) في أبي الفداء : « ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية » .

(٢) جبيل : بلد في شرقي بيروت ، على عدة فراسخ منها .

(٣) في تاريخ أبي الفداء : « ثم ان الفرنج أغاروا على ربض دربساك ، وهي حينئذ لصاحب حلب ، فوقع بهم صاحب حلب » .

(٤) في تاريخ أبي الفداء : « وعاد عسكر حلب بالأسرى ورءوس الفرنج وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع » .

(٥) في تاريخ أبي الفداء : « وولى الفرنج منهزمين ، وكثر فيهم القتل والأسر » .

واستولى المسلمون على فارسهم وراجلهم ، وكان فيهم جماعة من المقدّمين واختبأ[١] منهم جماعة من الخيّالة ، وغيرهم ، خلفَ الأشجار في الجبل ، فأخذوا ، ولم ينج منهم إلّا القليل ، ودخلوا بالرؤوس والأسرى إلى حلب[٢] ، وكان يومًا مشهودًا وحُبِسوا في القلعة ، ثم أنزلوا الى الخندق .

الداوية

٥ وفتّت هذه الوقعة في أعضاد « الداويّة » ، بالساحل ، ولم ينتعشوا بعدها ، وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج .

موت كيقباذ

ومات في هذه السّنة « علاء الدين كيقباذ » – ملك الروم – « بقيصرية »[٣] ، في أوائل شوّال ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة .

١٠ وسُيِّرتُ رسولًا إلى ابنه « غياث الدين كيخسرو » ، القائم في الملك بعده ، بالتّعزية ، وتجدّد الأيمان عليه ، على القاعدة التي كانت مع أبيه ، فحلَّفتُه على ذلك ، في ذي القعدة .

وكان قد قبض على « قيرخان »[٤] – مقدّم الخوارزمية – فهرب مَنْ بقي منهم ، من بلاد الروم ، ونهبوا في طريقهم ما قدروا عليه ، ١٥ وعبروا الفرات ، واستمالهم الملك الصالح ابن الملك الكامل ، وأقطعهم مواضع في الجزيرة .

***

(١) في الأصل : « واختبى » ، ولعلها أسلوب ذلك الزمان في الكتابة فأصلحناها .

(٢) مرّ مثل هذا الكلام في التعليق قبل قليل ، نقلناه عن أبي الفداء ، فهو يوجز ما يفصّل ابن العديم .

(٣) قيصرية : وترسم قيسارية ، وفي مراصد الاطلاع ١١٣٩/٣ : « مدينة كبيرة في بلاد الروم كانت كرسي ملك بني سلجوق » .

(٤) في تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٤٣٧ : « ولما ولّي السلطان غياث الدين كيخسرو السلطنة ببلد الروم قبض على غاير خان أمير الخوارزمية ، فهرب باقي الخوارزمية وامراؤهم » – فالاسم هنا « غاير » وعندنا كما نرى « قيرخان » ولم نقع على تصحيحها في المصادر الأخرى ، فقد صحف أبو الفداء ، هذا الاسم هكذا : «فرخان» ١٦٧/٣ .

وفاة الاشرف وتوفي «الملك الأشرف»[1] بدمشق ، لأربع خلون من المحرم ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة . وأوصى بها لأخيه «الملك الصالح اسماعيل»[2] ، وجدّد الأيمان مع الجماعة ، الذين كانوا وافقوا أخاه «الملك الأشرف» .

٥ **قدوم الكامل** فخرج «الملك الكامل» من مصر ، وقَصد دمشق[3] ، وسيَّر مِن حلب نجدةً الى دمشق <وكذلك>[4] سيَّر «الملك المجاهد» ولدَه «المنصور» اليها ، ونزل «الملكُ الكاملُ» ‖ على [٢٥٦ و] دمشق ، وحصرها <مدّة ، فرجع>[5] «الملك المظفَّر» — صاحب حماة — عن موافقة الجماعة وداخل الملك الكامل ، وأطلعه على جميع الأحوال ، ١٠ ووقع بينه وبين صاحب حمص اختلاف . وطلب من صاحب حمص «سلمية» ، لتجري الموافقة على ما كان عليه .

***

رسالة المؤلف فَسيِّرتُ من حلب ، ومعي الأمير «علاء الدّين طبيغا الظّاهري» ، ليوفِّق بين صاحب حمص وصاحب حماة ، فأبى كلّ واحد منهما ، أن يجيبَ صاحبه إلى ما يريد .

١٥ وكان مطلوبُ صاحب حماة أن يعطيه صاحبُ حمص «سلمية»

(١) في السلوك ٢٥٦/١ : «سنة ٦٣٥ — فيها مات الأشرف موسى ابن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق بها ، يوم الخميس رابع محرم ، وعمره نحو من ستين سنة ومدة ملكه بدمشق ثماني سنين وأشهر» .

(٢) الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بصرى — وفي السلوك ٢٥٦/١ : «وبعث إلى المجاهد صاحب حمص وإلى المظفر صاحب حماة والى الحلبيين ليحلفوا له ويتفقوا معه ... على مخالفة الكامل» .

(٣) تفصيل الأمر في السلوك ٢٥٧/١ : «ونزل على دمشق بمسجد القدم ، وقد تحصنت وأتتها النجدات» .

(٤) طمس في نسخة باريس ، فأخذنا الكلمة عن مخطوطة لننغراد .

(٥) طمس في نسخة باريس ، فأخذنا نملأ الفراغ عن نسخة لننغراد .

والقلعة الَّتي جدّدها «الملك المجاهد» المعروفة «بشمَيْميش»[١]. فقال «الملك المجاهد»: «هذه ثمينة لي، وقد حلف لي على كلّ ما بيدي»، وأبى أن يجيبه إلى ذلك.

فعدنا إلى «حماة»، وذَكَرْنا لصاحبها مقالة «الملك المجاهد»، وأنَّ في ما يحاوله نقضًا للعهد، فقال: «هو قد نقض عهدي، ٥ وأنفذ <ليفسد>[٢] جماعةً من عسكري»، وعدّد له ذنوبًا لا أصل لها، وقال: «لا بدَّ مِنْ قَصده، وإذا نزل الملكُ الكاملُ على حمص، نزلتُ معه عليها و<فعلتُ>[٣] ما يصل إليه جهدي. ولكن حلب، أبذلُ نفسي ومالي دون الوصول إلى قرية منها، ولا أرجعُ عن اليمين ١٠ الَّتي حلفتُ بها للسِّتر العالي، والملك الناصر».

فقلتُ: «فالمولى يعلمُ ما جرى بيننا وبين صاحب حمص، من الأيْمان، وما نقض منها عهدًا، واذا قصدَه قاصدٌ إلى حمص يتعيَّن إنجادُه ونُصرته. واذا وصلَ عسكرٌ مِنْ حلب لنجدته، فكيف يفعل المولى»؟ فتلجلج، وقال: «أنا أقاتله، وَمَن قاتلني <قاتلته>[٤]».

[٢٥٦ ظ] فكتبنا بذلك إلى حلب، فجاء الأمر بالتوجّه إلى حلب، ‖ فسرنا ١٥

(١) هذه الكلمة غير منقوطة في الأصل، فأخذنا بتحقيق الدكتور مصطفى زيادة في السلوك ١/٤٤٦ حيث نقل عن المستشرق لسترانج، في كتابه فلسطين ص ٤٢ فقال إنها احدى بلاد كورة حمص، وضبطها: «شُمَيْميش»، ونذكر انها مرّت في الجزء الثاني من الزبدة مصحّفة «شميمس».

(٢) طمس في هذه الصفحات أصبح يشوّه وجه الكلمات ويفسدها، فقد أصاب البلل والرطوبة هذه الأوراق الأخيرة بحيث تصعب القراءة، ولولا نسخة لننغراد لوقفنا دون فهم كثير — كما قلنا في المقدمة — وهذه الكلمة هنا، مع مقابلة لننغراد، تتقرب مما رسمنا، فنحن لا نملك مصدرًا آخر يعرف ما يقول ابن العديم، عن مهمته الخاصة.

(٣) طمس كذلك، فأخذنا برواية لننغراد.

(٤) طمس أصاب الكلمة فغابت، واعتمدنا رواية لننغراد.

في الحال من غير توديع ، حتى وصلنا ‹العبادي›[١] ليلة الاثنين ، مستهلّ جُمادى الأولى ، من سنة خمس وثلاثين وستّمائة ، فلحقنا «المهماندار»[٢] بالخلع والتّسفير ، فلم تقبل منه شيئًا .

حصار دمشق

ووصلنا إلى حلب يوم الثلاثاء ، فتحقّق أنّه قد داخل «الملك الكامل» ، وأنه يطالعه بالمتجدّدات جميعها .

وأما دمشق ، فإنّ «الملك الكامل»[٣] ، لازم حصارها ، حتى صالحه «الملك الصّالح» ، على أن أبقى له بعلبك ، وبصرى ، وأخذ منه دمشق ، في تاسع عشر جمادى الأولى ، من السّنة ، ولم يتعرّض لنجدة حلب ، وحمص ، بسوء . وخرجوا من دمشق إلى مستقرّهم .

ووصل «النّاصح» ، وعسكر حلب ، الى حلب ، واستدعى «الملك المعظّم» ، وأقارب السلطان والأمراء ، وحلفوا للسّلطان «الملك الناصر»[٤] و «للخاتون الملكة» ، على طبقاتهم . ثمّ حلف بعد ذلك أكابر البلد ، ورؤساؤها . ثم حلف الأجناد والعامة .

واستعدّ الناس للحصار بالذّخائر ، والأقوات ، والحطب ، وما يجري

---

(١) طمس تتعسر معه صحة القراءة ، وفي نسخة لننغراد «العبادي» ولم نقع على مكانها في معاجم البلدان ، وقد قلنا ان ابن العديم ينفرد برواية مهمته الشخصية — ولعلها «العبادية» : وهي من قرى المرج حول دمشق .

(٢) في صبح الأعشى ٤٥٩/٥ : «المَهْمَنْدار : وهو الذي يتصدى لتلقي الرسل والعربان الواردين على السلطان ، وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدث في القيام بأمرهم ، وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما مَهْمَن (بفتح الميمين) ومعناه الضيف . والثاني (دار) : ومعناه ممسك» ، وهكذا تكون ممسك الضيف أي المتصدّي لأمره .

(٣) في السلوك ٢٥٧/١ : «فحاصرها ، وقطع عنها المياه ، وضايقها حتى غلت بها الأسعار ... فتسلّم الكامل دمشق في عاشر جمادى الأولى» .

(٤) الناصر داود .

مجراه ، ونقلت أحجار المناجيق إلى أبواب البلد ، واستخدم[1] جماعة من الخوارزميّة ، وغيرهم .

ووصل «قنغر التركماني» ، فاستخدم بحلب ، وقدّم على التركمان . وقفز جماعة من العسكر الكاملي[2] الى حلب ، فاستخدموا .

٥ وتتابعت الرسل إلى «ملك الرّوم» ، لطلب نجدة[3] ، تصل إلى حلب ، من جهته ، فسيَّر نجدةً من أجود عساكره ، وعرض عليهم أن يسيّر غيرها ، فاكتفوا بمن سَيَّره .

موت الكامل

[٢٥٧ و] وسيَّر ملك الروم رسولًا إلى «الملك الكامل» ، يخاطبه في الامتناع عن قصد ‖ حلب ، فأمر بالتبريز من دمشق ، ١٠ لقصد حلب[4] ، وأخرج الخيم والأعلام ، فمرض ، ومات بدمشق ، في قلعتها ، في حادي وعشرين ، شهر رجب ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة .

ووصل خبر موته ، فعمل له العزاء بحلب ، وحضره السّلطان «الملك النَّاصر» ، يومَيْن ، وأمر العسكر ، في الحال ، بالخروج إلى

---

(١) في السلوك ٢٦٩/١ : «واستعدّ أهل حلب ، واستجدّوا عسكرًا من الخوارزمية ، وعسكرًا من التركمان» .

(٢) في السلوك : «وكان قد صار اليهم عدّة من أصحاب الملك الكامل فأكرموهم» .

(٣) في السلوك : «وبعثوا الى السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد ملك الروم ، يسألونه إرسال نجدة ، فأمدّهم بخيار عسكره»

(٤) السلوك ٢٥٨/١ : «وشرع الكامل بتجهيز لأخذ حلب ... وكان منذ دخل الكامل إلى قلعة دمشق قد حدث له زكام ... فاتفق انه تقيأ لوقته ، في آخر نهار الاربعاء حادي عشر شهر رجب ، بقاعة الفضة من قلعة دمشق ، فدفن بها بكرة الغد ، وعمره نحو من ستين سنة ، وذلك بعد موت أخيه الأشرف بنحو ستة أشهر ، فكانت مدة ملكه دمشق هذه المرة أحدًا وسبعين يوماً ، ومدة مملكته بمصر بعد موت أبيه ، عشرين سنة وثلاثة وأربعين يوماً» – انظر مختصر تاريخ الدول ٤٣٨ ، وتاريخ أبي الفداء ١٦٨/٣ ، ومرآة الزمان ٧٠٦ .

معرَّة النعمان[١] ، فخرج ، ونازل معرَّة النّعمان ، مع «الملك المعظَّم» ، ووصل رسُول «الملك المظفَّر» — صاحب حماة — يتلطَّف الحال ، فلم يُلتفت إليه ، ولم يُستحضر . وسيِّرت المجانيق ، ونُصبت على قلعة المعرّة .

حلب في يد خاتون

٥

زواج الناصر

ووصل في أثناء ذلك ، رسول[٢] من السّلطان «غياث الدّين كيخسرو» ، يطلب الوصلة إلى «الخاتون الملكة» ، بأن تزوّجه بنتَ السلطان «الملك العزيز» ، أختَ السّلطان «الملك الناصر» ، وأن يُزَوَّج السّلطانُ الملكُ الناصر ، أختَ السلطان «غياث الدين» .

١٠

واستقرَّ الأمر على ذلك ، واجتمع النّاس في دار السّلطان ، بالقلعة ، وعُقِد عَقْدُ السُّلطانِ «غياث الدّين» على الستّ «غازية خاتون» . وتَوَلَّيْتُ عقدَ النكاح ، على مذهب الإمام أبي حنيفة — رضي الله عنه — لصغر الزَّوجة ، على خمسين ألف دينار .

---

(١) في تاريخ أبي الفداء ٣/١٧٠ : «ولما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ، ثم أخذ حماة من الملك المظفر صاحب حماة لموافقته الملك الكامل على قصدهم ، ووصل عسكر حلب الى المعرة وانتزعوها من يد الملك المظفر ، وحاصروا قلعتها ، وخرجت المعرة حينئذ من عند ملك الملك المظفر صاحب حماة» .

(٢) في السلوك ١/٢٧٢ : «وقدم رسول ملك الروم ، فزوج غازية خاتون ابنة العزيز للسلطان غياث الدين ، وأنكح الملك الناصر صاحب حلب أخت السلطان غياث الدين ، وتولى العقد الصاحب كمال الدين بن أبي جرادة بن العديم ، وخرج في الرسالة الى بلاد الروم ، وعقد للملك الناصر صاحب حلب على ملكة خاتون أخت السلطان غياث الدين» .

وقَبِلَ النِّكاحَ ، عن السُّلطان «غياث الدِّين» الرسولُ الواصلُ من جهته ، «عزُّ الدِّين» — قاضي دوقات — حينئذ[1] — ونَثَر الذَّهبَ ، عندَ الفَراغ من العقد .

***

فتح المعرة

ووصل ، عند ذلك ، الخبرُ بفتح «معرّة النّعمان» ، — في تلك السَّاعة ، على جناح طائر — وضُربت البشائرُ ٥ للأمْرَيْن ، وذلك في ‖ < . . . . >[2] من سنة خمس وثلاثين وستّمائة . [٢٥٧ ط]

وسار العسكر فنازل «حماة» ، وابتنى صاحبُها سورًا من اللّبن ، على حاضرها ، من جهة القبلة ، ونَهب عسكرُ حلب بلد «حماة» ورستاقها[3] .

١٠ ووصل رسول من الملك «الصالح ابن الملك الكامل» ، يشفع في صاحب حماة ، فلم يُجَب إلى سؤاله فيه ، واعتُذر إليه بما بدا منه ، وطلب الرَّسول ، عن صاحبه ، الموافقة والمعاضدة ، وأن يسفروا في الصّلح ، بينه وبين «ملك الرّوم» ، فأُجيب جوابًا ، لم يحصل منه على طائل .

---

(١) في تاريخ أبي الفداء ١٧٠/٣ : «وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضي دوقات ، ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهي ملكة خاتون بنت كيقباذ بن كيخسرو» وذكر ان غازية خاتون بنت العزيز صغيرة حينئذ — «ودوقات» : هنا ، لعلّها مصحّفة عن «توقات» وهي بلد على مسيرة يومين من سيواس بآسية الصّغرى .

(٢) بياض في النسختين الاصليتين باريس ولننغراد ، فلعل ابن العديم نفسه كان يريد أن يكمل هذا البياض بوضع التاريخ ، فلم يتوصل إلى ذلك ، ولذلك جعلناه فارغاً كما تركه المؤلف .

(٣) في أبي الفداء ١٧٠/٣ : «ثم سار عسكر حلب ، ومقدمهم المعظم توران شاه ابن صلاح الدين إلى حماة بعد استيلائهم على المعرة ، ونازلوا حماة ، وبها صاحبها الملك المظفر ، ونهب العسكر الحلبيّ بلاد حماة ، واستمر الحصار على حماة» .

ووردت الرّسل من مصر ، من الملك العادل ، والملك الكامل ، يطلبون منه الموافقة ، بينه وبين صاحب حلب ، وأن يجروا منه ، على عادة أبيه ، في الصّلح ، وإقامة الدعوة له بحلب ، فلم يُجب الى شيء من ذلك ، ورجعت الرّسل بغير طائل .

٥ وفي هذه السنة ، قُبض على «قنغر التركماني» ، وحُبس بقلعة حلب ، ونُهبت خيمه ودوابّه .

***

رسالة المؤلف

وسُيِّرتُ من حلب ، في الرّابع من شوّال ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، إلى «بلاد الرُّوم» ، لعقد الوصلة بين السُّلطان «الملك النَّاصر» ، والسّلطان «غياث الدين كيخسرو» ،

١٠ على أخت السّلطان كيخسرو ، وهي ابنة خالة الملك العزيز ، والد الملك الناصر .

وسمع السلطان كيخسرو بوصولي ، وكان في عزم «كيخسرو» التوجّه إلى ناحية «قونية»[1] ، فتعوّق بسببي ، وسيَّر بولقًا[2] إلى «أقجا» دربند ، قبل وصولي «ابلستان»[3] يستحثُّني على الوصول ،

١٥ ويعرّفني تعويقه بسببي ، ثم سير بولقًا آخر ، فوصل إلى تحت «سمندو»[4] يستحثُّني || على الوصول . [٢٥٨ و]

---

(١) قُونِيَة : من أعظم مدن المسلمين بالروم ، وبها وبأقْصَرى سكنى ملوكها ، كما في مراصد الاطلاع ١١٣٤/٣ ، وأقصرا هي آق سراي .

(٢) لم نعرف ماذا يريد هنا .

(٣) ابلستان : لم نقع عليها ، وانما هناك أبْلستين : مدينة مشهورة من مدن الروم قريبة من أبسس ؛ وتسمى اليوم «البستان» .

(٤) سمندو : مدينة في وسط بلاد الروم ذكرها المتنبي في شعره .

فأسرعتُ السّير ، حتى وصلتُ إلى « قيصريّة »[1] ، والسّلطان في « الكيقباذية » ، فاستدعاني إليه ، ولم أنزل « بقيصريّة » ، واجتمعتُ به ، عند وصولي ، يوم الثلاثاء ، سادس عشر شوّال ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة .

عقد الزواج

ووقعت الإجابة إلى عَقد العَقد . ووكّل السلطان « كمال الدّين كاميار » ، على عقد العقد معي ، على أخته « ملكة خاتون بنت كيقباذ » . ودخلنا في تلك السّاعة إلى « قيصريّة » ، وأحضر قاضي البلدة ، والشُّهود ، وعقدت العقد مع « كاميار » ، على خمسين ألف دينار سلطانيّة ، مثل صِداق « كيخسرو » ، الذي كُتب عليه لأخت السّلطان « الملك الناصر » .

وأظهر في ذلك اليوم من التجمّل ، وآلات الذَّهب ، والفضّة ، ما لا يمكن وصفه . ونثرت الدنانير الواصلة ، صحبتي ، وكانت ألف دينار .

ونُثر في دار السلطان من الذَّهب ، والدَّراهم ، والثياب ، والسكَّر ، شيء كثير . وضُربت البشائر في دار السّلطان ، وأظهر من السّرور والفرح ، ما لا يوصف .

وسَيَّرتُ ، في الحال ، بعضَ أصحابي إلى حلب ، مبشِّرًا بذلك كلّه ، فضربت البشائر بحلب ، وأفيضت الخلع على المبشّر .

وعُدتُ إلى حلب ، فدخلتها يوم الخميس ، تاسع ذي القعدة ، والتقاني السلطان « الملك الناصر » – أعزَّ الله نصره – يوم وصولي .

***

(١) علقنا قبل قليل على موقع « قيصرية » ، وقلنا إننا لن نجد تفاصيل وافية عن العقد في أي مصدر ، فقد انفرد ابن العديم بها .

هذا كلُّه ، والعسكرُ الحلبيّ محاصرٌ «حماة» . وكان قبل هذا العقد ، سَيَّر السلطانُ «كيخسرو» الأميرَ «قمر الدّين» الخادم — ويُعْرَف بِمَلِكِ الأرْمَن — رسولًا ‖ إلى حلب ، وعلى يده توقيع من [٢٥٨ ظ] السُّلطان «الملك الناصر» ، بالرُّها ، وسروج . واتّفق الأمر معه ، على أن خَطَب له الملكُ «المظَفَّر شهاب الدّين غازي» — ابن الملك العادل — وأقطعه حرّان ، وأقطع «الملك المنصور» — صاحب ماردين — سنجار ، ونصيبين ، و «الملك المجاهد» — صاحب حمص — عانة ، وغربًا من بلد الخابور .

وكانت هذه البلاد في يد «الملك الصالح ابن الملك الكامل» . واتّفق الأمر ، على أن يأخذ السلطان «كيخسرو» آمد ، وسميساط ، وأعمالها .

خروج الخوارزمية

هرب الصالح

وكان «الخوارزميّة» ، قد خرجوا على[1] «الملك الصالح» ، واستولوا على البلاد ، وهرَب «الملك الصّالح» منهم . فأُنْعِم على الرّسول الواصل إلى حلب ، وأُعطي عطاء وافرًا ، وقُبِل التوقيعُ منه .

ولم ترَ الملكة «الخاتون» مضايقة ابن أخيها في البلاد ، ولم تتعرّض لشيء منها . وبلغه ذلك فَسَيَّر إليها ، وعرض عليها تلك البلاد ، وغيرها ، وقال : «البلاد كلّها بحكمكِ ، وإنْ شِئتِ إرسال

(١) في أبي الفداء ١٧٠/٣ : «وفيها خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب ، بعد موت أبيه الملك الكامل ، ونهبوا البلاد» .

نائب يتسلَّم هذه البلادَ، وغيرها، فأرسليه لأسلِّم إليه ما تأمرين بتسليمه». فشكرتْه، وطيَّبَت قلبه.

واتَّفق بعد ذلك مع «الخوارزميّة»، وأقطعهم: حرَّان، والرّها، وغيرهما، بعد أن كانوا اتفقوا مع «الملك المنصور» – صاحب ماردين – وقَصدوا بلاد «الملك الصالح أيوب»، وأغاروا عليها، ٥ ونزلوا على حرّان[1]، وأجفل أهلها.

وخاف «الملك الصالح»، فاختفى، ثم ظهر «بسنجار»؛ وحصره[2] «بدرُ الدّين لؤلؤ» – صاحب المَوْصل – وكان قد ترك ولده ‖ الملك «المغيث» «بقلعة حرَّان»، فخاف من الخوارزميّة، [٢٥٩ و] وسار[3] مختفيًا نحو «قلعة جعبر»، فطلبوه، ونهبوه ومَنْ معه، ١٠ وأفلت في شرذمة من أصحابه.

ووصل إلى «منبج» مستجيرًا بعمّته[4]. فسيّر إليه منْ حلب، ورُدَّ عن الوصول إليها بوجهٍ لطيف، وقيل له: «نخافُ أن يطلبَكَ منّا سلطان الرّوم، ولا يمكننا منعك منه».

موافقة الخوارزمية

١٥ فعاد إلى حرّان، ووصله كتاب أبيه يأمره بموافقة «الخوارزمية» والوصول إليه بهم لدفع «لؤلؤ»، ففعل

(١) انظر السلوك ٢٧١/١.

(٢) في أبي الفداء ١٧٠/٣: «سار لؤلؤ صاحب الموصل، وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار».

(٣) السلوك ٢٧١/١: «وكان الملك الصالح قد ترك بها ولده المغيث فتح الدين عمر بن الصالح فخاف من الخوارزمية، وسار مختفياً حتى فرّ إلى قلعة جعبر».

(٤) السلوك: «فاستجار بعمة أبيه الصاحبة ضيفة خاتون أم الملك العزيز صاحب حلب، فلم تقبله، فرد الى حران، وفيها أتاه كتاب أبيه، يأمره بموافقة الخوارزمية، والوصول بهم اليه، لدفع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل».

ذلك ؛ وسار «بالخوارزميّة» ، طالبين عسكر الموصل ، فانهزموا[١] وأفرجوا عن سنجار ، وأدركهم الخوارزمية فقتلوا منهم ونهبوا أثقالهم ، وقوي «الملك[٢] الصالح» بهم .

ووصل عسكر «الروم» إلى آمد ، ونازلها ، وأخذ بعضَ قلاعها ، ٥ وتوجَّه عسكر «الخوارزميّة» ، إلى جهتهم ، فرحلوا[٣] عن آمد . ولم ينالوا منها زبدة .

الدعوة لكيخسرو

ووصل رسول «السلطان كيخسرو» عز الدّين — قاضي دوقات — إلى حلب في هذه السنة ، وتحدَّث في إقامة الدّعوة «للسلطان كيخسرو» ، وضرب السكّة باسمه . وكان الأمراء ١٠ والعسكر محاصرين «حماة» ، فتوقَّفت الملكة في ذلك ، وأشير عليها بموافقته على ما طلب ، فأجابت وخُطب له في يوم الجمعة < ...... >[٤] من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، على منبر حلب .

وحضر في ذلك اليوم ، الأمير «جمال الدّولة إقبال» ، وصعد الرّسول الى المنبر ، ونَثَر الدَّنانير عند إقامة الدعوة . ونثر «جمال الدولة» ١٥ دنانيرَ ودراهم ، وخلع على الدعاء ‖ ، وأظهر من السرور ، والاحتفال [٢٥٩ ظ] في ذلك اليوم ، شيء عظيم ، في مقابلة ما أظهر «بقيصرية» من الاحتفال يوم عقد الملك الناصر .

---

(١) في أبي الفداء ١٧٠/٣ : «واتفق مع بدر الدين لولو صاحب الموصل ، فانهزم لولو وعسكره هزيمة قبيحة ، وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئاً كثيراً» .

(٢) في السلوك ٢٧١/١ : «وقوي الملك الصالح بالخوارزمية وبهذا الفتح قوة زائدة ، وعظم شأنه ، وسير الخوارزمية إلى آمد ، وعليها عسكر السلطان غياث الدين كيخسرو صاحب الروم» .

(٣) في السلوك : «فاوقعوا بهم ورحلوهم عن آمد» .

(٤) بياض تركه المؤلف ، لعله يتاح له أن يملأه بتحديد الزمان ، فبقي كذلك فارغاً في نسختي باريس ولننغراد .

وطال الحصار على «حماة» ، ولم تكن «الملكة[١] الخاتون» تُؤثر أخذَها من ابن أختها ، وانما أرادت التّضييق عليه ، لينزل عن طلب «معرَّة النعمان» . وضجر العسكر ، فاستُدعي إلى حلب المحروسة ، فوصل اليها في < . . . . >[٢] من سنة ست وثلاثين وستّمائة .

الجواد في دمشق

وكان الملك «الجواد يونس بن مودود[٣] ابن الملك العادل» ، بعد موت «الملك الكامل» ، قد استولى على «دمشق» ، وعلى الخزائن ، التي كانت في صحبة «الملك الكامل» ؛ وأظهر الطاعة «للملك العادل» وأرسل إلى حلب ، رسولاً يطلب منهم معاضدته ، وانتماءه ، فلم يُصغوا إلى قوله ، وامتنعوا أن يدخلوا بينه وبين الملك العادل .

وخاف[٤] من «الملك العادل» ، فراسلَ الملكَ «الصالح أيّوب ابن الملك الكامل» ، واتّفقا على أن يسلِّم إلى «الملك الصالح» دمشق ، ويعوّضه عنهـا «بالرّقه» و «سنجار» و «عانة» ، فسار «الملك

(١) في أبي الفداء ١٧٠/٣ : «في هذه السنة رحل عسكر المحاصرة لحماة بعد مولد الملك الأفضل ، وكان قد طالت مدة حصارهم لحماة وضجروا فتقدمت اليهم ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها فرحلوا ، وضاق الأمر على الملك المظفر في هذا الحصار ، وأنفق أموالا كثيرة ، واستمرت المعرة بيد الحلبيين وسلمية في يد صاحب حمص» .

(٢) بياض تركه المؤلف ، فبقي الفراغ ظاهرًا ، في نسختي الأصل باريس ولننغراد ؛ وحافظنا عليه .

(٣) هناك في الأصل : «ممدود» وهو سهو من الناسخ ، فالمشهور في اسم الملك الجواد أنه يونس بن مودود ابن العادل نجم الدين أيوب .

(٤) في السلوك ٢٧٩/١ : «فبرز الملك العادل من القاهرة يريد دمشق ... فخاف الجواد ، وعلم عجزه عن مقاومة العادل ، فبعث خطيب دمشق ... إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب حصن كيفا ودياربكر وغيرها من بلاد الشرق ، يطلب منه أن يتسلّم دمشق ويعوضه عنها سنجار والرقة وعانة ، فوقع ذلك من الملك الصالح أحسن موقع» — أنظر ابا الفداء ١٧١/٣ .

الصالح » ، من الشّرق ، و «الخوارزميّة » في صحبته ، في جمادى الأولى .

الصالح في دمشق وتقدّم الملك الصالح الى دمشق ، وتسلّمها من « الملك الجواد »[1] ، في جمادى الآخرة من سنة ستّ وثلاثين .

وأرسل إلى عمّته الى حلب ، يُعرفها بذلك ، ويبذل من نفسه
٥ الموافقة على ما تريده ، ويطلب المساعدةَ له ، والمعاضدة على أخذ مصر ، فأجابته بأنّها : « لا تدخل بينه وبين أخيه ، وأنكما ولد أخي » ، ولم تُجبه إلى ما اقترح .

وسار || « الملك الجواد »[2] إلى « الرّقة » ، فأخرجه « الخوارزمية » [٢٦٠ و] منها ، وسار إلى « سنجار » ، فأقام بها مدّة ، وخرج إلى « عانة » ،
١٠ فسار بدر الدين لؤلؤ إلى سنجار ، بعملية كانت له فيها ، فاستولى عليها ، في شهر ربيع الأوّل ، من سنة سبع وثلاثين .

الصالح في نابلس وأما الملك الصالح[3] ، فإنّه صعد إلى « نابلس » ، وأقام بها ، وكاتب الأُمراء المصريّين ، وعثر الملك العادل على قضيّتهم ، فقبض الذين كاتبوه ، ولم يتّفق للملك
١٥ الصّالح ما أراد .

وساقَ عمّه « الملك الصالح اسماعيل »[4] ، من بعلبك ، « والملك

---

(١) في السلوك ٢٧٩/١ : « وسار الصالح من الشرق يريد دمشق فقطع الجواد اسم الملك العادل من الخطبة ، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل وضرب السكة باسمه ، ودخل الصالح إلى دمشق في مستهل جمادى الأولى » .

(٢) في أبي الفداء : « وسار الجواد يونس إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلّمها » .

(٣) في أبي الفداء : « ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيث ... وشرع يكاتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ... »

(٤) في أبي الفداء ١٧٢/٣ : « في هذه السنة في صفر سار الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بمجموعها ، وهجموا دمشق ، وحصروا القلعة ، وتسلّمها الصالح اسماعيل» .

المجاهد » – صاحب حمص – منها ، ودخلا « دمشق » ، وملكها «الملك الصالح » ، وحصر القلعة يومًا أو يومين ، وفتحها ، وذلك في شهر ربيع الأوّل ، من سنة سبع وثلاثين وستّمائة . وقبض على[1] «الملك المغيث» ابن الملك الصّالح ، وسجنه «بقلعة دمشق» .

وسمع الملك الصّالح ابن الكامل بذلك ، فتوجّه نحو دمشق[2] ، حتى وصل الى « العقبة » ، فلم يجد معه من عسكره مَنْ ينصحه ، فعاد إلى «نابلس » ، فسيَّر « الملك الناصر » – صاحب الكرك – وقبض عليه ، وحمله مقيّدًا الى « الكرك »[3] وسجنه بها .

وتجدَّدت الوحشة بين « الملك الناصر » ، وبين « الملك الصالح » ، عمّه ، بسبب استيلائه على دمشق . واتفق الملك العادل وعمّه الملك الصّالح .

وحشة الناصر والعادل

فاستوحش « الملك الناصر » من الملك العادل لذلك ، حتى آل الأمر به إلى أن أخرج الملكَ الصّالحَ ابن الكامل من سجن « الكرك »[4] ، وخرج معه، وكاتب

(١) في أبي الفداء : « وتسلّمها الصالح اسماعيل ، وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب ، وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر » .

(٢) في أبي الفداء ٣/١٧٣ : « وأما الملك الصالح أيوب ، فلما بلغه قصد عمه اسماعيل دمشق رحل من نابلس إلى الغور... ففسدت نيات عساكره عليه ، وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح اسماعيل بدمشق ... فقصد نابلس » .

(٣) في أبي الفداء : « وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها وأمر بالقيام في خدمته بكل ما يختاره » .

(٤) في أبي الفداء ٣/١٧٣ : « أخرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمّه الملك الصالح أيوب ، واجتمعت عليه مماليكه » .

الأمراء بمصر ، فقبضوا على ‖ «الملك العادل» «ببلبيس»[١] ، في ليلة [٢٦٠ ظ] الجمعة ، الثامنة من ذي القعدة ، من سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ووصل الملكُ الصَّالحُ أيوب[٢] ، فدخلَ «القاهرة» ، بكرة الأحد الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

***

المؤلف في القاهرة

٥ وكُنت إذْ ذَاك بالقاهرة ، رسولًا الى «الملك العادل» ، أُهنئُه بكسر عسكره الافرنج على «غزَّة» ، وأطلب أن يسيِّر عمَّاته بنات «الملك العادل» ، معي إلى أختهن «الملكة» إلى حلب ، فاستحضرني «الملك الصَّالح أيُّوب»[٣] ، يوم الثّلاثاء حادي عشر ذي الحجّة ، وقال لي : «تقبّل الأرضَ بين يدي ١٠ السِّتْر العالي ، وتُعرّفها أنني مملوكُها ، وانَّها عندي في محلّ «الملك الكامل» ، وأنا أعرض نفسي لخدمتها[٤] ، وامتثال أمرها فيما تأمر به» ، وحمَّلني مثلَ هذا القول إلى «السّلطان الملك الناصر» .

ونزلتُ من مصر ، فاجتمعتُ بالملك الصَّالح اسماعيل ابن الملك العادل ، في رابع محرَّم سنة ثمان وثلاثين ، وحمَّلني رسالة الى «الملكة

---

(١) في أبي الفداء ١٧٤/٣ : «ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدمهم ايبك الاسمر وأحاطوا بدهليز الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة» .

(٢) في السلوك ٢٩٧/١ : «فقام من فوره الملك الصالح ، وسار في الليل ، ومعه العادل في محفة ، ودخل به إلى القاهرة ، واستولى على قلعة الجبل ، يوم الجمعة ثالث عشرين شوال بغير تعب» .

(٣) الملك الصالح نجم الدين أيوب هو أخو الملك العادل ، وهما ابنا الملك الكامل ، كما يعلم القارئ .

(٤) خبر هذه الرسالة في السلوك ٢٩٨/١ : «وشيّع الملك الصالح أيضاً الصاحب كمال الدين بن العديم رسول حلب» .

الخاتون » ، يطلب منها معاضدتَه ، ومساعدتَه ، على « الملك الصَّالح »[١] – صاحب مصر – إنْ قَصَده ، فلم تُجبْهُ إلى ذلك في ذلك الوقت .

***

الخوارزمية وكان « الخوارزميّة » ، في سنة سبع وثلاثين ، قَد وضعوا أيديهم على « أوشين » – من بلد البيرة – وطمعوا في أطراف باب « البيرة » ، واستولوا على قلعة « حرّان » ، حين كان « الملك الصالح »[٢] محبوسًا « بالكرك » ، وامتدَّت أطماعهم إلى البلاد المجاورة لهم ، وكثر تثقيلهم على الملك « الحافظ أرسلان[٣] ابن الملك العادل » ، بناحية « قلعة جعبر » ، وهو يداريهم ، ويبذل لهم الأموال ؛ وأطماعُهم تشتدّ .

[٢٦١ و] واتَّفق أنه فُلِجَ ، وخَاف مِنْ وَلَدِهِ ، فأرسل || إلى أخته « الملكة »[٤] بحلب يطلبُ منها أن تُقايضه « بقلعة جعبر » و « بالس » إلى شيء تعمل له ، بمقدار « قلعة جعبر » و « بالس » . فاتَّفق الأمر على أن تعوّضه « بعزاز » ، ومواضع تعمل بمقدار ذلك . وسيَّر مِنْ حلب من تسلَّم « قلعة جعبر » ، في صفر من سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

(١) يريد الملك الصالح نجم الدين أيّوب الذي استولى على الحكم بمصر ، من أخيه الملك العادل ، وتلقى خلع الخليفة .

(٢) في أبي الفداء ٣/١٦٦ : « في أواخر رمضان – ٦٣٧ هـ – أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمّه الملك الصالح أيوب ، واجتمعت عليه مماليكه ... وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود » .

(٣) هو الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب .

(٤) في أبي الفداء ٣/١٦٧ : « وفيها نزل الملك الحافظ ... عن قلعة جعبر وبالس ، وسلمها إلى أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب ، وتسلّم عوض ذلك عزاز وبلاداً معها تساوي ما نزل عنه ، وسبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج وخشي من أولاده وتغلّبهم عليه ففعل ذلك ، لأنه كان ببلاد قريبة إلى حلب لا يمكنهم التعرض اليه » .

الحافظ في حلب

ووصل «الملك الحافظ» إلى حلب، في هذا الشّهر، وصعد في المحفّة إلى القلعة، واجتمع بأخته «الملكة»، وأنزل في الدار المعروفة «بصاحب عين تاب» – تحت القلعة – وسُلمت إلى نوّابه «قلعة عزاز».

٥ فخرج الخوارزمية، عند ذلك، وأغاروا على[1] بلد «قلعة جعبر»، ووصلوا إلى «بالس»، فأغاروا عليها، ونهبوها، ولم يسلم منها إلّا من كان خرج عنها إلى حلب وإلى منبج.

وفي هذا الشّهر، توفّي القاضي «جمال الدّين أبو عبدالله، محمد ابن عبد الرّحمن بن علوان» – قاضي حلب – وولّي قضاءها بعده ١٠ نائبُه ابن أخيه «كمال الدين أبو العبّاس، أحمد ابن القاضي زين الدّين أبي محمد».

حلب والخوارزمية

وخرج عسكر حلب[2] إلى جهة «الخوارزمية»، ومقدّمهم «الملك المعظّم تورانشاه» ابن الملك النـاصر، فنزلوا «بالنّقرة»، ورحلوا منها إلى «منبج»، وأقاموا بها مدّة.

١٥ وتجمّع «الخوارزمية» في حرّان، والحلبيّون غير محتفلين بأمرهم، وعسكر حلب بعضه في نجدة «ملك الرُّوم» في مقابلة «التتار»، وبعضهم في «قلعة جعبر»، وبعضهم مفرّقون في القلاع، مثل «شيزر»، «وحارم»، وغيرهما.

وسار الخوارزميّة، بجملتهم، في جمع عظيم، ومعهم «الملك ٢٠ الجواد بن مودود[3] ابن الملك الحافظ، و«الملك ‖ الصالح» ابن الملك [٢٦١ ظ]

(١) في السلوك ١/٣٠٢: «وفيها – سنة ٦٣٨ – أغار الخوارزمية على بلاد قلعة جعبر وبالس ونهبوها، وقتلوا كثيراً من الناس، ففرّ من بقي إلى حلب وإلى منبج».

(٢) في السلوك ١/٣٠٣: «فخرج اليهم العسكر من حلب، فانكسر وقتل أكثره».

(٣) في الأصل كذلك: «الملك الجواد بن ممدود» فأصلحنا التصحيف.

المجاهد – صاحب حمص – وكان جمعهم يزيد على اثني عشر[1] ألفًا ، وانضم اليهم الأمير «علي بن حديثة» في جموعه من العرب ، وكان استوحش من أهل حلب ، لتقريبهم الأحلاف .

تعبئة القتال

وعبروا بجملتهم من «جسر الرّقة» ، وساروا ، حتى وصلوا نهر «بوجيار»[2] ، وسمع بهم مَن بمنبج ، من عسكر حلب ، فرحلوا من منبج ، ونزلوا في وادي «بزاعا» ، وأصبح كلّ واحد من الفريقين ، يطلب صاحبه ، وعسكر حلب لا يزيدون عن ألف وخمسمائة فارس .

وتعبّأ كلّ فريق لقتال صاحبه . وأقبل الخوارزمية – ومقدّمهم «بركة خان» – ومعه «صاروخان» و«بردى خان» و«كشلوخان» وغيرهم ، من أمرائهم ، والملك الجواد ، وابن الملك الحافظ ، وابن صاحب حمص ، وعسكر «ماردين» نجدة معهم وعبروا «نهر الذّهب» .

والتقى الفريقان ، على «البيرة» – قرية بالوادي – في يوم الخميس رابع عشر ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، فصدمهم عسكر حلب على قلّته ، صدمة ، تزحزحوا لها ، وتكاثر الخوارزمية عليهم .

انكسار الحلبيين

وجاء «عليّ بن حديثة» ، وخرج من بين البساتين ، وجاء من وراء عسكر حلب ، ووقع في الغلمان ، و«الركابدارية»[3] ، وأحاطوا بهم ، من جميع الجهات ، وانهزموا

---

(١) في السلوك : «وانضمت الخوارزمية على صاحب الموصل ، فصاروا نحو الاثني عشر ألفاً ، وقصدوا حلب» .

(٢) لم نقع على مكان هذا النهر في المعاجم التي بين أيدينا .

(٣) الركبدارية – أو الركابدارية – هم الذين يحملون السَّرج أو الغاشية بين يدي السلطان في المواكب العامة والأعياد – انظر صبح الأعشى للقلقشندي ٧/٤ .

وهم مطبقون عليهم، وجعلوا طريقهم على «رصيف الملكة»، الذي يأخذ من «بزاعا» إلى حلب، حتى خرجوا فيما بين «ربانا» و«تلفيتا»[1].

والخوارزميّة في آثارهم يقتلون، ويأسرون، ونزلوا من جهة «الاعرابية»، و«فرفارين» وهم في آثارهم، فقبضوا على «الملك المعظَّم»، بعد أن ثبت في ‖ المعركة، وجرح جراحات مثخنة، وعلى أخيه [٢٦٢ و] ٥
«نصرة الدين»، وقبضوا على عامّة الأمراء، ولم يسلم من العسكر إلّا القليل.

قتل الصالح

وقتل في المعركة «الملك الصالح» ابن الملك الأفضل، وابن الملك الزّاهر، وجماعة كثيرة[2]. واستولوا على ثقل العسكر، ونَهَبَ الأحلافُ من العرب أكثرَ ثقل العسكر، وكانوا أشدَّ ضررًا على العسكر، في انتهاب أموالهم من أعدائهم. ١٠

الخوارزمية على حيلان

ونزل «الخوارزميّة» حول «حيلان»[3]، وامتدّوا على النهر، إلى «فافين»[4]، وقطعوا على جماعة من العسكر أموالًا أخذوها منهم، وابتاعوا بها أنفسهم، وشربوا تلك الليلة، وقتلوا جماعة من الأسرى صبرًا، فخاف الباقون، وقطعوا أموالًا على أنفسهم، وزنوها فمنهم من خلص، ومنهم مَنْ أخذوا منه المال، وغَدروا به، ولم يطلقوه. ١٥

---

(١) ربانا، وتلفيتا، الأعرابية، فرفارين : لا نقع على تحديد تام في مواقعها الجغرافية خلال المصادر التي نملكها.

(٢) في أبي الفداء ١٦٧/٣ : «فخرج اليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين، ووقع بينهم القتال، فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين وأسر مقدم الجيش المذكور» — وهكذا توجز المصادر الباقية فينفرد ابن العديم وحده بايراد التفاصيل في وصف هذه الكارثة.

(٣) في أبي الفداء : «ثم نزل الخوارزمية بعـد ذلك على حيلان وكثر عيثهم وفسادهم» — وحيلان علقنا على موقعها قرب حلب، والمياه جرّت منها إلى المدينة.

(٤) فافين : قرية معروفة قرب حلب.

واحتيط «بلد حلب» ، وتقدَّم إلى مقدّمي البلدة بحفظ الأسوار ، والأبواب ، وجفل أهلُ «الحاضر» ، ومَنْ كان خارج المدينة إلى المدينة ، بما قدروا على نقله من أمتعتهم .

وبقي في البلد الأميران : «شمس الدّين لؤلؤ» ، و «عزّ الدّين ابن مجلّي» ، في جماعة ، لا تبلغ مائتي فارس يركبون ، ويخرجون ٥ إلى ظاهر المدينة ، يتعرَّفون أخبارهم ، وبثُّوا سراياهم ، في أعمال حلب يشنّون الغارة فيها ، فبلغت خيلهم إلى بلد «عزاز» ، و «تلّ باشر» ، و «برج الرّصاص» ، و «جبل سمعان» ، و «بلد الحوّار»[1] و «طرف العمق» .

١٠ وجاؤوا أهل هذه النواحي على غفلة ، فلم يستطيعوا أن يهربوا بين أيديهم ، ومَنْ أجفل منهم لحقوه ، فأخذوا من المواشي ، والأمتعة ، [٢٦٢ ظ] والحرم ، والصبيان ، ما لا يحدّ ولا يوصف ، وارتكبوا || من الفاحشة مع حرم[2] المسلمين ، ما لم يفعله أحد من الكفّار ، إلّا ما سمع عن القرامطة .

في بزاعا

١٥ ثم رحلوا الى «بزاعا» ، و «الباب» ، فعذَّبوا أهل الموضعيْن ، واستقروهم على أموالهم التي أخفوها ، واستصفوها منهم . وقتلوا منهم جماعة ، ونهبوا ما كان فيها من المتاع والمواشي ؛ وكان بعضهم ، قد هرب إلى حلب ، وقتَ الوقعة ، بما خفّ معه من الحرم ، والمتاع ، فسلم .

(١) بلد الحوار : قرب العمق .

(٢) في أبي الفداء ١٦٧/١ : «وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبوه التتر» — وفي السلوك ٣٠٣/١ : «وانتهبت أعمال حلب ، وفعل فيها كل قبيح من السبي والقتل والتخريب» .

في منبج

ثم رحلوا إلى «منبج»[١]، وقد استعصم أهلها بالسّور، ودرَّبوا المواضع التي لا سور لها، فهجموها بالسّيف، في يوم الخميس الحادي والعشرين، من شهر ربيع الآخر، من سنة ثمان وثلاثين.

٥ وقتلوا من أهلها خلقًا كثيرًا، وخرَّبوا دورها، ونبشوها، فعثروا فيها على أموال عظيمة، وسبوا أولادهم ونسآءهم؛ وجاهروا الله تعالى بالمعاصي في حرمهم.

والتجأ لمّة من النّساء إلى «المسجد الجامع»، فدخلوا عليهنّ، وفحشوا ببعضهن في المسجد الجامع[٢]، وكان الواحد منهم يأخذ ١٠ المرأة، وعلى صدرها ولدها الرَّضيع، فيأخذه منها، ويضرب به الأرض، ويأخذها، ويمضي.

المجاهد في حلب

ووصل الخبر بكسرة عسكر حلب إلى حمص إلى «الملك المنصور ابراهيم ابن الملك المجاهد»، وقد عزم على الدخول إلى بلد «الفرنج» للغارة، وعنده من عسكره ١٥ وعسكر دمشق مقدار ألف فارس، فساق بِمَن معه من العسكر[٣]. ووصل إلى حلب في يوم السَّبت الثالث والعشرين، من شهر ربيع الآخر.

(١) في أبي الفداء: «ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف، يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وفعلوا من القتل والنهب، مثل ما تقدم ذكره».

(٢) في السلوك: «ووضعوا السيف في أهل منبج، وقتلوا فيها ما لا يحصى عدده من الناس، وخربوا وارتكبوا الفواحش بالنساء في الجامع علانية، وقتلوا الأطفال، وعادوا وقد خرب ما حول حلب» — ونحن نورد ما يقول المؤرخون تأكيدًا لما روى ابن العديم مع علمنا باختصارهم وايجازهم.

(٣) في السلوك: «فسار المنصور ابرهيم ابن الملك المجاهد صاحب حمص بعساكره وعساكر حلب ودمشق، وقطع الفرات إلى سروج والرّها وأوقع بالخوارزمية وكسرهم واستولى على ما معهم، ومضوا هاربين إلى عانة».

وخرج السُّلطان وأهلُ البلد ، والتقَوه إلى «السَّعْدي»[١] ، ونزل «الهزَّازة»[٢] ، ثم أُخليتْ له في ذلك ‖ اليوم دار «علم الدّين قيصر الظَّاهري»[٣] . بمصلّى العبد العتيق — خارج «باب الرَّابية»[٤] — فأقام بها ، واستقرَّ الأمر معه على أن <يستخدم>[٥] العساكر ، وتُجمع ، ووقع التوثُّق منه ، وله ، بالأيمان والعهود . [٢٦٣ و]

٥

***

نجدة من دمشق

وسُيِّرتُ رسولاً إلى الملك «الصالح اسماعيل ابن الملك العادل» لتحليفه ، فسرتُ ، ووصلتُ إلى دمشق ، وحلَّفته في جُمادى الآخرة من السّنة ، وطلبتُ منه نجدة من عسكره ، زيادة على مَنْ كان منهم بحلب ، فَسيَّر نجدةً أخرى ، وأطلق الأسرى «الداويّة» ، الذين كانوا بحلب استكفاء لشرّهم .

١٠

وحين سمع «الخوارزميّة» تجمّع العساكِر بحلب ، عادوا من أقطاعاتهم ، وتجمّعوا «بحرّان» ، وعزموا على العبور إلى جهة حلب ، ومعاجلتهم قبل أن يكثر جمعهم ، وظنّوا أنهم يبادرون إلى صلحهم .

وكان «عليّ بن حديثة» ، قد انفصل عن «الخوارزمية» وظاهر

(١) السعدي : «فضاء فياح تجري فيه أنهر متشعبة من نهر واحد بحافتيها مروج خضر وبها من الزهر المختلف مالا يبلغه الوصف» وقد ذكره ابن الشحنة في الدر المنتخب ص ٢٥٥ من «متنزهات حلب» .

(٢) الهزازة : كانت في ظاهر حلب ، وهي اليوم من أحياء المدينة وفي قلبها — انظر الدر المنتخب ص ١٠٥ .

(٣) لعلّه علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر — المعروف بتعاسيف — المذكور في السلوك ٣٨٢/١ ، والمتوفى ٦٥٠هـ وقد استقدمه الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة ، وكان علم الدين مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية فبنى للملك المظفر أبراجاً بحماة وطاحوناً على النهر العاصي .

(٤) باب الرابية : جاء ذكره في ظاهر حلب ، بالدر المنتخب ١٠٥ .

(٥) طمس في نسخة باريس ، فأخذنا عن مخطوطة لننغراد .

ابن غنام ، قد خدم بحلب ، وأُمّر على سائر العرب ، وزوّجته «الملكة الخاتون» بعضَ جواريها ، وأقطعته أقطاعًا ترضيه .

فسار «الخوارزمية» ، من «حرّان» ، في يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وتتابعوا في الرَّحيل ، ووصلوا إلى «الرَّقة» ، وعبروا «الفرات» ، وبلغ خبرهم إلى حلب ، فبرز «الملك المنصور» خيمتَه ، وضربَها شرقيَّ حلب ، على أرض «النَّيْرب» و «جبرين» ، وخرجت العساكر ، بخيمها حوله .

الخوارزمية حول حلب

ووصل «الخوارزميّة» الى «الفايا»[1] ثم إلى «دير حافر» ثم الى «الجبّول» ، وامتدوا في أرض «النّقرة» . وأقام «الملك المنصور» ، والعسكر معه ، في الخيم ، وَيزكَ الخوارزميّة في «تلّ عرن»[2] ، وَيزك الملك المنصور على ‖ «بوشلا»[3] ، [٢٦٣ ظ] والعربان يناوشون «الخوارزميّة» .

وعاث الخوارزميّة في البلد ، وأحرقوا الأبواب الّتي في القُرى ، وأخذوا ما قدروا عليه ، وكان الفساد في هذه المرّة ، أقلّ من المرّة الأولى . وكان البلد قد أجفل ، فلم ينتهبوا إلّا ما عجز أهله عن حمله ، وتأخّر لقاء العسكر الخوارزميّة ، لأنّهم لم يتكملوا العدّة .

ورحل الخوارزميّة ، فنزلوا بقرب «الصافية»[4] ، ومضوا إلى «سرمين»[5] ، ونهبوها ، ودخلوا «دار الدَّعوة» ، وكان قد اجتمع

(١) ألفايا : قرية من عمل المعرة ، وصحفها الدر المنتخب ٢٣٥ إلى «القانا» .
(٢) تل عرن : قرية مشهورة قرب حلب .
(٣) بو شلا : علقنا على هذه الكلمة في زبدة الحلب ٢٠٤/١ وقلنا اننا لم نصل إلى تحديد موقعها .
(٤) الصافية : لم نجدها على المصور الجغرافي لهذه المنطقة .
(٥) سرمين : علقنا عليها في زبدة الحلب ٦٦/٢ وقلنا انها شمالي معرّة النعمان على خمسين كيلومترًا منها .

فيها أمتعة كثيرة للناس ، ظنًّا منهم أنَّهم لا يجسرون على قربانها ، خوفًا من «الاسماعيلية» ، فدخلوها قهرًا ، ونهبوا جميع ما كان فيها ، ورحلوا الى «معرَّة النعمان» ، ونزل العسكر مع «الملك المنصور» على «تلّ السّلطان» ثم رحلوا الى «الحيار» .

احراق كفرطاب ورحل «الخوارزميّة» إلى «كفرطاب»[1] ، وجفل البلد بين أيديهم ، وأحرقوا «كفرطاب» ، وساروا إلى «شيزر» ، وتحيَّز أهلها إلى المدينة التي تحت القلعة ، فهجموا الربض ، واحتمت المدينة التي تحت القلعة يومًا ، ثم هجموها في اليوم الثاني ، ونهبوا ما أمكنهم نهبه . ٥

وأرسل عليهم أهل القلعة الجروخ ، والحجارة ، فقتلوا منهم جماعة وافرة ، وبلغهم استعداد عسكر حلب ، للقائهم ، وأنَّهم قد وقفوا بينهم وبين بلادهم ، للقائهم ؛ فطلبوا ناحية «حماة» ، وجاوزوها إلى جهة القبلة . ١٠

فسارت العساكر الحلبيّة ، لقصدهم ، فقصدوا ناحية «سلمية» ، ثم توجّهوا إلى ناحية «الرّصافة» ، وبلغ خبرهم عسكر حلب ، فركبوا ، وطلبوا مقاطعتهم . ١٥

ووقع جمع من العرب بهم ، بقرب «الرّصافة» ، وقد تعبت خيولهم ، وضعفت لقوة السير ، وقلّة || الزاد والعلف ، فألقوا أثقالَهم كلَّها ، والغنائم التي كانت معهم من البلاد ، وأرسلوا خلفًا ممَّن كانوا أسروه من بلد حلب ، وشيزر ، وكفرطاب ؛ وساروا طالبي «الرّقّة» [٢٦٤ و] ٢٠

(١) كفرطاب : علقنا كذلك عليها في زبدة الحلب ١٥/٢ وقلنا إنها بين المعرة وحلب .

مجدّين في السَّير ، واشتغل العربُ ، ومَن كان معهم من الجند ، بنهب ما ألقوه.

ووصل «الخوارزميّة» إلى الفرات ، مقابل «الرَّقّة» – غربي البليل وشماليّه – بكرة الاثنين خامس شعبان .

عسكر حلب

٥ وأما الملك المنصور وعسكر حلب ، فإنَّهم وصلوا إلى «صفّين»[١] ، وساقوا سوقًا قويًا ، ليسبقوا الخوارزميّة إلى الماء ، ويحولوا بينهم وبين العبور إلى «الرقة» .

فوصلوا بعد وصول الخوارزمية بساعة ، فوجدوا الخوارزمية قد احتموا في «بستان البليل» ، وأخذوا منها الأبواب[٢] ، وجعلوها ستائر

١٠ عليهم ، وحفروا خندقًا عليهم ، فقاتلوهم إلى بعد العشاء ، وأخذوا من الأغنام ، التي لهم ، شيئًا كثيرًا ، ولم يكن عندهم علوفة لدوابّهم ، ولا زاد لأنفسهم ، فعادوا في اللَّيل الى منزلتهم «بصفّين» .

ونام جماعة من الرجالة في «البليل» ، فوقع عليهم «الخوارزميّة» فقتلوهم . وعبر الخوارزميّة إلى «الرّقة» ، وقد هلكت دوابّهم إلَّا

١٥ القليل ، وأكثرهم رجّالة ؛ وسَرَوْا إلى «حرّان» ، وأحضروا لهم دوابَّ ركبوها ، وتوجهوا إلى «حرّان» .

في سروج

وأراد «الملك المنصور» العبور من جسر «قلعة جعبر»[٣] ، فلم يمكنه لقلَّة العلوفة ، فسار بالعساكر إلى «البيرة» ، وعبر من عبرها بالعسكر والجموع . وسار حتّى نزل ما بين «سروج» و«الرّها» .

(١) صفّين : قرب الرقّة ، وعندها (الوقعة) المشهورة باسمها .

(٢) من العجيب أن لا نجد في المصادر التاريخية الأخرى تفصيلاً لما أورد ابن العديم من حرب حلب ضد الخوارزمية .

(٣) قلعة جعبر : ذكرنا غير مرّة انها قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، وكانت قديماً تسمّى دوسر .

ووصل الخوارزميّة ليكبسوا اليزك ، فعلموا بهم ، وتاهوا في اللّيل ،
[٢٦٤ ظ] || وركب العسكر ، فعادوا والعسكر في آثارهم ، الى «سروج» ، ولم
ينالوا زبدة ، ووصلوا إلى «حرّان» ، وجمعوا جمعًا كثيرًا ، حتى
أخذوا عوامّ «حَرّان» ، وألزموهم بالخروج معهم ، ليكثروا بهم السواد .

٥ ووصلوا إلى قرب «الرّها» إلى جبل يقال له «جَلْهَمَان»[1] واجتمعوا
عليه ، ورتّبوا عسكرهم ، وكثّروا سوادهم بالجمال ، وعملوا رايات من
القصب ، على الجمال ، ليلقوا الرُّعب في قلوب العسكر ، بتكثير السواد .

انكسار الخوارزمية

وركب العسكر من منزلته ، بعد أن وصل رسول ، من عسكر
١٠ «الرُّوم» ، يخبر بوصوله في النجدة ، بعد حطّ الخيم للرّحيل ، فلم
يتوقّفوا . وساروا ، إلى أن وصلوا إلى «الخوارزميّة» ، يوم الأربعاء
الحادي والعشرين ، من شهر رمضان ، سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

في حران والتقوا ، وكُسر «الخوارزميّة» ، واستبيح عسكرهم ، وهربوا ،
والعساكر في آثارهم ، إلى أن حال اللّيل بينهم وبينهم ،
١٥ فعاد العسكر ، ووصل الخوارزميّة إلى «حرّان» ، وأخذوا نساءهم ،
وهربوا ، ورتّبوا في قلعة «حرّان» واليًا من جهة «بركة خان»[2] ،
وساروا ، ووصل «الملك المنصور» والعساكر[3] إليها ، فوكّل بالقلعة
من يحصرها .

(١) الكلمة غامضة في الأصل ، ولم نستطع أن نهتدي إلى ذكر الجبل في المعاجم .
(٢) الأمير حسام الدين بركة خان .
(٣) في أبي الفداء ١٦٨/٣ : «ثم سار عسكر حلب إلى حران ، فاستولوا عليها» .

وساروا خلف الخوارزمية إلى «الخابور»، والخوارزميّة منهزمون، وألقوا أثقالَهم، وبعض أولادهم، ونزلوا في طريقهم على «الفرات»، فجاءهم السَّيل في الليل، فأغرق منهم جمعًا كثيرًا، ودخلوا[1] الى بلد «عانة» واحتموا فيه لأنه بلد الخليفة.

٥ **بشرى بحلب** وزيّنت مدينة حلب أيامًا لهذه البشرى. وضربت البشائر، ووصلت أعلامهم وأسراؤهم، إلى حلب. واعتصمت ‖ القلعة «بحرّان» أيامًا، ثم سلّمت إلى الحلبيّين، وأخرج من كان بها من الأمراء، من أمراء حلب وأقارب السّلطان. [٢٦٥ و]

وبادر[2] «بدر الدّين لؤلؤ» إلى «نصيبين»، وإلى «دارا» ١٠ فاستولى عليهما، واستخلص من «دارا» عمّ السلطان الملك «المعظّم تورانشاه»، واستدعاه إلى الموصل، وقدّم له مراكب، وثيابًا، وتحفًا، كثيرة، وسيّره الى العسكر.

الحلبيون في سروج واستولى العسكر[3] الحلبيّ، على «حرّان»، و«سروج»، و«الرها»، و«رأس عين»، و«جملين» و«الموزر»، ١٥ و«الرقة»، وأعمال ذلك، واستولى «الملك المنصور» على بلد «الخابور» و«قرقيسيا».

---

(١) في أبي الفداء: «وهربت الخوارزمية إلى بلد عانة».

(٢) في أبي الفداء ١٦٨/٣: «وبادر بدر الدين لولو صاحب الموصل إلى نصيبين ودارا، وكانتا للخوارزمية، فاستولى عليهما، وخلّص من كان بهما من الأسرى، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيرًا في بلدة دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيّين، فحمله بدر الدين لولو إلى الموصل وقدم له ثياباً وتحفاً» ويلاحظ القارئ تشابه العبارتين إلى حدّ بعيد.

(٣) في أبي الفداء: «واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج وراس عين وما مع ذلك، واستولى صاحب حمص المنصور ابرهيم على بلد الخابور».

واستولى نوّاب «صاحب الرّوم» على «السويداء»[١]، بعد استيلاء عسكر حلب عليها، لكونها من أعمال «آمد». ووصل نجدة ملك الرّوم[٢]، بعد الكسرة، فسُيِّرت اليهم الخلع، والنفقات.

وساروا إلى «آمد»، والتقوا بعساكر الرّوم، وحاصروها إلى أن اتَّفقوا مع صاحبها ولد «الملك الصالح» على أن أبقوا بيده «حصن كيفا»[٣] وأعماله، وسلم اليهم «آمد». وأقام «الخوارزمية» ببلاد الخليفة، إلى أن دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة.

وخرجوا إلى ناحية «الموصل»[٤]، واتفقوا مع صاحبها، إلى أن أظهر إليهم المسالمة، وسلَّم اليهم «نصيبين».

واتفقوا مع الملك «المظفَّر شهاب الدّين غازي»[٥] ابن الملك العادل — صاحب ميافارقين — وسيّر إلى حلب، وأعلمهم بذلك، وطلب موافقته، واليمين له، على أنه إنْ قَصَده «سلطانُ الرُّوم» دافعوا عنه.

(١) في الأصل: «السويد» ولعلها «السّويداء» وهي بلدة قرب حرّان، كما في معجم البلدان لياقوت.

(٢) في أبي الفداء: «ثم سار عسكر حلب، ووصل اليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصّالح أيوب».

(٣) في أبي الفداء: «وبقي ولد المعظّم وهو الملك الموحد عبدالله ... مالكاً لحصن كيفا إلى أيام التتر، وطالت مدّته بها».

(٤) في السلوك ٣٠٩/١: «وفيها سار الخوارزمية إلى الموصل، فسالمهم صاحبها بدر الدين لؤلؤ، وسلّمهم نصيبين».

(٥) في السلوك: «ووافقهم المظفر شهاب الدين غازي ابن العادل صاحب ميافارقين» — انظر أبا الفداء ١٦٩/٣ حيث تجد العبارة نفسها تقريباً.

في آمد

وكان قد استشعر من جهته ، فلم || يوافقه الحلبيّون على [٢٦٥ ظ] ذلك . ووصل اليه «الخوارزميّة» واتفقوا على قصد «آمد»[١] ، فبرزت العساكرُ من حلب ، ومقدّمها الملكُ «المعظَّم توارنشاه» ، وخرجتْ إلى «حرّان» ، في صفر ، من سنة تسع وثلاثين .

٥ وساروا بأجمعهم إلى آمد ، ودفعوا[٢] الخوارزمية عنها ، ورحلوا عنها إلى «ميّافارقين» ، فأغاروا على رستاقها ، ونهبوا بلدها ، واعتصم الخورزامية بحاضرها ، خارج البلد .

في ميافارقين

ووصلت العساكر وأقامت قريبًا من «ميافارقين» ، وجرت لهم معهم وقعات[٣] ، إلى أن تهادنوا ، على أن يُقطِع ملك «الرُّوم» الخوارزمية ، ما كان أقطاعًا لهم في بلاده ، وأنهم ١٠ يكونون مقيمين في أطراف بلاده ، وعلى أن الملكة «الخاتون» بحلب ، تعطي أخاها الملك المظفَّر ، ما تختاره ، من غير اشتراطٍ عليها ، وعلى أن يكونوا و «شهاب الدّين غازي» سلمًا ، لمن هو داخل في هدنتهم — وكان صاحب ماردين قد حلف للملك الناصر —

أسرى الخوارزمية

١٥ ورجع العسكر الحلبي[٤] ، فلم ينتظم من الأمر الَّذي قرَّروه شيء ، ووصل رسل الملك «المظفَّر» ، ورسل «الخورزاميّة» . وعادوا عن غير اتِّفاق . وأُطلق أسرى «الخوارزمية» من حلب .

---

(١) في السلوك ٣٠٩/١ : «ثم ساروا إلى آمد ، فخرج اليهم عسكر حلب ، عليه المعظم فخر الدين توران شاه بن صلاح الدين» .

(٢) في السلوك : «فدفعوهم عنها ، ونهبوا بلاد ميافارقين» .

(٣) في السلوك : «وجرت بينهم وبين الخوارزمية وقائع» .

(٤) في السلوك : «ثم عاد العسكر إلى حلب ، فغار الخوارزمية على رساتيق الموصل» .

وخرج « الملك المظفَّر » والخوارزمية ، ووصلوا إلى بلد « الموصل » .
وعاد صاحب « ماردين » إلى موافقتهم ، ونزلوا على « الموصل » ، ونهبوا رستاقها[1] ، واستاقوا مواشيها ، ثم توجّهوا إلى ناحية «الخابور» .

واتَّفق الأمر على أن ورد « الملك المنصور » – صاحب حمص – الى حلب . وخرج السُّلطان « الملك النَّاصر » ، وأكابر المدينة ، والتقوه ٥
[٢٦٦ و] إلى ‖ « الوضيحي »[2] . ووصل إلى ظاهر حلب ، في < . . . . >[3] ،
ونزل بدار «علم الدّين قيصر » ، وجمع العساكر ، وتوجّه إلى بلاد « الجزيرة » .

ووصل « الملكُ المظفَّر » و « الخوارزميّة » – بعد أن عبر « الملك المنصورُ » الفراتَ – إلى «رأس عين» ، واعتصم أهلُها ، مع العسكر ١٠
الَّذي كان بها ، وكان معهم جماعةٌ ، من الرّماة ، والجرخية ، من الفرنج ، فأمَّنوا أهلها ، ودخلوها ، وأخذوا مَنْ كان بها مِن العسكر .

ورحل « الملك المنصور » والعسكرُ من « الفرات » الى « حرّان » ،
فعاد الملك المظفَّر والخوارزميّة إلى « ميّافارقين » ، وأطلقوا من كان بها ،
في صحبتهم ، من العسكر الَّذين أخذوهم من «رأس عين » . ١٥

ثم توجّه « الملك المنصور » والعسكرُ إلى آمد ، واجتمعوا بمن كان بها من عسكر الرّوم ، وأقاموا ينتظرون وصول عساكر « الرّوم » ، مع الدهليز[4] ، لمنازلة « ميافارقين » .

---

(١) الرستاق : كلمة فارسية ، ومعناها القرية أو البلد التجاري أو محلّة العسكر .
(٢) ذكرنا قبل قليل أن «الوضيحي» قرية قرب حلب يصلها بالمدينة قطار حالياً .
(٣) بياض في نسختي الأصل باريس ولننغراد ، وهو كما قلنا فراغ تركه المؤلف ليملأه بما يتحصّل عنده من التاريخ والتوقيت ، ولكنه قضى دون ذلك .
(٤) نذكّر هنا بأن الدهليز : هو الخيمة .

وفاة الحافظ

وتوفّي « الملك[١] الحافظ أرسلان شاه » ، ابن الملك العادل ، بقلعة « عزاز » ، ونقل تابوته إلى مدينة حلب . وخرج السُّلطان « الملك الناصر » ، وأعيان البلدة ، وصلُّوا عليه ، ودفن في « الفردوس »[٢] ، في المكان الذي أنشأنه أخته « الملكة ٥ الخاتون » .

وتسلَّم نواب « الملك النَّاصر » قلعة « عزاز » ، من[٣] نوّابه من غير ممانعة ، وذلك كلّه ، في ذي الحجة ، من سنة تسع وثلاثين وستمائة .

خروج التتار

١٠ واتفق[٤] أن خرج « التتار » إلى « أرزن[٥] الرّوم » ، واشتغل « الرّوم » بهم ، وأغاروا إلى بلد « خَرْتَبرت »[٦] ، وخاف « الملكُ المنصورُ » والعسكرُ ، من إقامتهم ‖ في تلك البلاد ، وأنَّهم لا يأمنون [٢٦٦ ظ]

(١) في أبي الفداء ١٦٩/٣ : « وفي هذه السنة — في ذي الحجة توفي الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل بن أيوب باعزاز .... ونقل إلى حلب ، فدفن بالفردوس » .

(٢) هي المدرسة التي بنتها ضيفة خاتون زوجة الملك الظاهر غازي ، سنة ٦٣٣ هـ ، وتقع في جنوبي باب المقام بمدينة حلب ، وما تزال مقصد السائحين لعظمة البناء وروعة المظهر .

(٣) في أبي الفداء ١٧٠/٣ : « وتسلّم نواب الملك الناصر يوسف صاحب حلب قلعة عزاز وأعمالها » .

(٤) في السلوك ٣١١/١ : « وفيها — سنة ٦٤٠ هـ — وصل التتار إلى أرزن الروم » .

(٥) أرزن الروم : بلدة بأرمينية ، في الشمال الشرقي من خلاط ، وقد سماها العرب قاليقلا .

(٦) خرتبرت : علقنا عليها قبل هذا ، وقلنا انها بلدة أرمنية ويطلق عليها العرب اسم حصن زياد ، في أقصى ديار بكر .

من كبسة تأتي من جهة «التتار»، فعادوا إلى «رأس عين»، فخرج «الملك المظفَّر» و «الخوارزمية»[١]، إلى «دُنَيْسِر»[٢]، فخرج «الملك المنصور» إلى «الجرجب»، وساروا إلى جهتهم. فوصلهم الخبر أنهم قد نزلوا «الخابور»، فساروا إلى جهتهم، ونزلوا «المجدل»[٣].

وكان قد انضاف إلى «الخوارزميّة» جمعٌ عظيم، من «التركمان»، يقدُمهم أمير يقال له «ابن دودي»، حتّى بلغ من أمره أنَّه قال للملك المظفَّر: «أنا أكسرهم بالجوابِنَة الَّذين معي». وكان عدّتهم سبعين ألف «جوبان» غير الخيالة من التركمان.

في المجدل

ورحل «الملك المظفَّر»، حتّى نزل قريبًا من «المجدل»، فعلم به «الملك المنصور»، فأشار الأمير «شمس الدّين لؤلؤ الأميني» بمبادرتهم، والرحيل اليهم في تلك السّاعة، فرحلوا، ووافَوهم، وقد نزلوا، في يوم الخميس[٤]، الثالث والعشرين، من صفر، من سنة أربعين وستمائة.

فركبوا، والتقى الصفّان، فما هو إلّا أن التقوا، وولى «الملك المظفَّر»[٥] منهزمًا، «والخوارزمية»، وحالت الخيمُ بينهم وبينهم،

(١) في أبي الفداء ٣/١٧٠: «كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم المنصور ابرهيم صاحب حمص مصاف، قريب الخابور، عند المجدل».

(٢) دُنَيْسِر: بلدة كبيرة بنواحي الجزيرة، بينها وبين ماردين فرسخان، ويقال لها قوج حصار.

(٣) المجدل: أحسن مدينة بالخابور من نواحي الجزيرة — كما في تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٢٧٤.

(٤) في أبي الفداء ٣/١٧٠: «في يوم الخميس لثلاث بقين من صفر هذه السنة».

(٥) في أبي الفداء: «فولى المظفر غازي والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة ونهب منهم عسكر حلب شيئاً كثيرًا، ونهبت وطاقات الخوارزمية ونساؤهم أيضاً».

فسلّموا ، وقُتل منهم جماعة ، ووقع العسكر في الخيم ، والجركاهات ، وبها الأقمشة والنّساء ، فنهبوا جميع ما في العسكر ، وأخذوا النساء وجميع ما كان معهنّ من الأموال ، والحليّ ، والذّهب ، ولم يُفلت من النساء أحد .

٥ **ظفر المنصور** ونزل « الملك المنصور » ، في خيمة[1] « الملك المظفّر » ، واستولى على خزانته ، وعلى جميع ما كان في وطاقه ، وغنم العسكر من الخيل ، والبغال ، والجمال ، والآلات ، والأغنام ، ما لا يُحصى .

وبلغت الأغنام المنهوبة إلى « الموصل » و « حلب » و « حماة » ١٠ و « حمص » ، بحيث بيع الرأسُ من ‖ الغنم في العسكر ، بأبخس [٢٦٧ و] الأثمان ، وضربت البشائر بحلب ، وزيّنت أيامًا سبعة .

وتوجّه « الملك المنصور »[2] ، والعساكر إلى حلب ، وخرج السلطان « الملك الناصر » إلى « قلعة جعبر » . وتوجّه إلى « منبج » للقائهم ، واجتمع بهم ، فوصلوا إلى حلب ، يوم الأربعاء مستهلّ جُمادى الأولى ، ١٥ من سنة أربعين وستمائة .

وطلع « للخاتون الملكة » قرحة[3] في مراق البطن ، وازداد ورمُها ، وحدث لها حمّى بسببها .

---

(١) في أبي الفداء ١٧١/٣ : « ونزل الملك المنصور ابراهيم في خيمة الملك المظفر غازي ، واحتوى على خزانته ووطاقه » .

(٢) في أبي الفداء ١٧١/٣ : « ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب في مستهل جمادى الأولى ، مؤيدين منصورين » .

(٣) في أبي الفداء : « توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وكان مرضها قرحة في مراق البطن وحمّى ، ودفنت بقلعة حلب » .

وفاة الخاتون

وسار « الملك المنصور » ليلة الجمعة ثالث الشهر . وتوجّه في صحبته نجدة من حلب ، لتقصد بلاد الفرنج بناحية « طرابلس » .

وقوي مرض « الملكة الخاتون » ، الى أن توفّيت الى رحمة الله تعالى ، ليلة الجمعة الحادية عشرة ، من جُمادى الأولى ، من سنة ٥ أربعين وستمائة . ودفنت في الحجرة بالقلعة ، تجاه الصفّة ، التي دفن فيها ولدها الملك العزيز — رحمهما الله — .

وكان مولدُها بقلعة حلب ، حين كانت في ولاية أبيها « الملك العادل » ، إما في سنة إحدى[1] أو اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وبلغني أنّه كان عنده ضيف ، فلمّا أُخبر بولادتها ، سمّاها « ضيفة » ١٠ لذلك[2] .

مُلك الناصر

وأمر السّلطان « الملك الناصر » في ملكه ، ونهى باشارة وزيره « جمال الدّين الأكرم »[3] والأمير « جمال الدولة اقبال الخاتوني » .

١٥ وعلّم السّلطان في التواقيع ، وأشهد عليه بتمليك الأمير « جمال الدّولة » نصفَ الملوحة ، والحصّة الجارية ، في ملك بيت المـال

(١) في أبي الفداء : « وكان مولدها سنة احدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب » .

(٢) في أبي الفداء : « فكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة » .

(٣) في السلوك ٣١١/١ : « وقام بتدبيره بعد جدته الأمير شمس الدين لؤلؤ الأتابك ، والأمير جمال الدين اقبال الأسود الخصي الخاتوني ، والوزير الأكرم جمال الدين القفطي » .

« بالناعورة » . وأقرّ على نفسه[1] بالبلوغ ، وملّك الوزير الحصّة ، التي بأيدي نوّاب بيت المال « تقيل » ورحاها .

في دار العدل

وجعل يجلس في « دار العدل » ، || في كلّ يوم اثنين [٢٦٧ ظ] وخميس ، بعد الركوب ، وترفع إليه المظالم .

٥ وخَلع على أمرائه وكبراء البلد ، وأقطع الأمير « جمال الدّولة » « عزاز » وقلعتها وما كان في يد « الملك الحافظ » ابن الملك العادل ، وجميع ما كان من الحواصل ، في الأماكن المذكورة ، وذلك في الحادي والعشرين ، من جُمادى الأولى من سنة أربعين وستّمائة .

التركمان في الجزيرة

وعاثت « الخوارزمية » و « التركمان » على بلاد « الجزيرة » ، ١٠ فخرج عسكر حلب ، ومقدّمهم الأمير « جمال الدّولة » في جمادى الآخرة ، وساروا ، واجتمعوا في « رأس عين » .

فتجمّع الخوارزمية ، وانضوَوْا إلى صاحب « ماردين » ، واحتموا بالجبل ، فوصل عسكر حلب ، ونزلوا مقابلتهم ، تحت الجبل ، وخندقوا حولهم ، وجرت لهم معهم وقعات .

١٥ وتضرَّر عسكر حلب ، بالمقام ، لقلة العلوفة ، إلى أن ورد « نائب المملكة بالرّوم » وهو « الأمير شمس الدّين الأصبهاني » إلى « شهاب الدّين غازي » – والى صاحب ماردين – والخوارزمية ، وأصلح بينهم على على أن يعطى صاحب « ماردين » « رأس عين » . وأرضى « ملك الروم » الخوارزمية « بخرتبرت » ، وشيء من البلاد ، والملك المظفَّر ٢٠ غازي « بخلاط » .

---

(١) في أبي الفداء : « وكان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز نحو ثلاث عشرة سنة ، فأشهد عليه أنه بلغ ، وحكم ، واستقلّ بمملكة حلب وما هو مضاف اليها ، والمرجع في الأمور إلى جمال الدين اقبال – الأسود الخصيّ – الخاتوني » .

وتوجَّهت العساكرُ ، – و « النائبُ الاصبهاني » ، في جملتها – وخرج السُّلطان « الملك الناصر » ، وتلقَّاهم إلى « منبج » ، ودخل « النّائب » إلى حلب ، يوم السبت التاسع عشر من شوّال .

***

قتال التتار

ودخل السّلطان والعسكر ، يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شوّال ، وورد مع « النَّائب » أموال عظيمة ، لتستخدم ٥ بها العساكر للقاء « التتار »[1] <ويطلب>[2] نجدة ‖ من البلاد عليهم ، [٢٦٨ و] فسيّر من حلب نجدةً ، ومقدّمها « الناصح الفارسي » ، في ذي الحجة ، من سنة أربعين وستمائة .

كيخسرو في سيواس

فالتقاهم السّلطان « غياث الدّين »[3] ، « بسيواس »[4] أحسن لقاء ، وأعطاهم عطآء سنيّا ، وفوّض تدبير العسكر ١٠ إلى « الناصح أبي المعالي الفارسي » ، وفرح أهل « بلاد الرّوم » ، وقويت قلوبهم بنجدة حلب .

وسار « السُّلطان » من « سيواس » إلى « أقشهر »[5] ، ووصله

(١) في السلوك ٣١٣/١ : « سنة أحدى وأربعين وستمائة : فيها قدم التتر بلاد الروم ، وأوقعوا بالسلطان غياث الدين كيخسرو » .

(٢) كلمة مطموسة ، أخذناها عن مخطوطة لننغراد .

(٣) في السلوك ٣١٣/١ : « فدخل غياث الدين في طاعتهم على مال يحمله اليهم . وملكوا أيضاً سيواس وقيسارية بالسيف ، وقرروا على صاحبهما في كل سنة أربعمائة ألف دينار » .

(٤) سيواس : مدينة بآسية الصغرى على ستين ميلاً من قيسارية ، وعلى مسيرة يومين من توقات .

(٥) أقشهر : ويقال لها أقشار ، جاءت في تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٣٨٣ : « قال ابن سعيد : من أنزه المدن وبها بساتين كثيرة وفواكه مفضلة ... وهي عن قونية مسيرة ثلاثة أيام شمالاً بغرب » .

الخبر بوصول «التتار»، فسيَّر بعضَ أمرائه، وعسكر حلب، ليكشفوهم. فوصلوا إليهم، ونشب القتال بينهم.

ووقعتْ بينهم حملاتٌ، فانهزم «التتار»، بين أيديهم، ثم تكاثروا، وحملوا عليهم، فانكسر عسكر «الروم» وثبت الحلبيون، ٥ وجرى بينهم كرّات، وخرج عليهم كمينان، من اليمين واليسار فأحْدَقُوا بهم، فلم يسلم منهم إلّا من حمل، وخرج من بينهم، وذلك، في يوم الخميس، الثالث عشر من المحرّم، سنة إحدى وأربعين وستمائة.

وانهزم ملكُ «الرُّوم» في الليل، ليلة الجمعة، وأجفل أهل ١٠ بلاد الرُّوم، إلى حلب وأعمالها، وعاثَ «التُّركمان» في أطراف الرُّوم، ونهبوا مَن خَرج إلى الشَّام.

يَقول كاتبها :

كُتبت هذه النسخة من خطّ مؤلفها المولى الصّاحب كمال الدّين أبي حفص عمر بن أحمد بن عبد الله بن أبي جرادة الحلبي، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وهذا آخر ما وجدته بخطّه.

وذلك لإحدى عشرة ليلة، خلت من ربيع الآخر، سنة ستّ وسبعين وستمائة. أحسن الله ختامها، والحمد لله، وصلاته على نبيّه محمّد وسلّم.



تَمَّ الجزء الثالث

وَبِهِ تَمَّ كتاب

« زُبدَة الحَلَب »

« مِن تاريخ حَلَب »

فهارس الكتاب

١- فهرس الأعلام

جمعنا في هذا الفهرس أعلام الرجال والقبائل والطوائف التي جاءت في متن هذا الجزء من « الزبدة » . وقد رتبنا هذه الأعلام بالكنى أو بالألقاب أو الأسماء والأنساب كما اشتهرت . واعتبرنا كلمة ابن وأب وأم أساسية في صلب الاسم سواء أكانت في بدئه أم في وسطه كأن الاسم مركب .

وننبه المطالع الى تردّد الألقاب عند الملوك وتكررها فهناك تشابه كثير في الناصر والظاهر وغيرهما ، لأن لكل قصبة ومدينة ملكها ، ولكل ملك لقبه وكنيته ، فلقينا عنتاً وجهداً في فصل كل منهم عن سميّه وقرينه في هذا الفهرس .

ا

٢ - فهرس البلدان والمواضع

كثرت أسماء المواضع والبلدان في هذا الجزء من تاريخ حلب لابن العديم كما ذكرنا في الجزأين السابقين ، حتى لكأنه جعله في جغرافية حلب وأطراف الشام . متبعاً في ذلك خطة كتابه الكبير « البغية » . وقد استعنا في تحديد البلدان ووصف المواضع بياقوت الحموي وهو صديق ابن العديم ومعاصره ، وأخذنا باكمال ما نقصه عن مختصره « مراصد الاطلاع » ، في الحواشي التي أثبتناها في هذا الجزء . فيحسن بالمطالع الرجوع اليها حين قراءة هذا الفهرس .

ا

ب

غ

ف

ق

٣ - فهرس الكتب والمراجع

وضعنا في ذيل مقدمتنا جدولاً لبيان الرموز المستعملة والاختصارات الواردة في الطبعة . وسنورد في هذا الفهرس العناوين الموجزة لأسماء الكتب التي رجعنا اليها في تحقيق هذا الجزء ، وقد سردناها سرداً من غير ذكر للصفحات الواردة فيها ، لأننا قد فعلنا ذلك في الجزأين يحسن الرجوع اليهما . واكتفينا هنا بايرادها وذكر طبعاتها بالسنين والبلدان لتحديد مصادرنا .

ا

١ – « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » – لابن شداد ، الجزء الأول – القسم الأول (قسم حلب) (تحقيق دومينيك سورديل ، بالمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٥٣) .
– تاريخ مدينة دمشق (تحقيق سامي الدهان ، بالمعهد نفسه ، دمشق ١٩٥٦) .
– تاريخ لبنـــان والأردن وفلسطين (تحقيق سامي الدهان ، بالمعهد نفسه ، دمشق ١٩٦٢) .
٢ – « اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » – للشيخ محمد راغب الطباخ (حلب ١٩٢٣ وما بعدها) .

ب

٣ – « البداية والنهاية » – لابن كثير القرشي (مصر ١٩٣٢) .
٤ – « بغية الطلب في تاريخ حلب » – لكمال الدين ابن العديم (مخطوطات استانبول) .

ت

– تاريخ ابن الأثير = « الكامل في التاريخ » .
– تاريخ ابن الشحنة = « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » .
٥ – « تاريخ ابن الوردي » – (مصر ١٢٨٥ /١٨٦٨) .
– تاريخ أبي الفداء = « المختصر في أخبار البشر » .
٦ – « تقويم البلدان » – لأبي الفداء (طبعة ده سلان بباريس ، ١٨٤٠) .
٧ – « تكملة المعاجم العربية » – لدوزي (بالفرنسية في باريس ١٩٢٧) .
٨ – « التمدن الاسلامي » – تأليف جرجي زيدان (طبعة مصر ١٩٣٥ وما بعدها) .

د

٩ – « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » – لابن الشحنة (بيروت ١٩٠٩) .
١٠ – « ديوان الوأواء الدمشقي » – (تحقيق سامي الدهان ، طبعة المجمع العلمي بدمشق ١٩٥٠) .

ذ

١١ – « ذيل الروضتين أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع » – للحافظ شهاب الدين أبي شامة (طبعة عزت العطار ، بمصر ١٩٤٧) .

ر

١٢ – « الروضتين في أخبار الدولتين » – للحافظ شهاب الدين أبي شامة (ط. مصر ١٢٨٧ / ١٨٧٠) .

ز

١٣ – « زبدة الحلب من تاريخ حلب » – لكمال الدين ابن العديم (الجزء الأول ، بالمعهد الفرنسي للدراسات العربية ، في دمشق ١٩٥١ – والجزء الثاني ، بالمعهد نفسه في دمشق ١٩٥٤) .

١٤ – « الزبد والضرب في تاريخ حلب » – لابن الحنبلي (مخطوطة) .

س

١٥ – « السلوك لمعرفة دول الملوك » – لتقي الدين أحمد المقريزي (تحقيق الدكتور مصطفى زيادة ، مصر ١٩٣٤) .

– سيرة صلاح الدين الأيوبي = « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » .

ص

١٦ – « صبح الأعشى في صناعة الانشا » – للقلقشندي (مصر ١٩١٣ – ١٩١٨) .

غ

١٧ – « غوطة دمشق » – تأليف محمد كرد علي (طبعة دمشق ١٩٥٣) .

ف

١٨ – « فوات الوفيات » – لابن شاكر الكتبي (مصر ١٢٩٩/١٨٨١) .

ك

١٩ – « الكامل في التاريخ » – لابن الأثير (مصر ١٣٤٨/١٩٢٩) .

ل

٢٠ – « اللباب في تهذيب الانساب » – لابن الأثير (مصر ١٣٥٧/١٩٣٨) .

م

٢١ – « المختصر في أخبار البشر » = لأبي الفداء (القسطنطينية ١٢٨٦/١٨٩٦) .

٢٢ – « مختصر الدول » – لابن العبري (بيروت ١٨٩٠)

٢٣ – « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » – لسبط ابن الجوزي (حيدر آباد الدكن ١٣٧٠/ ١٩٥١) .

٢٤ – « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » – لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (تحقيق علي محمد البجاوي بمصر) .

٢٥ – « معجم البلدان » – لياقوت الحموي (طبعة وستنفلد في ليبزيغ ١٢٧٨/١٨٦٦)

٢٦ – « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » – لجمال الدين ابن واصل (طبعة الدكتور جمال الدين الشيال ، الجزء الثاني بمصر ١٩٥٧ ، والجزء الثالث بمصر ١٩٦٠) .

ن

٢٧ — « الناصر صلاح الدين الأيوبي » — تأليف سامي الدهان (القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٠) .
٢٨ — « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » — لابن تغري بردي (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦) .
٢٩ — « نهر الذهب في تاريخ حلب » — تأليف محمد كامل الغزي (حلب ١٩٢٧ وما بعدها) .
٣٠ — « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » — للقاضي بهاء الدين ابن شداد (القاهرة ١٣١٧ / ١٨٩٩) .

و

٣١ « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » — للقاضي ابن خلكان (مصر ١٣١٠/١٨٠٢) .

فهرس محتويات الكتاب

مقدمة الناشر

زبدة الحلب - الجزء الثالث

من ٥٦٩ هـ - الى ٦٤١ هـ

الصفحة

الصفحة

القسم التاسع والعشرون :

القسم الثلاثون :

القسم الحادي والثلاثون :

فهارس الجزء الثالث

تصويب واستدراك

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٩٤	٢٠		الحواشي مضطربة في ترجمة رجال الصليبيين وأسمائهم
٩٧	٨	الغولة	الفولة
١٦٣	١	٦٠٠	٦٠٧
١٧١	٦	أنّة	رنّة (راء ثم نون) والشعر في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ط. مصر ١٩٥٢ ٩٥١/٢ ، وهو لعبدالله بن أيوب التيميّ في رثاء منصور بن زياد أحد وجوه الدولة العباسية ، وقد قلنا في الحاشية : لعله أحد معاصري الظاهر .
٢١٥	١٩	ومحمد	محمد (بدون واو العطف)

وأما باقي الأخطاء مما لم نقف عليه فنعتمد فيه فطنة القارئ ودقته فهو يرى ما لا يرى المحقق أو الطابع .

تمّ طبعُ هذا الجزء الثالث في المطبعة
الكاثوليكية ببيروت ، يـــوم السبت
السابع من شهر كانون الاول (ديسمبر)
لسنة ألف وتسعمائة وثمانٍ وستين ميلادية



INSTITUT FRANÇAIS DE DAMAS

SAMI DAHAN

Docteur ès Lettres

Membre de l'Académie Arabe de Damas

HISTOIRE D'ALEP

PAR

KAMĀL AD-DĪN IBN AL-'ADĪM

588-660/1192-1262

TOME III

569-641/1173-1243

DAMAS

1968



INSTITUT FRANÇAIS DE DAMAS

SAMI DAHAN
Docteur ès Lettres
Membre de l'Académie Arabe de Damas

HISTOIRE D'ALEP

PAR

KAMĀL AD-DĪN IBN AL-'ADĪM

588-660/1192-1262

TOME III

569-641/1173-1243

DAMAS
1968